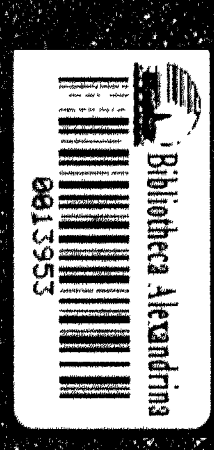

Bibliotheca Alexandrina
0013953





البلاغة الفنية

تأليف

على الجندى

عميد كلية دار العلوم — جامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات البلاغية بها سابقا

الطبعة الثانية

١٩٦٦

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد (عماد الدين سابقا)

بسم الله الرحمن الرحيم

« الرحمنُ . علّمَ القرآن . خلق الإنسان . علّمه البيان »

• • •

المحمود : اللهُ جلّ ثناؤه ، والمصلّى عليه : رسلُه وأنبياؤه ، والمدعوُّ له : الوطن العربي وأبناؤه !! .

مقدمة الطبعة الأولى

هذه فصول فى ألوان من البلاغة ، شغلت أذهان علماء البيان ، وجماعة الأدباء والشعراء فى الماضى ؛ ولم يزل لأكثرها شأنه فى الحاضر ، على أن ما أفل نجمه منها لايزال يُلقى على بعض أدبنا الموروث من شعر ونثر، ظله السابغ الشّعشاع ، وينهض فيه أثره واضحاً ملموساً ؛ بحيث لا نستطيع دراسته كما يجب ، ونقدره حق قدره ، ونتوصل إلى فهمه ، ونحيط بدقائق صوره ، بغير هذه البحوث الكاشفة الواسعة ، التى هى سمة الجامعات وميزتها الكبرى .

وهذه الفنون البلاغية التى أشرت إليها ، والتى مارستها فى كتابى هذا ، تتميز بالرغم من عناوينها الكلاسيكية -- بالطرافة والجدة -- فهى تروعك أبداً وتروقك دائماً ، كالروض تخلع عليك أزهاره كل يوم صوراً مستحدثة ، وكالقمر تجلو عليك أنواره كل ليلة جمالا جديداً !!

وهى -- إلى ذلك -- تتسم بالثراء والترف والنعمة ؛ فهى ليست ككل كلام استحق اسم البلاغة ؛ بما حوى من شيات الجمال المتعارف لدى البلغاء ، ولا يكفى فيها أن تكون حلوة الألفاظ ، بارعة الأساليب ، جميلة الأخيلة صادقة الأداء . بل لا تقنع بما يقنع به غيرها من ذلك التحسين والتنميق والتحبير ، الذى يوفره لها ما يسمى بالمحسِّن البديعى ، ولكن لابد لها وراء ذلك من ثروة فى الأنغام ، وغنى فى الألحان ، ودسومة فى الفواصل والقوافى إلى حد التخمة ، حتى يصير الكلام كله غناء ، أو شبيهاً بالغناء ، ومن هنا جاءت تسميتها «بالبلاغة الغنية» ، لأنها غنية حقاً وصدقا ، بل لعلها مفرطة الغنى ، مسرفة الثراء !!

وقد سلكت فى معالجتها ما يحتمه النهج العلمى الجامعى: من قراءة شاملة

ونظر مستوعب ، وتحقيق دقيق ، ونقــد فاحص ، وموازنة سديدة ، واستنباط رشيد ، مستصحباً في دراستها بعلم النفس ، وفلسفة الجمال ، وروح الأدب ، مستهدياً بصناعة الشعر ، وما توفره لصاحبها من ذوق موسيقي ، وحاسة فنية .

وكان وكدي الأول أن أجعلها بلاغة أدبية ، تعتمد على حسن العرض وأناقة السرد ، وتخير الشاهد والمثال ، والافتنان في إيراد النماذج الفاخرة لحشدت فيها ما يخطئه العد من آثار القدماء والمحدثين ، عارضاً لها بالنقد تارة والموازنة أخرى ، مبيناً غثها من سمينها ، ومعوجها من قويمها ، حتى أصبح الكتاب كتاب أدب إن شئت ، وكتاب بلاغة ونقد إن أردت ، وديوان شعر إن رمت . ولست أزعم أني بلغت الغاية ، أو أرضيت نفسي كل الرضاء ، ولكني أستطيع أن أقول : إني بذلت جهد الاستطاعة ، وجريت إلى نهاية الشوط ، وأخلصت فيما صنعت ، والحمد لله على كل حال ، وهو وحده المتصف بالكمال .

علي الجندي

الفصل الأول

الالتزام

ويسمى أيضاً . لزوم مالا يلزم ، والإعنات ، والتضييق ، والتشديد ، والتضمين [1] .

ويسميه نقاد الغرب : القافية الغنية .

وجمالها عندهم : ناشيء عن ندرتها [2] .

وأسماؤه كلها ناطقة بما يأخذ به صاحبه نفسه من عسر القيود ، وثقل المئونة ، وتحجير ما وسعه الله عليه ، وتكلف مالو تجنبه ، لم تلحقه تبعة ، ولا أدركه عيب ، ولا وقع فى قصور أو تقصير .

وقد عرفه ابن أبى الإصبع : بأن يلزم الناثر فى نثره ، والشاعر فى شعره — قبل روى النثر والشعر — حرفاً فصاعداً على قدر قدرته ، وبحسب طاقته ، مشروطاً بعدم الكلفة [3] .

وقال النويرى : هو أن يعنت نفسه فى التزام ردف [4] ، أودخيل [5] أو حرف مخصوص قبل حرف الروى ، أو حركة مخصوصة [6] .

وتوخى بعضهم الاختصار فى تعريفه ، فقال : هو أن يلتزم الناظم فى نظمه ، أو الناثر فى نثره — قبل حرف الروى من البيت ، أو الفاصلة من النثر — ماليس بلازم فى مذهب السجع [7] .

---

(١) سمى تضمينا ، لتضمن القافية ماليس يلزمها .

(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ١٧١ .

(٣) تحرير التحبير ٢٤٤ « مخطوط » وانظر كتاب بديع القرآن — ١٨٠ — ١٨١ .

(٤) الردف : حرف ساكن من حروف اللين ، يقع قبل حرف الروى ليس بينهما شىء .

(٥) الدخيل : الحرف الذى بين حرف الروى وألف التأسيس . والتأسيس : الألف التى ليس بينها وبين حرف الروى إلا حرف واحد كقول النابغة :

كلينى لهم ياأميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطىء الكواكب

(٦) نهاية الأرب — ٧ — ١١٣

(٧) انظر خزانة الأدب للحموى ، وحسن التوسل للحلبى فى الالتزام .

أى إن هذا الالتزام زيادة لاتتطلبها التقفية ، سواء أكانت فى النظم أم النثر ، فلو لم توجد لاستقام بدونها ؛ ولم يقع عليه ضيم بتركها ، ولكن جىء بها مبالغة فى التناسب والتماثل ، وغلواً فى التزيين والتنميق .

فالسجع بمعناه الواسع : أى التقفية ، يكتفى فيه بتساوى أجزاء الفواصل . وفى الالتزام زيادة التماثل قبل حرف الروى ، فهو سجع وزيادة .

فمثلا يجوز أن تجعل كلمة « كتاب » مقفاة مع كلمة « صواب » ، وكلمة « فهم » مصدر فهم ، مع كلمة « علم » مصدر علم ، ولكن التزام التاء فى مثل كتاب وعتاب ، وعلم وحلم — بكسر العين والحاء — يكسب التعبير بهاء ، ويزيد النغمة نداوة ورخامة ورنينا .

والالتزام على ثلاثة أقسام :

١ — التزام الحركة وحدها كقول ابن الرومى :

لما تُؤذن الدنيا به من صروفها	يكون بكاء الطفل ساعةَ يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها	لأوسع مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهلّ كأنه	بما سيلاقى من أذاها يهدّد

فقد التزم الفتح قبل الروى .

٢ — التزام الحرف :

ويكون بحرف واحد ، كقوله — تعالى — : «فأما اليتيم فلا تقهَر ، وأما السائل فلا تنهر » . فالراء بمنزلة حرف الروى ، ومجىء الهاء قبلها فى الفاصلتين « لزوم مالا يلزم » لصحة السجع بدونها ، لو حولناه إلى سجع آخر فى غير القرآن الكريم ، نحو : فلا تقهر ولا تسخر .

ومثل ذلك قوله — سبحانه — : « ألم نشرح لك صدرك ... » الآيات التزم فيها الراء قبل الكاف .

« فلا أُقسِم بالخُنَّس . الجوار الكُنَّس[١] » .

التزم فيها النون المشددة قبل السين .

« والليل وما وَسَقَ . والقمر إذا اتسق[٢] » .

التزم فيها السين قبل القاف .

ومن ذلك قول ابن خفاجة الأندلسى : وقد التزم العين قبل حرف الرَّوِىّ :

أنَّى تطاولنى ودونَ بسطتها	جدّ يساعدنى وَجد مسعِد
ها قد حللت وللتقلقل غاية	فى حيث يشرق ثم يشرف مقعَد
طلت السماء فهل سمعت بحيلة	ترقى بها نحو السماء وتصعَد
الزم ثراك وغض طرفك ذلة	فكأنى أناى عليك وأبعد
ولئن ضربت — وقدعرتنى وعكة	فالليث يبرد والمهند يرعد

ويكون بحرفين ؛ كقوله — تعالى — « والطُّور وكتاب مسطور » التزم فيها الطاء والواو قبل الراء .

« ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غيرَ ممنون » التزم فيها النون والواو قبل النون .

ويكون بثلاثة أحرف ؛ كقوله — تعالى — : « فإذا هم مُبصِرون ، وإخوانهم يَمدُّونهم فى الغَىّ ثم لا يُقصرون »

التزم فيها الصاد والراء والواو قبل النون .

وابن الأثير — كما يأتى — لا يعد مثل هذه الواو داخلة فى اللزوم ، لأنها ليست من بنية الكلمة .

٣ — التزام الحرف والحركة معاً ، كما فى بعض الأمثلة المتقدمة .

---

(١) الخنس بضم الخاء وفتح النون المشددة : الكواكب السيارة سميت بذلك لخنوسها : أى رجوعها . والكنس بوزن الخنس ؛ سميت بذلك لأنها تكنس كالظباء فى دخولها كناسها : أى تستتر تحت ضوء الشمس .

(٢) وسق من باب وعد : جمع وحمل . واتسق : انتظم وامتلأ نوراً .

وكقول عبدالله بن الزبير(١) الأسدى — يمدح عمرو بن عثمان بن عفان:(٢)

سأشكر عمراً ما تراخت منيتى
أيادىَ لم تُمنن وإن هى جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه
ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت(٣)

رأى خَلتى من حيث يخفى مكانُها
فكانت قذى عينيه حتى تجلت(٤)

فحرف الروى — وهو التاء — قد جاء قبله بلام مشددة مفتوحة .

وهو ليس بلازم فى السجع ؛ لصحة السجع بدونها . مثل جلت ، ومدت ومنت ، وانشقت ، ونحو ذلك .

ففى الأبيات نوعان من اللزوم :

أحدهما : التزام الحرف .

والآخر : فتحه .

وقد يوجد الأول بدون الثانى ، وبالعكس .

ولا يعد الردف فى القافية — وهو الياء والواو قبل حرف الروى — من باب اللزوم ، كعين ، وقيْن ، وحوْل ، وصوْل : لأنه لا يمكن العدول عنه ؛ لتعين السير عليه فى كل الأبيات .

وقد ذكر ابن الأثير : أن بعضهم عد من هذا النوع بيتين فى الحماسة ، قافيتهما : « طيش » وعيش(٥) » .

---

(١) الزبير بوزن أمير : شاعر كوفى المنشأ والمولد من شعراء الدولة الأموية ، وهو أحد الهجائين المشهورين .

(٢) هذه رواية معاهد التنصيص — ٢ — ١٠٥ وفى التجريد على السعد — ٤ — ٤٥٠ : أنها لمحمد بن سعيد الكاتب فى عمرو بن سعيد الأشدق .

(٣) لم تمنن بالبناء للمجهول : لم تقطع ، أو لم تخلط بالمن ، وهو ذكر الصنيعة .

(٤) الخلة بفتح الخاء : الحاجة والفقر والخصاصة .

(٥) ديوان الحماسة — ٢ — ٤٠٢

وليس هذا من باب اللزوم ؛ لأن اللزوم هو : أن يلتزم الناظم والناثر ما لا يلزمه ؛ كقولنا : شرَق وفرَق مثلا : فإنه لو قيل بدلا من ذلك : شرق وحنق لجاز ذلك ؛ وفى هذين البيتين لا يقع الأمر كذلك ، لأنه لو قال : طيش وعرش لما جاز ...

وإذا جيء بذلك فى الشعر ، والكلام المنثور ، لا يقال . إنه التزم مالا يلزم ، لأن الملتزم مالا يلزم ، له مندوحة فى العدول إلى غيره ، وههنا لا مندوحة .

ثم قال : وربما وقع بعض الجهال فى هذا الموضع ، فأدخل فيه ما ليس منه ، كقوله — تعالى — « إن المتقين فى جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربُّهم ، ووقاهم ربُّهم عذاب الجحيم » .

وهذا لا يدخل فى باب اللزوم ، لأن الأصل فيه « نعم » و « جحم » والياء من حروف المد واللين ، فلا يعتد بها ههنا (١) .

وهذا كلام ظاهر الجودة ، ولكن ينقصه أن يقال : إن الجمع فى القوافى بين الواو والياء غير معيب (٢) ، كما جاء فى مقطوعة لبعض العصريين عنوانها « السمن الفقيد (٣) » وهى :

لفقد السمن قد جزعت ... وناحت ربّةُ البيت
فقلت . تجلّدى فالنّو ... ح محظور على الميت
ولا تلوى على « لو » ... — فما تُجدى — ولا « ليت »
فقد ولّى بلا رُجعى ... فسلى الهمّ بالزّيْت
أيا « تجّارُ » هل يسرى ... إلى أسماعكم صوتى
هىَ الدنيا بما فيها ... ومن فيها إلى فوْت
فخافوا سطوة الجبا ... ر ، واخشَوْا فجأة الموت

(١) المثل السائر — ١٠٩ — ١١١ .
(٢) مفتاح العلوم — ٣٠٠ .
(٣) ألحان الأصيل — ٣٣١

فلو أن الشاعر التزم الواو وحدها ، أو الياء وحدها ، لعد صنعه من باب اللزوم ، لأنه التزم شيئاً لا توجبه عليه قواعد العروض .

وقد قال ابن أبي الإصبع فى قوله — تعالى — : « والطور وكتاب مسطور » جاءت الطاء قبل واو الردف لازمة ، وجاءت الواو ردفاً . مع جواز تبديلها بالياء .

وقال فى قوله — عز وجل — : « أمَرْنا مُترفيها ففسقوا فيها » . لزمت فيها الفاء قبل ياء الردف ، ولزمت الياء مع جواز تبديلها بالواو[1] .

ومهما يكن فيجوز من غير قبح وقوع الواو فى بعض أبيات القصيدة ، والياء فى بعضها الآخر عند العروضيين ، وإن كان التزام أحـدهما وحده — إذا وقع عفواً — أحسن تنغيما ؛ بخلاف الألف فإنها لا يصح أن تقع مع الواو والياء .

وبعض المحدثين يقع فى هذا الخطأ ولا يعرفه .

ومن ذلك قول السموءل :

إذا المرء لم يَدْنَس من اللؤم عِرضه
فكل رداء يرتديه جميل

وقوله

وما ضر من كانت بقاياه مثلنا
شباب تسامى للعلا وكهول

فقد جمع كثيراً بين الواو والياء فى هذه القصيدة العصماء .

والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى ، بل من النادر أن توجد قصيدة مردوفة بأحدهما فقط[2] .

وقد جاء اللزوم كثيراً فى القرآن الكريم على رأى الحموى ، وقليلا على رأى ابن الأثير[3] .

والحق أن المتتبع له ـ على الشرط الذى ذكروه ـ يجده كثيراً فى الكتاب العزيز ، كما مر فى الأمثال .

(١) بديع القرآن ـ ١٨١ .
(٢) هامش شرح المفصل ـ ١٠ ـ ٩٥ .
(٣) خزانة الأدب ـ ٥٣٠ ـ المثل السائر ـ ١١٠ .

وكقوله — تعالى — : « يا أبت إنى أخاف أن يَمَسَّك عذاب من الرحمن ، فتكون للشيطان وليًّا ، قال أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرْجُمنَّك واهْجُرنى مليًّا ».

« قال قرينه ربنا ما أطغَيته، ولكن كان فى ضلال بعيد، قال: لا تختصموا لدىَّ وقد قدّمت إليكم بالوعيد » .

« فذكِّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، وإن لك لأجراً غيرَ ممنون(١) ».

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علَق » .

وقد جاء كثيراً فى الحديث الشريف ، كقوله : — عليه الصلاة والسلام — : « شر ما فى المرء : شح هالع ، وجبن خالع » .

« الأرواح جنود مجندة: فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

« إذا استشاط السلطان ، تسلط الشيطان(٢) ».

ومن ذلك قول عمر — رضى الله عنه — : لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً .

وقول بعض الأدباء : وجهه وسيم ، وفضله جسيم .

وقول امرأة : المسُّ : مس أرنب ، والريح : ريح زَرْنب(٣) .

ومن النثر المطبوع الذى وصفه ابن الأثير بالحلاوة وعدم الكلفة : قول بنت قيس بن خالد لزوجها الثانى — تصف له زوجها الأول « لقيط ابن زُرارة » —: خرج لقيط فى يوم دجن — وقد تطيب وشرب — فطرد البقر — بقر الوحش — فصرع منها ، ثم أتانى — وبه نضح من دم — فضمنى ضمة ، وشمنى شمة ، فليتنى مت ثمة(٤) !!

(١) ممنون : مقطوع .

(٢) استشاط : التهب غضبا .

(٣) الزرنب وزن زينب طيب، أو شجر طيب الرائحة ، والزعفران .

(٤) المثل السائر — ١٠٧ وانظر القصة كاملة فى الكامل للمبرد ــ ٥ ــ ٩٣

والشاهد فى قولها : ضمة إلخ .

وهو فى الشعر كثير مستفيض ، ويتفاوت فى الحسن والقبح تفاوتاً كبيراً .

فمن المطبوع الجيد : قول عروة بن أُذَيْنة(١) :

إن التى زعمتْ فؤادَك ملَّها
خُلقت هواكَ كما خُلقت هوًى لها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها
بلباقة فأدقَّها وأجلَّها(٢)

حجبت تحيَّتها فقلت لصاحبى
ما كان أكثرها لنا وأقلها

وإذا وجدتُ لها وساوسَ سَلوة
شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

وقول أبى نواس :

اترك الأطلال لاتعبأ بها ... إنها من كل بؤس دانيه
وانعَت الراح ـعلى تحريمها ـ ... إنما دنياك دنيا فانيه
من عقار من رآها قال لى ... :صيدت الشمس لنافى آنيه(٣)

وقوله :

أما وزَنْد أبى « على » إنه ... زند إذا استوريت سهل قدحا
إنى ليأبى الصنع عالى همتى ... من غيركم ، ويعاف إلا مدحا

(١) ديوان الحماسة ـ ٢ ـ ٦٨ ـ ٦٩

(٢) دقت : دق خصرها وأنفها وحاجباها ، وجلت : عظم ساقاها وعضداها وكل مايحسن كبره فيها. دولة النساء ـ ٢٧٠ وهو كقول الشنفرى :

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت ... فلو جن إنسان من الحسن جنت

(٣) العقار بالضم :الخمر لأنهاعقرت العقل ، أوعاقرت العقل،أوعاقرت الدن أى لازمته .

(٤) استوراه : استخرج ناره .

وقول أبي تمام :

خدم العلا فخدمنه وهى التى لاتخدُم الأقوامَ مالم تخـدَم
فإذا ارتقى فى قـلة من سؤدد قالت له الأخرى بلغت تقدم

وقول أبي الطاهر السَّرَقُسْطي :

كل حبيب لـه دلال وربمـا شابه مـلال
وأنت أنت الحبيب لكن من دون إسعـافك الهلال

وقول المعرى :

يقولون فى البستان للعين لذة وفى الخمر والماء الذى غير آسن
إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها ففى وجه من تهوى جميع المحاسن

وقوله :

لاتطلبن بآلة لك رفعـة قلم البليغ بغـير حظ مغزل
سكن السِّما كان السماءَ كلاهما هذا له رمح ، وهذا أعزل(١)

وقول أبي جعفر الغرناطى :

ناولته وردة فاحمـر من خجل وقال وجهىَ يغنينى عن الزَّهر
الخد:ورد،وعينى:نرجس،وعلى خدى عذار كريحان على نهَـر

وقول أبي الفضل الميكالى :

تعز عن الحرص تعـزز به ففى الطمـع الذل والمنقصه
ولا تُنزلنْ أبداً حاجـة بمن كابد البـؤس والمخمصه
ولو نال نجـمَ الدجى ثروة وأوطأ شمس الضحاأخمَـصه(٢)

وقول شوقى فى رثاء الأستاذ الإمام محمد عبده :

مفسر آى الله بالأمس بيننـا قم اليوم فسر للورى آية الموت
رُحمت! مصير العالمين كما ترى وكل هنـاء أو عزاء إلى فوت

(١) السماكان: نجمان نيران .
(٢) الأخمص بفتح الميم : مالا يصيب الأرض من باطن القدم .

هو الدهر ميلاد فشغــــل فمأتم
فذكركما أبقى الصدى ذاهبُ الصوت

ومن النوع الردىء قول المعرى :

بنتُ عن الدنيا ولابنتَ لى فيها،ولا عِرْسٌ،ولا أخت(١)
وقد تحمّلتُ من الوزْر ما تعجزأن تحمله البُخت(٢)
إن مدحونى ساءنى مدحهم وخلت أنى فى الثرى سُخْت

فهو قد فارق الدنيا ولا بنت ولا زوجة له؛ لأنه لم يتزوج ولم ينسل ، وكان ذلك باختيار منه،ولكن فقدانه الأخت لا يتصل بما تقدم،لأنه ليس من عمله هو فقدكان أبوه متزوجاً ، وكان يمكن أن تكون له أخت،ويصح أن يكون له إخوة وأخوات وماتوا مثلا ، وكلمة الأخت بالذات متكلفة فلم اختارها دون الأخ مثلا ، والغرض أنه يريد أنه مقطوع من شجرة ؟ !

والبخت جاءت لمناسبة الأخت،والتمثيل بالجبال مثلا أولى فى هذا المقام من البخت ، وهو المشهور المعروف .

وكلمة سخت : ثقيلة وسخيفة ، ولم تأت لغير القافية ، وهم يقولون : تمنيت أن الأرض انشقت وابتلعتنى ، ولا يقولون ظننت نفسى سخت .

وكراهته مدح الناس لاتستوجب أن يقول هذا ، وإنما يقول مثلا : خلت أنى أرمى بالحجارة والسهام وما إلى ذلك .

وقوله :

تُنازع فى الدنيا سواك ، وماله ولا لك شىء فى الحقيقة فيها
ولكنها مِلك لرب مُقدِّر يُعير جُنوب الأرض مُرْتد فيها(٣)

---

(١) العرس بكسر الراء : الزوجة .
(٢) البخت بالضم : الإبل الخراسانية .
(٣) الجنوب بالضم : جمع جنب : والمرتدف : الراكب خلف الراكب .

ولم تحظَ من ذاك النزاع بطائل ... من الأمر إلا أن تُعَدَّ سفيها
فيانفسُ لاتعظم عليك خطوبُها ... فتَّـفقوها مثـل مخلفيها

ومن المتكلف قول الوطواط :

غرَف الإمامُ الفرد عبدُ الواسع ... من كل علـم بالإناء الواسع
قرم رفيع القـدر ، راية مجـده ... مضروبة فوق الرقيع التاسع(١)
هو منهَل الآراء ، أبناءُ المنى ... يردونه من كل قطر شاسع
ماضر من يحميه حرْزُ ثنائه ... لسعاتُ أحداث الزمان اللاسع

اللزوم فى شعر القدماء :

يرى العلماء : أن اللزوم حلية قديمة ، وقعت فى أشعار المتقدمين على الندرة ، وأن ماجاء منها غير مقصود ، وكله من النوع الحسن المطبوع ، وأما المتأخرون فقد قصدوا عمله وأكثروا منه .

فمن ذلك قول امرىء القيس :

فمثلك حُبلى قد طرَقت ومُرضع ... فألهيتها عن ذى تمائمَ مُحوِل
إذا مابكى من خلفها انصرفت له

وقول طرفة :

ألم تر أن المال يَكسِب أهلَه ... فضوحا إذا لم يُعطَ منه نواسبُه
أرى كلَّ مال ـ لا مَحالةَ ـ ذاهبا ... وأفضلُه ماورَّث الحمدَ كاسبُه

وقول حجر بن حية من شعراء الحماسة :

ولا أدوِّم قدرى بعدما نضِجت ... بخلا ، فتمنع مافيها أثافيها(٢)
حتى تُقسَّم شتى بعدما وسعت ... ولا يؤنَّب تحت الليل عافيها(٣)

---

(١) القرم كسمح : السيد. والرقيع : كل طبقة من السموات .
(٢) التمائم : التعاويذ جمع تميمة . والمحول : ما أتى عليه حول ، والمراد : الطفل .
(٣) دوم القدر وأدامها : نضحها بالماء البارد ليسكن غليانها. والأثافى : ما يوضع عليها القدر من الحجارة وغيرها . والعافى : طالب القرى والمعروف .

وقول الحطيئة :

ألا من لقلب عارم النظرات ... يقطّع طول الليل بالزفرات[١]

إذا ما الثريا آخر الليل أعنقت ... كواكبها كالجزع منحدرات[٢]

وقول الفرزدق :

منع الحياةَ من الرجال ونفعَها ... حدَق ـ تقلّبها النساء ـ مراض

وكأنّ أفئدة الرجال إذا رأوا ... حدَق النساء لنبْلها أغراض

وقول آخر — وقد قال فيه ابن المعتز : وأظنه قديماً[٣] — :

عصانىَ ـ قومى ـ والرشادُ الذى به ... أمَرْت ـ ومن يعص المجرِّب يَنْدَم

فصبرا بنى بكر على الموت إننى ... أرى عارضا ينهلّ بالموت والدم[٤]

والذى أراه : أن اللزوم لا يصح أن يوصف : بأنه قديم أو حديث ، وإنما يصح أن يقال فيه: إنه كثر فى شعر شاعر، وقل فى شعر شاعر آخر، وأنه حسن فى شعر هذا ، وقبح فى شعر ذاك .

أما وصفه بالقدم فهو من اللغو ؛ لأنه لا بد أن يكون كذلك ؛ فهو سمة شعريةولدت مع الشعر، وسايرته فى جميع عصوره ، ولا يمكن أن يخلو منه شعر شاعر ، بل قلّ أن تخلو قصيدة ، بل مقطوعة من اللزوم ، مادمنا نقنع بوقوعه فى البيتين أو الثلاثة ، وأى شعر يخلو من مثل هذا القدر اليسير يجىء عن طريق المصادفة ؟ !

ودونك الشعراء من أقدم العصور إلى يومنا هذا ، فإنك لا تعدم فى القصيدة الواحدة منه أبياتاً وقع فيها اللزوم ، دون أن يفطن له الشاعر ، لأنه لم يرتكبه قصداً .

---

(١) العارم : الشديد .

(٢) أعنقت تتابعت . والجزع بفتح الجيم ويكسر : الحرز اليمانى الصينى ، فيه سواد وبياض تشبه به العيون .

(٣) البديع — ١٣٣ .

(٤) العارض : السحاب المعترض فى الأفق . وينهل : يسقط .

ولكنى أعود فأقول : إنى لا أعتبر هذا النوع القليل ، من اللزوم ، فليس من الصواب أن يمثل له بالبيتين المتواليين ، أو الأبيات المتفرقة المتناثرة فى تضاعيف القصيدة .

فاللزوم عمل فنى، يعد من أشق صناعة الكلام مذهباً ، وأبعدها مسلكا — كما يقول ابن الأثير(١) — وهو — من أجل هذا — يحتاج إلى نية سابقة، يظهر أثرها بتوخيه فى أبيات القصيدة كلها أو جلها على الولاء ، كما سنراه فى نتاج عشاقه من الشعراء والكتاب المحدثين ، الذين ولعوا به وسكنوا إليه.

الملتزمون :

من أشهر شعراء اللزوم فى العصر الإسلامى : « كثير عزة » ؛ فقد نظم قصيدته التائية المشهورة(٢) على هذا النمط ، وهى القصيدة التى أولها(٣) :

خليلىَّ هذا رَبْعُ عَزَّةَ فاعْقِلا قَلوصيْكما ثم ابكيا حيث حلت(٤)

والقصيدة تربى على عشرين بيتاً ، ولكنك لا ترى فيها أثراً للتكلف والتعقيد، وضعف النسج ، بل ترى أبياتها تترادف فى سماحة أخاذة، واطراد ساحر ، كأنما كان يغترفها من بحر .

وفيها يقول الأستاذ الدكتور طه حسين : لا تتردد فى أن الشاعر قد تعمد التزام اللام والتاء ، ولكنك فى الوقت نفسه لا تشعر بأن « كثيراً » قد لقى فى ذلك جهداً ، أو احتمل فيه عناء، وإنما يخيل إليك أنه دعا الألفاظ فاستجابت له ، وأهاب بها فأسرعت إليه .

وأوضح من ذلك وأظهر : أنك لا تحس فى بيت من أبيات هذه القصيدة: أن القافية هى التى نظمت البيت ودبرت أمره ، ووضعت بعض ألفاظه بإزاء بعض ، وأجرته على الأسلوب الذى جرى عليه ، وإنما تشعر : بأن البيت قد نظم ، فألفت ألفاظه ، واطرد أسلوبه ومضى حتى انتهى إلى قافيته

---

(١) المثل السائر — ١١٦ .

(٢) أمالى القالى — ٢ — ١٠٩ .

(٣) ويروى : خليلى هذا رسم عزة فاعقلا قلوصيكما ثم انظرا حيث حلت

(٤) القلوص : الناقة الشابة .

انتهاء هادئاً مطمئناً مريحاً : تشعر معه بأن البيت هو الذى دعا القافية ، لا بأن القافية هى التى دعت البيت[١] ...

ولا شك أن صدور هذه القصيدة من شاعر غزِل ، وعاشق متهالك ، ومحب مدّله موّله ، وصب مهجور محروم، أضفى عليها هذه التهاويل البيانية ، ورقرق فيها هذه الدمائة الندية ، وسبكها هذا السبك السلس الوديع ، وجعلنا نلمس فى ثناياها تباريح القلب الملتاع، والكبد الحرى ، ونكاد نغفل عن هذا اللـــزوم المتتابع المستوعب ؛ لأن الأداء النفسى الصادق النابع من قرارة الوجدان ، أذهلنا عن كل ما سواه !

ولعل هذه القصيدة اللزومية — من حيث طولها — أول أثر من هذا اللون فى الشعر العربى كله ؛ فإننا لا نجد لها نظيراً فيما سبقها من الشعر الجاهلى والإسلامى ، وان تجد لها نظيرا إلا فى لزوميات أبى العلاء الذى جعل من وَكْده هذا الضرب من الشعر .

وكان أبو العلاء المعرى يذهب إلى أن اللام قد التزمت فى جميعها ، فلما سأله تلاميذه عن البيت الذى يروى فيها ، وهو :

أصاب الردى من كان يهوى لك الردى
وجُنّ اللواتى قلن : عزةُ جُنّت

قال : إن هذا البيت ليس من القصيدة[٢] .

وأحسب أن تعصب المعرى ، هو الذى دعاه إلى نفى هذا البيت عنها .

وكأنه يعتذر عن نفسه بأن من الشعراء مَن سبقه إلى هذا العمل .

وهبه محقاً فى ذلك ، فماذا يقول فى هذا البيت ؟ ! :

فما أنصفت أمّا النساءُ فبغّضت إلىّ وأما بالنوال فضنّت

وقد أشار داود الإنطاكى إلى : أن من أول القصيدة إلى قوله « فما أنصفت ... » لزوم ما لا يلزم[٣] .

(١) مع أبى العلاء فى سجنه .
(٢) سر الفصاحة — ١٢٧ .
(٣) تزيين الأسواق — ٤١ .

وعلى هذا يكون البيت المتقدم فاصلا بين لزومين وقعا فى القصيدة .

وإذا صح أن هذين البيتين الخاليين من اللزوم قالهما « كثير » فإنى أرجح أنه لم يفطن إلى هذا اللزوم الذى شاع وذاع فى قصيدته، وإلا لما هان عليه أن يترك هذه الثلمة فى القصيدة، ولما شق عليه أن يأتى بلزومين آخرين، ليسد هذا النقص الذى يلفت النظر ، ولتجرى القصيدة كلها على نظام واحد .

كما أنى أعتقد أن المعرى قد اتخذ من « كثير » قدوة له وإماماً فى ارتكاب اللزوم الكامل ، وقد تقدم لنا أن هذه القصيدة كانت من مروياته ، وأنه فكر فيها وقدّر ، وشغلت ذهنه ، وملكت خاطره ، وحاول أن ينفى عنها ماليس من اللزوم ، لأنه شغف فيها باللزوم ! .

ويقول ياقوت[١]: وقد التزم « كثير » فى قصيدته اللام قبل التاء، وذلك لا يلزمه ، ولم يفعل كما فعل الشنفرى فى قصيدته التى على التاء ؛ لأنه لم يلزم فيها إلا حرفاً واحداً ، ولكنه خالف بين الحروف التى قبل الروى ، فقال:

أرى أم عمرو أزمعت فاستقلّت ... وما ودعت جيرانها يوم ولت

وقال فيها :

بريحانة من بطن حلية نوّرت ... لها أرج ماحولها غير مُسْنت[٢]

وقال فيها :

لها وَفضة فيها ثلاثون سَيْحفا ... إذا آنست أولى العُداة استقرت[٣]

وكان ابن الرومى — على قوة طبعه ، وقلة تكلفه ، وامتداد نفسه — مغرماً باللزوم .

يقول فيه الخفاجى : إنه يلتزم الحرف . وحركة ماقبل الروى ، وإن ذلك كثير فى شعره[٤] .

---

(١) معجم الأدباء — ٣ — ١٥١

(٢) المسنت : المجدب وحلية بالفتح : ثلاثة مواضع .

(٣) الوفضة: جعبة السهام. والسيحف :النصل العريض ، وقيل: الطويل، وفى المفضليات اقشعرت : أى انتفضت .

(٤) سر الفصاحة — ١٧٢

ويقول ابن رشيق : كان ابن الرومى خاصة من بين الشعراء ، يلتزم مالا يلزم فى القافية ، حتى إنه لايعاقب بين الواو والياء فى أكثر شعره ، قدرة على الشعر واتساعاً فيه .

فمن ذلك مطولته :

شاب رأسى ولات حينَ مشيب ... وعجيبٌ الزمان غــير عجيب

فقد التزم فيها الياء قبل الروى .

كما التزم الواو فى مقطوعته :

وجهك يا عمرو فيــه طول ... وفى وجوه الكلاب طــول

ويقول فى موضع آخر :

وكان ابن الرومى : يلتزم حركة ماقبل الروى فى المطلق والمقيد ، فى أكثر أشعاره اقتداراً(١).

ويقول النويرى : وكان ابن الرومى أولع الناس بذلك(٢) .

فمن ذلك قصيدته القافية فى « السوداء(٣) » ، ومنها :

أكسبها الحب أنها صُبِغت ... صبغة حَبِّ القلوب والحدَق(٤)

فأقبلت نحوَها الضمائر والأبصار ... يُعنقن أيَّما عَنَق(٥)

يفترّ ذاك السوادُ عن يَقَق ... فى ثغرها كاللآلئ النَّسق(٦)

كأنها ـ والمزاح يُضحكها ـ ... ليل تفرّى دجاه عن فَلَق(٧)

وقصيدته فى مدح صاعد بن مخلد :

أبينَ ضلوعى جمــرة تتوقّد ... على مامضى أم حسرة تتجدّد

وهى طويله التزم فيها فتح ماقبل الروى .

---

(١) العمدة ١ — ١٠٢

(٢) نهاية الأرب — ٧ — ١١٣ (٣) المصدر نفسه ـ ٢ ـ ٣٦ (٤) حب القلوب بالفتح : جمع حبة وهى سويداؤه أو مهجته أو ثمرته ؟ أوهنة سوداء فيه .

(٥) يعنقن : يسرعن والعنق : نوع من سير الإبل . (٦) اليقق محركة : شدة البياض.

(٧) تفرى : انشق . والفلق : الصباح .

وقصيدته فى ذكرى ولديه : « محمد » و « على » التى يقول فيها :

لم يسترحْ مَن له عين مُؤرّقةٌ وكيف يعرف طعمَ الراحة الأرِق

فقد التزم فيها كسر ماقبل الروى .

ويبدو حب ابن الرومى للالتزام فى قصيدته الطويلة التى مدح فيها أبا أحمد الموفق العباسى ، بعد قضائه على ثورة الزنج ، وأولها :

أبا أحمد أبليت أمةَ أحمد بلاء سيرضاه ابنُ عمك أحمد(١)

فإن الصولى يقول : افتتح ابن الرومى هذه القصيدة على مايلزمه من فتح ماقبل حرف الروى اقتداراً ، فحمله ذلك على أن قال :

مُتاح له مقداره فكأنما تقوّضَ شهلانٌ عليه وصندَد(٢)

وهذا لايصح ، إنما هو صندد بكسر الدال ، لأن « فعلَل » بفتح اللام لم يجىء إلا فى أربعة أحرف : درهم ، و هِجْرَع ، و هِبْلَع ، و قِلْعَم(٣) .

وقد التزم الدال فى قصيدته التائية التى مدح بها المهتدى بالله ، ومطلعها :

رأت وخط شيب من قريب فصدّت

ولم ينتظره بى نوّى قد أجدّت(٤)

وقد يقع الالتزام فى أول الأبيات ، كالتزام الدال فى قول أبى جعفر الألبيرى(٥) :

دفاع لمكروه ، أمان لخائف

سحاب لمستجد ، هلال لمستعدى

---

(١) أبليت أمة أحمد . . . أى بذلت لها غاية ماتستطيع .

(٢) زهر الآداب ـ ٣ ـ ١٩٦ .

(٣) شهلان بالفتح جبل بمكة . وصندد بكسر الصاد والدال : جبل بتهامة

(٤) الهجرع كدرهم وجعفر . من معانيه . الأحمق والطويل الممشوق . وهبلع كدرهم . من معانيه : الأكول العظيم اللقم ، الواسع الحنجور . وقلعم كدرهم : جبل .

(٥) نفح الطيب ٢ — ٤٢

دَرُوب على الحسنى ، عَفُوٌّ لمن جنى
مُثيب لمن أثنى ، مجيب لذى قصد
دع الغيث إن أعطى ، دع الليث إن سطا
دع الروض إذ أهدى، دع البدر إذ يَهدى

ولأبى ذؤيب فى وصف حمر الوحش والصائد ، مقطوعة من ثمانية أبيات التزم الفاء فى أولها(١) .

والأبيات فيها حوشية وغرابة كسائر الطرديات لهذا لم نثبتها ، ولكنه — كما يقول ابن رشيق — : اطّرد له هذا النسق بالفاء، ولم ينحل عقده ، ولااختل بناؤه، ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته إياه ، لما تمكن له هذا التمكن.

ثم يقفّى على ذلك بكلمة جليلة فى الصنعة مطلقاً ، فيقول : واستطرفوا ماجاء من الصنعه نحو البيت والبيتين فى القصيدة بين القصائد . يستدل بذلك على جودة شعر الرجل، وصدق حسه ،وصفاء خاطره، فأماإذا أكثر من ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع ، وإيثار الكلفة ، وليس يتجه ألبتة أن يأتى من الشاعر قصيدة كلها أو أكثرها متصنع من غير قصد . . .

المعرى والالتزام .

يعد المعرى شيخ الالتزام بلامراء ، وديوانه « اللزوميات » جاء كله على هذه الطريقة ، وكذلك سلك هذا النهج فى أكثر منثوره .

فلم يكن فنه كله تأملا مستوحياً ، واستشفافاً نافذاً ، وتقبلا للإيحا وانفعالا بتأثير ، واستجابة لنداء الحسن ، وروعة السحر ، والتماساً لسر الوجود وما فيه ، بل لاتلبث أن تغلبه قوة تلك الدوافع القاهرة المخذلة من بيئته ، فتراه ولعاً بالظواهر من زخارف الحسن السطحى الشكلى(٢) .

---

(١) العمدة — ١ — ٨٤

(٢) الغفران لأبى العلاء ٤٢ نقلا عن التفسير الأدبى لتاريخ مصر للأستاذ أمين الخولى

ولعله من العجب العاجب: أن المعرى — وهو معروف بعمق الفكر، وبعد النظر، وقوة النفس، واستقلال الشخصية، وعشقه للحرية فى مظاهرها المختلفة، وتساميه على نوائب الزمن بكبريائه ومصابرته، وتحديه لمعاصريه بمعتقداته وآرائه — ينساق فى هذا الطريق الوعر الشائك، ولا يكتفى بذلك بل يزيد فى الطنبور نغمات: بما يضيف إليه من الغرابة والتعمق، والرموز والألغاز فى كتابه «الفصول والغايات(١)» حتى ليحتاج قراؤه إلى من يترجمه لهم من العربية إلى العربية، بل اضطر المعرى نفسه أن يترجمه للقراء، فأنشأ — كما يقول ياقوت — كتاب الشاذن(٢) فى ذكر غريب هذا الكتاب، وما فيه من اللغز؛ مقداره: عشرون كراسة، وكتاب «إقليد الغايات» لطيف مقصور على تفسير اللغز، مقداره: عشر كراريس(٣).

وهذا اعتراف منه بأنه ألفه لنفسه أولا، لا للناس !!

وقد فعل ذلك فى شعره اللزومى؛ فقد ألف كتاباً سماه: راحة اللزوم؛ يشرح فيه ما فى لزوم ما لا يلزم من الغريب نحو مائة كراسة(٤)، وكتاب الراحلة؛ ثلاثة أجزاء فى تفسيره أيضاً(٥) وكتاب سماه: زجر النابح يتعلق كذلك بلزوم ما لا يلزم، وذلك أن بعض ذوى الجهالة، تكلم على أبيات من لزوم ما لا يلزم؛ يريد بها التشرر والأذية، فألزم أبا العلاء أصدقاؤه؛ أن ينشىء هذا الكتاب وهو كاره(٦).

---

(١) ألفه المعرى فى سبعة أجزاء تمجيداً لله — تعالى — ولكن خصومه الواقفين له بالمرصاد اتهموه ظلماً وزوراً: بأنه عارض به القرآن، ونسبوا إليه فى ذلك قولا مدسوساً؟ والكتاب فى ذاته رفيع القيمة، جليل الشأن، وهو عنوان عبقرية المعرى، ومقدرته الضخمة الهائلة؟ وقد قيل: إنه بدأ به قبل رحلته إلى بغداد، ثم أتمه بعد عودته إلى معرة النعمان.

(٢) فى كشف الظنون ١ السادر، وعند الذهبى: السادن.

(٣) معجم الأدباء — ٣ — ١٤٧

(٤) معجم الأدباء — ٣ — ١٥٩

(٥) المصدر نفسه ٣ — ١٦١

(٦) المصدر نفسه — ٣ — ١٥٣

وقد رأينا الأستاذ الدكتور طه حسين يشرح بعض مختارات من أشعاره في كتاب « اقرأ » (١) وأحسب أنه لو كان يترجم شعراً عن الفرنسية ، ما لقي فيه هذا الجهد والعناء .

وأظن أنه لا يوجد في عصرنا الحاضر أديب — مهما بلغ محصوله اللغوي — يستطيع أن يستغني عن عدة معجمات مطولة ، يستظهر بها في فهم هذه العقد ، وليس ذلك بغريب على من كان يحفظ للكلب سبعين اسماً !

ولا خلاف في أن المعري من نوادر الزمن ، وفلتات الدهر ، ومن مفاخر العربية الكبرى ، ومن قادة الإنسانية وفلاسفتها .

وهو نسيج وحده في الذكاء والفهم وقوة الحافظة ، وأعجوبة من العجائب في اللغة ، وحفظ شواهدها ، وتقييد أوابدها(٢) .

ولكننا لا نقره على الإيغال في الصنعة إلى هذا الحد المتجاوز الحد !

ولو أن هذه الشخصية العبقرية الفذة ، لم تجر في آثار هذا الركب المتعمل وصاحت في وجوههم صيحة مدوية : أن ارجعوا إلى الطريق المستقيم ، كما صاح ابن خلدون من بعده بثلاثة قرون ، لم يكن بعيداً أن يقيم ذلك من هذا المجرى الملتوي ، ويرده إلى الوجهة الصالحة (٣) .

وشعر المعري منه الجيد معنى ومبنى ، والجيد معنى والرديء مبنى ، وليته إذ شدد على نفسه في النثر ، رفق بها في النظم ، وتركها على سجيتها ، فسلم شعره الفلسفي الاجتماعي العميق مما التاث به من هذا التكلف الذي لم تكسب منه الصياغة فائدة ، وما كان ضره أن يقدم لنا هذه الأفكار العميقة الدقيقة في سلاف رقراق شهي ، بدلا من مزجها بالصاب والعلقم !!.

---

(١) صوت أبي العلاء

(٢) أبو العلاء لأحمد تيمور باشا — ٢٢ .

(٣) فن الاسجاع — ١ — ١٢٩ .

بل ما كان أحرى هذه الأفكار الحرة الملهمة ، التى أنزلت صاحبها منازل الخالدين ، وجعلته فى نظر الغربيين شاعراً ، يضاهى أعظم شعرائهم الاجتماعيين ، ما كان أحرى هذه الأفكار أن تكون بنجوة من هذا الغلاف السميك ، الذى حجب سناها عن الأفهام ؟ !

فهل أراد الشيخ أن يسجنها كما سجن نفسه ؟

يظهر أنه كان مضطراً لذلك تحت تأثير العوامل المختلفة التى أحاطت به وحببت إليه هذه العزلة القاسية ، فكان أن وجد فى هذه اللزوميات السجينة ترفيهاً وترويحاً من الضجر والضيق ، والكبت والحرمان ، والتبرم بالناس والزمان ، وسجين يتأسى بسجين !! .

فاللزوميات - كما يقول الأستاذ الدكتور طه حسين (١) — ليست بنتيجة الجد والكد ، وإنما هى نتيجة العبث واللعب ، وإن شئت فقل : إنما هى نتيجة عمل دعا إليه الفراغ ، ونتيجة جد جر إليه اللعب ... ولم أخدع نفسى حين اعتقدت : أنى شهدته يعبث بالألفاظ والمعانى ألواناً من العبث ، لأنه لم يكن يستطيع أن يصنع غير هذا : ألواناً من العبث كثيرة الاختلاف نثر مرسل ، ونثر مسجوع ؛ وشعر حر ، وشعر مقيد ، والشعر الحر هو الذى يقوله الناس جميعاً ، فيلتزمون أوزانه وقوافيه المعروفة ، والشعر المقيد هو الذى يقوله أبو العلاء ، فيلتزم فيه مالا يلتزم .

وهو لا يلتزم مالا يلتزم فى القافية وحدها ، وإنما يلتزم مالا يلتزم فى المعانى أيضاً .

وهو لا يلتزمها فى المعانى التى أودعها « ديوان اللزوميات » وإنما يلتزمها فى المعانى التى أودعها كتاب « الفصول والغايات » أيضاً .

ويقول : لقد حكم — أبو العلاء — قانونه الفلسفى الصارم فى نثره ، كما حكمه فى شعره وحياته ، فالتزم فى الكتابة مالا يلزم من إيثار الغريب ، وتصريف

---

(١) انظر كتاب مع أبى العلاء فى سجنه ففيه دراسات عميقة مشبعة مستوعبة لهذه الشخصية العجيبة فى جميع نواحيها .

اصطلاحات العلم فى التعبير عن العواطف ، والدلالة على الميول ، فهو يؤدى كثيراً من الأغراض بتلك الضروب العروضية ، التى ما أراد « الخليل » بها إلا أن تدل على مجرد الأوزان والتفاعيل(١) .

ومعانيه لا تحصى كثرة ، وهى نتاج عقل نافذ ، وفكر ثاقب ، ونظر شامل محيط ، ولكنه إذا نصرف إلى صنعته اللفظية ، وعبثه بالجمل والكلمات شغله ذلك عن العناية بصحة المعنى ، والاكتراث بسلامة الفكرة ، فصدرت عنه مبالغات لا يُسيغها الذوق ، ولا يقبلها المنطق (٢)

ومن الكتاب المكثرين من اللزوم : محمد بن يوسف التميمى السرقسطى فقد صنف خمسين مقامة بناها على لزوم مالا يلزم (٣) .

كما كان أبو النجيب المراغى يتكلف فى شعره اللزوم ، فقال فيه الأبيوردى :

شعر المراغى وحُوشيتم كعقله . أسلُه أسقمه
يلزم ما ليس له لازما لكنه يترك ما يلزمه (٤)

ومما لا خلاف فيه : أن ما يأتى من اللزوم عفو البديهة ، يعلى من قدر الكلام ، ويزيد فواصله تناسباً ، وقوافيه تنغيما ، ويضفى عليه بشاشة من الموسيقية العذبة المنسجمة العميقة الدسمه .

فهذه القيود التى أضافها الشاعر إلى قيدى « البحر والقافية » تكثر العناصر المكونة لموسيقى اللفظ ، ويكون لذلك صدى فى النفس مركب أيضاً ، متعدد العناصر ... ومثل هذا الشعر يحمل العقل على أن يؤلف نموذجاً محدوداً من النغم ، ويكون له فى النفس صدى موسيقى محدود أيضاً

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء — ٢٣٢
(٢) الغفران لأبى العلاء — ٥٧
(٣) معاهد التنصيص — ٢ — ١٠٦
(٤) وفيات الأعيان — ٢ — ١٧

كأنما صب فى قالب ذى أبعاد محدودة معينة ، إذا تغير بُعْد منه ، أحست به النفس ، وأخل بموسيقاها[1] .

وعند جوتييه [2] : أن جوهر هذا الفن هو القافية الغنية «لزوم مالا يلزم» حتى لقد كان من عادته أن يقول للشعراء الشباب الذين يستنصحونه : ابدءوا أولا بتكوين قاموس من القوافى .

وقد دافع عنها « دى بانفيل » دفاع مؤمن، وكان يرى أن الشاعر لا يملك أفكاراً فى عقله ، بل أصواتاً وقوافى وجناسات ، وهذه الجناسات تلازمه وتلح عليه ، وتهىء له معانى ، أو ما يشبه المعانى[3] .

ورأيى فى اللزوم : أنه من الأنواع القليلة التى لا تعاب بكثرتها فى الشعر ، لأن الكثرة هنا لا تنبو عنها الأذن ولا يضيق بها الصدر ، إذ ليست إلا الانسجام السارى فى مقاطع الكلام : من قواف وفواصل ، وهو مطلوب ومحبوب .

ولذلك لا نجد من يقول : إن هذا القصيدة مثلا كثر فيها الالتزام ؛ لأن هذه الكثرة لا تحس مادامت طبيعية غير متكلفة ، وإنما الذى يقال عادة : إن هذه القصيدة كانت أحلى جرساً ، وأبدع إيقاعاً ، لو أن الشاعر استطاع أن يوحد فيها الحركات ، أو الحروف التى سبقت الروى .

والذى أخذ على المعرى ليس هو اللزوم نفسه ؛ بل هذا الإسراف الفاحش الذى حداه أن يبنى عليه ديواناً ضخماً ، لا يسلم العقل أنه برىء من التكلف ، بجعله ديدنه الأول والأخير ، واستهلك فى سبيله معانيه وأفكاره وإلا فقد كان ابن الرومى — كما تقدم — يغرم باللزوم ، ولكن لم يكن له الشأن الأول عنده ، فلم يطغ على شعره ، ولم يهجن معانيه ، بل لا يكاد يحسه

---

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى — ٩٤

(٢) مسائل فى فلسفة الفن المعاصره — ١٥١

(٣) المصدر السابق — ١٣٤ — ١٥٤

إلا الدارس الفاحص الخبير ، ومن هنا عـــداه الملام الذى وجه إلى أبى العلاء .

فآفة هذه الحلية — إذن — هى اجتلابها وتكلفها، ومتى تجنب الشاعر ذلك، فليس من العدل أن يوصف بأنه التزم ما ليس بلازم ؛ لأنه أتى بما هو أدخل فى صناعة النظم ، وأمتّ به صلة ، وأدنى إليه نسباً ، بل الأولى أن يقال : إنه فعل ما هو لازم ؛ بتوفيره للقافية كل عناصر الجمال .

ولهذا كان على الشاعر أن يعرف أنه أدخل نفسه فى هذه المسالك الضيقة ، ورمى بها فى هذه المآزق المتلاحمة ، دون أن يطالبه أحد بذلك .

فمن حق الفن الذى تعبدّ له — وقد كان حُرًّا — أن ينهض بتكاليفه الباهظة، ويؤدى حقوقه كاملة غير منقوصة، ويراعى شرائطه حق رعايتها ، لا يخرم منها شرطاً واحداً ، حتى يبلغ نهاية الشوط الذى قدره لجريه من غير أن تنبهر أنفاسه ، أو تعتريه فترة ، أو يتخوّنه ملل ، أو تزل به قدم ، وإلا حوسب حساباً عسيراً على معاناة مالا يحسنه ، وتعاطى مالا تناله قدرته ، والتورط فيما يصعب عليه الخروج منه ، وخِطبة ما يعجزه الإنفاق عليه .

وفى ذلك يقول الخفاجى : وليس يغتفر للشاعر — إذا نظم على هذا الفن لأجل ما ألزم نفسه مالا يلزمه — شىء من عيوب القوافى ؛ لأنه إنما فعل ذلك طوعاً واختياراً من غير إلجاء ولا إكراه . ونحن نريد الكلام الحسن من أسهل الطرق ، وأقرب السبل ، وليس بنا حاجة إلى التكلف المطرح ، وإن ادعى علينا قائله مشقة نالته ، وتعبا مر به(١) .

وما من شك فى أن الحرص على اللزوم يسوق حتما إلى عيوب القافية — وإن كره الشاعر ذلك — فأولى به أن يدع المعنى يختار اللفظ الذى يريده ، وهو حرى — إذا فعل هذا — أن تستقر أبياته على قواف قويمة متينة فى موضعها ، غير قلقة ولا نابية ، بحيث يلمحها السامع من أول البيت فيرددها قبل الشاعر .

---

(١) سر الفصاحة — ١٧٢

ولكن الإسراف في العناية بالقافية — وأهم مظهر له هذا اللزوم — يفقد الشاعر عادة ربط المعاني بعضها ببعض ربطاً منطقياً ، ومعنى هذا أنه يفقده عادةَ التفكير ، والتفكير — كما قال — كنت — : توحيد وربط .

وإذا غرق الشاعر في العناية بالقافية وحدها ، فسرعان ما يصبح عاجزاً عن متابعة معنى من المعاني إلى النهاية ، فإذا شعره يقفز من معنى إلى معنى بضربات مضرب القافية ، ويفقد جناحيه الإلهيين اللذين كانا ينبغي لهما أن يمضيا به قدما في رحب السموات — على حد تعبير هوجو — ويصبح طيرانه متذبذباً كطيران الخفافيش .

إن عبادة القافية في ذاتها يُدخل في عقل الشاعر نفسه شيئاً بعد شيء نوعاً من الاضطراب ، والفوضى الدائمة ، تحطم القوانين المعتادة التي يخضع لهاتداعي المعاني : أي تحطم منطق الفكر ليحل محل ذلك — صدفة — تلاقي الأصوات، ومن عقل من هذه حاله تخرج المعاني تترى خروج الرصاصات من مسدسات جنود أغرار ، لم يعرفوا بعد كيف يسددون نحو الهدف ، ويفقد الفكر زمام نفسه وراء هذه الضجة المتقطعة ، التي تحدثها اللفظة الرنانة حين تنفجر في نهاية البيت!! تلك هي « الغنائية » — كما حققها «بوالو» مع فوضى حلت محل الإلهام .

هذا إلى أن عبادة القافية ، تبطل عادة الكلام البسيط ، عادة استعمال العبارة المناسبة الدقيقة ، فالشاعر مضطر دائماً أن ينفخ المعنى فيطيله ، ويمدده من بيت إلى بيت، حتى يلتقي بسلسلة القوافي الغنية التي ينشدها ، والتعويض عن الكلمة الواحدة بجملة برمتها .

ثم إن ذلك يؤدي إلى فقدان الصدق فالفنان الذي يسرف في العناية بالألفاظ ، يفقد القدرة على التقاط العاطفة غضة حارة قبل أن تفتر ! إنه لا يحترم الفكر لذاته ، وهـذا الاحترام أول ميزة يجب أن ينعم بها الكاتب .

إن موقف الشاعر — وهو يقفِّي آلامه وأفراحه — موقف مستغرب

فى حد ذاته ، فكيف إذا أضفت إليه حيرة الشاعر ، وهو يطلب إلى القافية حرفاً أكثر مما ينبغى فى السابق .

وثمت خطر آخر — وليس هو أهون الاخطار — هو أن يُقفر الشاعر عقله ويستنفده ، ويفرغه بطريقة آلية صرفة ، فإن الألفاظ التى تصلح للقافية الغنية قليلة ، ومتى انحصر الشاعر فى عدد ضئيل من الألفاظ . انحصر فى عدد ضئيل من المعانى ، ومتى التزم الشاعر هذا الشكل الفقير جداً ، صعبت عليه الجدّة والأصالة[1] .

ألوان من اللزوم .

يلحق باللزوم ألوان من الكلام يصعب حصرها ، ويجمعها هذا التشدد الذى يرتكبه القائل ، ويعنت به نفسه ، تعشقاً للزينة ، وكلفاً بالتصنع وحباً فى التفاصح .

فمن ذلك :

١ — تصغير الكلمة الأخيرة من الشعر ، أو من فواصل المنثور ؛ فإن ذلك ملحق باللزوم — عند ابن الأثير[2] . — ويكون التصغير عوضاً عن تساوى الحروف التى قبل روى الأبيات الشعرية ، والحروف التى قبل الفاصلة من النثر .

وذلك كقول بعضهم :

عزّ على ليلى بذى سُدَيْر   سوءُ مبيتى ليلة الغُمَير
مُقَبِّضاً نفسىَ فى طُمَيْرى   تنتهز الرِّعدة فى ظُهيرى[3]
حتى بدت لى جبهة القمير   لأربع خلوْنَ من شهير

---

(١) اقرأ مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ١٧٢ إلى ١٧٦ .

(٢) المثل السائر — ١١٠

(٣) طمير : تصغير طمر بكسر الطاء ، وهو الثوب الخلق . وتنتهز : تنهض وتتحرك .

ومثله قول أبى نواس لعنان جارية الناطفى .

أما ترقّ لصب يكفيه منك قُطَيْرهْ[1]

ولا شك أن فى التصغير خفة ورشاقة وحلاوة ، ولكن يجب ألا يكثر حتى لاتتسم القوافى بالتخنث .

ويذكرون فى ذلك : أن ابن قيس الرقيات أنشد عبد الملك قوله :

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعننى ، وقرعن مَرْوِتيهْ[2]

وجببْنَنى جبّ السَّنام ولم يتركن ريشا فى مناكبيه[3]

فقال له أحسنت لولا أنك خنّثت فى قوافيك .

وقد دافع الشاعر عن كلامه : فقال: ماعدوت كتاب الله « ماأَغنى عنّى ماليه . هلك عنى سُلْطانيه » .

ولكن الفرق جسيم بين أواخر هذه الفواصل فى النغم والروح ، وبين قوافى ابن الرقيات .

وهو قد أراد أن يحتذى القرآن ، إلا أنه لم يكن موفقاً فى ذلك [4].

ويذكر السيوطى : أن رجلا من أهل المدينة،أنشد أبا عمرو بن العلاء قول ابن الرقيات المتقدم ، فانتهره أبو عمرو ، وقال : مالنا ولهذا الشعر الرخو ، إن هذه الهاء لم تدخل فى شىء من الكلام إلا أرْختة ؟ !

فقال له المدنى :قاتلك الله ! ما أجهلك بكلام العرب!قال — تعالى — : « ماأغنى عنى ماليه.هلك عنى سلطانيه » . وقال : ياليتنى لم أوتَ كتابيه ، ولم أدر ماحسابيه » .

فأنكر أبو عمرو إنكاراً شديداً [5].

---

(١) القطاره بالضم : التافه اليسير الحقير ، تقول : أعطنى منك قطارة ، وقطيرة .
(٢) قرع : دق . والمروة : الحجارة البيض ، كناية عن استذلاله .
(٣) جبه : قطعه ؛ كناية عن استئصال عزه .
(٤) تاريخ النقد الأدبى عند العرب — ٣٧ .
(٥) المزهر — ٢ — ٢٣٣ .

وللوأواء الدمشق قصيدتان تعدان الغاية فى البرود والركاكة[1] .

مطلع الأولى :

طاف بشمسين من عُقارين فى ذهبيين جوهريين

ومطلع الثانية :

صولج لامين فى عذارين فى ذهبيين جوهريين

ولصفى الدين الحلى قصيدة سخيفة ، عددها أربعة وعشرون بيتاً[2]، أولها

نُقَيْط من مُسَيْك فى وُرَيد خُوَيلك ، أو وُسَيم فى خُدَيد

وذياك اللُّوَيمع فى الضُّحَيّا وُجَيهك أم قُمَير فى سُعَيد

يريد أخالك : نقط من المسك فى الورد ، أوهو وسم فى الخد ؟

وذاك اللامع فى الضحا وجهك ، أم قمر السعد ؟

ولا مزيد على برده وضعفه !!

ولابن منير الطرابلسى قصيدة طويلة من هذا النوع المخنث القوافى أولها[3]

من ركب البدر فى صدر الردينى ومَوّه السحر فى حد اليمانى[4]

أما وذائب مسك من ذوائبه على أعالى القضيب الخيزرانى

وما يُجن عقيقُ الشفاه من الريق الرحيق والثغر الجمانى

ومنها :

مَن منقذى أو مُجيرى من هوى رشأ

أفتى وأفتك من عمرو بن مَعْدى[5]

إباء فارس فى لين الشآم مع الظرف العراقى والنطق الحجازى

وما المدامة بالألباب أفتك من فصاحة البدو فى ألفاظ تركى

ويتصل بهذا النوع المتهافت قول الشاعر :

---

(١) ديوانه — ٢٢٠ — ٢٢٤

(٢) فوات الوفيات — ١ — ٣٥٨ .

(٣) نهاية الأرب — ٢ — ٢١٠ — وفيات الأعيان — ١ — ٨٧ .

(٤) الردينى : الرمح : يريد: أن وجهها بدر على قوام كالرمح .

(٥) أفتى : من الفتوة ، وعمرو هو : ابن معد يكرب الزبيدى . .

أيا تَملك يا تَمْلى صلينى وذرى عذلى
ذرينى وسلاحى ثم شُدّى الكفّ بالغزل
ومُنّى نظرة بعدى ومُنى نظرة قبلى
وثوبان جديدان وأرخى شُرُك النّعل(١)
وإمامت يا تَمْلى فكونى حرة مثلى

ومن الغريب : أن هذا الشعر مما اختاره الأصمعى بخفة رويه !

وكقول الآخر :

ولو أرسلت من حُبّك مبهوتا من الصين (٢)
لوافيتك قبل الصبح أو حين تُصلين

وكان الأصمعى يتمثل به كثيراً(٣) .

وهذا دليل على أن ذوق العلماء واللغويين والنحاة ومن إليهم ، غير ذوق الأدباء والشعراء والفنانين .

ويجب أن يقع التصغير موقعه ، كأن يراد به التعبير عن لطافة الشيء أو خفائه أو قلته ، أو مايجرى مجرى ذلك كقول الرضى :

يُولّع الطل بُرْدَيْنا وقد نَسمت رُوَيحة الفجر بين الضّال والسّلم(٤)

فحسن تصغير الريح هنا ، لإرادة النسيم المريض الضعيف .

وقول أبى العلاء صاعد الكاتب :

إذا لاح من برق العقيق وُمَيْضَةٌ تَدِقّ على لمح العيون الشوائم(٥)

صغرها لأنه أراد : أنها خفية تدق على من ينظرها .

---

(١) شرك النعل : ككتب : جمع شراك كسحاب : سير النعل .
(٢) المبهوت : الذى يرسل قبل أن يدرج من الطير .
(٣) الشعر والشعراء — ٢٢
(٤) التوليع : التبييض . والضال : السدر البرى . والسلم كسبب : شجر العضاه .
(٥) الشوائم : النواظر .

وقول الرضى :

زال وأبق عنـد ورّاثه   جذيم مال عـرقته الحقوق[1]

فصغر لما أراد القلة .

وقول ابن أبى ربيعة (٢) :

وغاب قمير كنت أرجو غيوبه   وروّح رعيانٌ ، ونوّم سمّـر (٣)

فإنه جعله هلالا غير كامل ، بدليل : أنه غاب فى أول الليـل وقت نوم السمّـر .

والقمر — إذا كان هلالا — غاب فى ذلك الوقت .

فهذا تصغير مختار فى موضعه ، فأما الأسماء التى لم ينطق بها إلا مصغرة كاللجين والثريا وأغيلمة وأصيبية ، وما أشبهها ، فليس للتصغير فيها حسن يذكر ؛ لأنه غير مقصود به ما قدمناه[4].

ومثلها أسماء الأناسى التى وردت مصغرة ، وأغرب مثال لها : عمر بن هـبيرة ، بن معـيـّـة ، بن سكـين ، بن حديج الفزارى (٥) فقد وردت هذه الأسماء الأربعة بالتصغير على التتابع ، وليس لها نظير .

ومما يذكر هنا : أن سعيد بن المسيب أنشد قول عمر السابق :

فقال : ماله قاتله الله ! لقد صغر ماعظم الله ؛ يقول الله — عزوجل — : «والقمـر قدّرناه منازل حتى عاد كالعـرجون القديم (٦) ».

وهذه نظرة فقيه ناسك إلى الشعر ، لا نظرة نقادة ذوّاقة .

٢ — الخيف بفتح الخاء والياء ، أو الخيفاء .

وهو أن يأتى الكاتب فى نثره ، أو الشاعر فى شعره ، بكلمة معجمة

---

(١) عرقته : أصل العرق بالإسكان : أكل اللحم من العظم ، والمراد : أكلت طيباته والجذيم : تصغير جزم بالكسر وهو الأصل .

(٢) من قصيدته المشهورة : أمن آل نعم أنت غاد فمبكر .

(٣) فى ديوانه : كنت أهوى غيوبه . ونوم . نام ، والتضعيف للمبالغة .

(٤) سر الفصاحة — ٨٢ — ٨٣ وانظر المصباح مادة حدب .

(٥) رغبة الآمل — ٥ — ١٦٨

(٦) الأغانى — ١ — ٨٦

الحروف ، وأخرى مهملتها ؛ أخذاً من الخيف فى الفرس وغيره ، وهو : زرقة إحدى العينيين ، وسواد الأخرى .

وقد قال فيه العلوى : وهو فن من فنون البلاغة ، حسن التأليف والانتظام ، مشتمل على ما يجوز فيه من الكلم الإهمال والإعجام(١) .

مثاله من النثر قول الحريرى(٢) : الكرم — ثبّت الله جيش سعودك — يزين ، واللؤم — غض الدهر جفن حسودك — يشين ، والأروع يُثيب(٣) والمعور يُخيب(٤) ، والحُلاحِل يُضيف(٥) ، والماحل يخيف(٦) .

ومن الشعر قوله أيضاً (٧) .

اسمح فَبثّ السماح زين ... ولا تُخب آملاً تضيّف(٨)
ولا تُجز ردّ ذى سؤال ... فَمَن أم فى السؤال خفف

٣ — الرقطاء :

وهى : أن يرد فى النثر أو الشعر كلمات يكون أحد حروفها معجماً ، والآخر مهملا ، أخذا من الرقطة كنزهة ، وهى : سواد يشوبه نقط بيضاء وبالعكس .

وقد مدح هذا النوع العلوى بقوله : وليس وراء هذا شىء — خلا ما ذكرناه — من الإحكام فى البلاغة ، وعلو مراتب الفصاحة ، وسلاطة اللسان ، وجودة القريحة ، وصفاء الذهن ، إلى غير ذلك من المواد التى يجعلها الله فى بعض الأشخاص دون بعض(٩) .

---

(١) الطراز — ٣ — ١٧٧
(٢) المقامة المراغية — ٢٢٥
(٣) الأروع : الذى يعجبك .
(٤) المعور : الفارس بدا فيه موضع خلل للضرب .
(٥) الحلاحل بالضم : السيد الشجاع ، أو الضخم الكثير المروءة .
(٦) الماحل : المجدب ، والمتغير البدن ، والساعى بالشر .
(٧) المقامة الحلبية — ٢٥٨
(٨) تضيف : نزل عليك ضيفاً .
(٩) الطراز — ٣ — ١٧٨

مثاله من النثر قول الحريرى(١) :

أخلاقُ سيدنا تُحَبُّ ، وبِعَقوته يُلبّ(٢) وقُرْبه تُحف، ونأيه تلف، وخُلّته نسب(٣) ، وقطيعته نصب . . .

وكقول الوطواط : سيدنا ذو خُلق وخَلق ، وظَرف ونطق .

ومن الشعر قول الحريرى :

سيد ، قُلّب ، سبوق ، مُبرٌّ فطن ، مُغرب، عزُوف، عيوفُ(٤)
مُخلف ، مُتلف ، أغرٌّ ، فريدٌ نابهٌ ، فاضل ، زكىٌّ ، أنوف(٥)
مفلق إن أبان ، طبٌّ إذا نا ب هِيَاج ، وحلّ خطب مخوف

٤ — الموَصل :

وهو : أن يقول الشاعر بيتا من الشعر، لاتقبل كلماته التقطيع فى الكتابة والرسم كقول الحريرى(٦) :

فتنتنى ، فجننتنى تَجنىٌّ بتَجنّ يَفْتنُّ غِبَّ تجنىّ(٧)
شغفتنى بجفن ظبى غضيض غَنِجٍ يقتضى تفيّض جفنى(٨)

---

(١) المقامة السادسة والعشرون — ٢٧٤

(٢) العقوة كنفحة : المحلة ، وما حول الدار . ويلب : يقام .

(٣) الخلة بالضم : الصداقة .

(٤) القلب : البصير بتقلب الأمور والمبر : الزائد فى فضله . والمغرب . الذى يأتى بالبدائع . والعزوف : الزاهد فى الشىء والمنصرف عنه .

(٥) المخلف : الذى يعوض عن المفقود . والمتلف: الذى يتلف ماله فى الكرم . والأنوف: الذى لايقبل الضيم .

(٦) المقامة السادسة والأربعون الموسومة بالحلبية .

(٧) تجنى : اسم امرأه . والتجنى : ادعاء ذنب لم يفعل .

(٨) الغنج بكسر النون : ذو الدلال والغزل .

٥ — المقطّع .

وهو: أن يورد الشاعر بيتا من الشعر لا تتصل حروف كلماته فى الكتابة كقول الوطواط(١) :

وإنى يعظّمنى كلُّ حر ويلبسنى من أياديه بُرداً
وأدرك إن زرت دار وَدود دَرًّا ، ودُرًّا، ووِرداً ، ووَرداً(٢)

وقول بعضهم :

زار داود دار أروَى ، وأروى ذات دلٍّ إذا رأت داودا

٦ — الحذف .

وهو فى اللغة : الرمى بالشىء ؛ يقال: حذف رأسه بالسيف من باب ضرب: ضربه ، فقطع منه قطعة .

وفى الحديث: «أتى إليه ببيضة من ذهب، فحذفه بها، فلو أصابته لعقرته».
وحذف الأرنب بالعصا : رماها بها .

وفى حديث عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — : إياى وأن يحذف أحدكم الأرنب .

نهى المحرم عن ذلك .

ويقال : الحذف بالعصا ، والخذف بالحصى .

ومن المجاز : حذفه بجائزة : وصله بها .

وفى مصطلح البلاغة : أن يطرح الشاعر أو الناثر حرفاً أو أكثر من حروف المعجم من نثره أو نظمه .

وذلك كحذف جميع الحروف المعجمة ؛ مثل قول الحريرى من خطبة(٣)، أولها : الحمد لله الممدوح الأسماء ، المحمود الآلاء ، الواسع العطاء . . .

---

(١) حدائق السحر — ١٨٥
(٢) الدر الأول بفتح الراء : اللبن .
(٣) المقامة السمرقندية .

ومن خطبة أخرى ، أولها : الحمدلله الملك المحمود ، المالك الودود ، مصدر كل مولود ، ومآل كل مطرود . . .

ومن المنظوم قول الحظيرى الورّاق :

صدودُ سعادٍ أحدر الدمع مرسلا وأسأر حَسراً لم أحاوله أولا[١]
محللة صــدا أراه محــرّمـا محــرمة وصــلا أراه محللا

وقول الحريرى :

أعْدد لحسادك حــد الســلاح وأورد الآمـــال وِرد السماح
وصـارم اللهو ووصل المهـــا وأعمل الكُـوم ، وسمر الرماح[٢]
واسع لإدراك محــل سمـا عمادهُ ، لا لادِّراع المِـراح

وقول بعضهم :

دار لمهــددَ دارس أعلامهـا طمس المعالمَ مُورها ورهامُها[٣]

وكحذف جميع الحروف المهملة فى قول الحريرى المتقدم :

فتنتــنى فجننتنى تجــنى . . .

وكحذف الراء والكاف من قصيدة للحسن بن طَباطبا العلوى ، تبلغ عدتها تسعة وثلاثين بيتا — مدح بها ابن أبى البغل — وكان ابن أبى البغل يلثغ بالراء والكاف ، فيضع مكان الراء غيناً ، ومكان الكاف همزة ؛ ولهذا أسقطهما من القصيدة ، وأولها :

ياسيــداً دانت له السادات وتتابعت فى فعــله الحسنات

ومنها فى وصف القصيدة :

---

(١) أسأر : أبقى .
(٢) الكوم بضم الكاف : النياق العظيمة السنام .
(٣) مهدد بوزن منهل : اسم امرأه . والمور بالضم : التراب تثيره الرياح : والرهام كجبال : الأمطار الضعيفة الدائمة ، جمع رهمة بالكسر .

خذها الغداة أبا الحسين قصيدةً   ضيمت بها الراءاتُ والكافات
فاسعد أبا عبد الإله بها إذا   شَقِيت ُبلثغة منشدٍ أبيات
نقصت فتمّت فى السّماع وألغيتْ   منها التى هى بينها آفات

إلى أن يقول :

ميزانها عند الخليل مُعدّل   متفاعلن . متفاعلن . فعِلات
لو واصلُ بن عطاءٍ البانى لها   تُليتْ تُوهّم أنها آيات

وكان ابن طباطبا يقول : والله لأنا أقدر على أبىّ الكلام من واصل ابن عطاء .(١)

وكحذف الراء من كلام واصل بن عطاء ، وذلك : أنه كان يلثغ بالراء لثغة فاحشة ، فلم يزل يروض نفسه على تركها ، ويكابد ذلك ويغالبه ، حتى استوى له ، وصار فيه طبعاً وملكة ، وهذا من الأعاجيب ! .

وفيه يقول الجاحظ(٢) . ولولا استفاضة هذا الخبر ، وظهور هذه الحال ، حتى صار لغرابته مثلا ، ولظرافته مَعْلما ، لما استجزنا الإقرار به ، والتأكيد له ، ولست أعنى خطبه المحفوظة ، ورسائله المخلدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت محاجّة الخصوم ، ومناقلة الأكفاء ، ومفاوضة الإخوان .

و « لواصل » خطبة مشهورة ضافية الذيول ، منزوعة الراء ، ارتجلها فى مجلس والى العراق : عبدالله بن عمر بن عبد العزيز ، بعد أن سبقه بالخطابة شبيب بن شيبة ، وخالد بن صفوان ، والفضل بن عيسى .

أولها : الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقى بلا نهاية ، الذى علا فى دنوه ودنا فى علوه . . .

وختمها بقوله : نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، والوحى المبين

---

(١) معجم الأدباء ـ ١٧ ـ ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(٢) البيان والتبيين ـ ١ — ١٥

وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم ، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم(١) .

وقال قُطْرُب: أنشدنى ضرار بن عمرو قول الشاعر فى واصل بن عطاء :

ويجعل البُرّ قمحاً فى تصرفه وجانب الراء حتى احتال للشَّعَر (٢)

ولم يُطلق مطراً والقول يُعجله فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر

وقد ذم واصلٌ بشار بن برد، فقال : أما لهذا الملحد المشنّف(٣) المكنّى بأبى مُعاذ من يقتله ؟

أما والله لولا أن الغيلة(٤) سجية من سجايا الغالية ، لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ، ويقتله فى جوف منزله ، وفى يوم حفله ، ثم كان لا يتولى ذلك منه إلا عُقَيْلى أو سَدوسىّ .

وقد علق على ذلك أبو حفص الشّمّرىّ قائلا : ألا تريان كيف تجنب الراء فى كلامه هذا ، وأنتما للذى تريان من سلامته ، وقلة ظهور التكلف فيه لا تظنان به التكلف ، مع امتناعه من حرف كثير الدوران فى الكلام(٥).

ألا تريان أنه حين لم يستطع أن يقول : بشار، وابن برد ، والمرعث، جعل المشنف بدلا من المرعّث ، والملحد بدلا من الكافر ، وقال : لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية، ولم يذكر المنصورية ولا المغيرية (٦) لمكان الراء،

---

(١) جمهرة خطب العرب ـ ٢ ـ ٤٨٢ نقلا عن مفتاح الأفكار ـ ٢٧٠

(٢) احتال للشعر . أى نطق بما هو خال من الراء كالسبد بالتحريك ، والدلة والخصلة وغيرها : انظر المخصص لابن سيده . ورواية الكامل للمبرد ـ ٧ ـ ١١٦ : وخالف الراء .

(٣) المشنف : لابس الشنف ـ بفتح الشين ـ وهو القرط فى أعلى الأذن ، والمرعث الذى يلبس الرعثة بضم فسكون ، وتحرك ، وهى القرط .

(٤) الغيلة : الاغتيال والخديعة .

(٥) الراء والياء واللام والألف : أكثر الحروف دوراناً فى الكلام وفى المزهر ـ ١ ـ ١١٨ . أكثر الحروف استعمالا عند العرب الواو والياء والهمزة .

(٦) المنصورية والمغيرية : فرقتان من فرق الضلالة ، تنسب الأولى إلى أبى منصور العجلى ، والأخرى إلى المغيرة العجلى ، انظر الملل والنحل، والفرق بين الفرق ، ومفاتيح العلوم .

وقال : لبعثت إليه من يبعَج بطنه ، ولم يقل : لأرسلت إليه ، وقال : على مضجعه ، ولم يقل : على فراشه .

وقد أراد جماعة أن يكرهوه على النطق بالراء ، فسألوه : كيف يمكنه أن يقول : اطرح رمحك ، واركب فرسك ! .

فأجاب فى الحال : ألق قناتك ، واعل جوادك .

فعجبوا من ذلك[١].

وفى رواية : قيل له : رجل ركب فرسه ، وجر رمحه .

فأجاب : غلام اعتلى جواده ، وسحب ذابله .

وقد سارت لثغة واصل مسير الأمثال ، وضمنها الشعراء فنون شعرهم .

فمن ذلك قول أبى محمد الخازن فى مدح الصاحب بن عباد :

نعم تجنب « لا » يوم العطاء ، كما تجنب ابن عطاء لثغة الراء[٢]

وقال آخر فى محبوب يلثغ بالراء :

أعد لثغة لو أن واصلَ حاضرٌ ليسمعها ماأسقط الراء «واصل»

وقال آخر :

أجعلت وصلى الراء لم تنطق به وقطعتنى حتى كأنَّى « واصل »

وأنشد الزمخشرى فى هذا المعنى :

ولا تجعلنِّى مثل همزة واصل فيسقطنى حذف ، ولا راء واصل

وقد خطب أحمد بن الحسن الزيات الأندلسى خطبة طويلة ، أسقط الألف من حروفها[٣] :

أولها : حمدت ربى ، جلّ من كريم محمود ، وشكرته ، عزّ من عظيم معبود ، ونزّهته عن جهل كل ملحد كفور ، وقدّسته عن قول كل مفسد غَرور[٤] .

---

(١) حدائق السحر — ١٦٦ :

(٢) سلافة العصر — ٤٩٥

(٣) الإحاطة فى أخبار غرناطة — ١ — ١٥٤ .

(٤) الغرور بالفتح : ما غرك ، والشيطان .

وقد عمل الصاحب قصيدة معراة من الألف، التي هي أكثر الحروف دخولا في المنظوم والمنثور، مدح بها آل البيت، عدتها سبعون بيتا[1] أولها:

قد ظل يجرح صدري من ليس يعدوه أمري

فتعجب الناس منها، وتداولتها الرواة، فاستمر على تلك المطية، وعمل قصائد، كل واحدة منها خالية من حرف من حروف الهجاء.

وبقيت عليه واحدة تكون معراة من الواو، فانبرى أبو الحسين الحسني الهمذاني، فعمل قصيدة فريدة ليس فيها واو، مدح الصاحب في أثنائها، أولها:

برق ذكرت به الحبائب لما بدا فالدمع ساكب

ويروى: أنه حكي بمجلس علي — كرم الله وجهه — كثرة دوران الألف في الكلام، وأنه لا يخلو كلام منها، فأنشأ في ذلك خطبة سماها: المونقة، ليس فيها ألف[2].

وإنما عد الحذف من البديع — كما يقول العلوي — لأن ما هذا حاله، إنما يصار إليه عند الاقتدار على البلاغة، والإغراق في الفصاحة، بحيث يمكنه الخوض في كل أسلوب من أساليبها، والجري في ميدان أعاجيبها.

٧ — المجاز.

وهو أن يتم البيت ولا تتم الكلمة التي منها القافية، حتى يكون تمامها في البيت الثاني.

وقد ذكره المبرد في كتابه الموضوع في القوافي، وعده من عيوب القافية، مثلما كتب به المعري إلى تلميذه ابن سنان الخفاجي:

---

(١) اليتيمة — ٣ — ٣٧٤.

(٢) الطرزا — ٣ — ١٧٥

شبيه بابن يعقـــوب ولكن لم يكن يو
سف يشرب الخمــر ، ولا يزنى ولا يو
سع بالأمواه القهوة (١) مزجا ، لم يكن دو
ن فى صبح وإمساء ، وهـــذا منكر يو
شك الرحمن أن يصليه فى نار خـــزى هو
لها أهل ، فلا يكشف عنه ربنا السو
ء ، فإن الأخضر الإبـَطـَـيْن ذا الفحشاء لايو(٢)
قد النار لأضياف ، ولو قيل له ذو
دنـانير وأمــوال ، فيا رحمن لا تو
سع الرزق عــلى هـــذا الذى منظره لؤ
لؤ والفعل ستُّوق ، فوزن الريش لا يو(٣)

وقطع الـكلام على يو (٤) .

وقال بعض أصحاب الشاعر مظفر الأعمى : رأيت فى بعض تأليف أبى العلاء المعرى : ماصورته : أصلحك الله وأبقاك ! لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم إلى منزلنا الخالى ، لـكى نحدث عهداً بك يازين الأخلاء ! فما مثلك من غيَّر عهداً أو غفل !!

فسأله : من أى الأبحر هذا ؟ وهل هو بيت واحد أو أكـثر ؟

فإن كان أكـثر فهل أبياته على روى واحد ، أم هى مختلفة الروى ؟

قال : فأفـكر فيه ، ثم أجابه بجواب حسن .

---

(١) القهوة : الخمر ، قيل : سميت بذلك ، لأنها تقهى بضم التاء : أى تذهب بشهوة الطعام .

(٢) أخضر الإبطين : يحتمل أن تكون ذما أى أسود الإبطين ، كناية عن قذارته وكثافة شعر إبطيه ، ويحتمل أن يكون وصفا له بالخصب والنعمة ؛ كقولهم : خضر المناكب : أى مخصبون وهو مع ذلك بخيل بدليل بقية الـكلام .

(٥) الستوق كعصفور وينبوع ، مع تشديد التاء : الزيف والبهرج ، الملبس بالفضة .

(٤) سر الفصاحة — ١٧٧

فلما قال لى ذلك ؛ قلت له : اصبر علىّ حتى أنظر فيه ، ولا تقل ماقاله .
ثم أفكرت فيه ، فوجدته يخرج من بحر الرجز ، وهو المجزوء منه .
وتشمل هذه الكلمات على أربعة أبيات على روى اللام .

وهى على صورة ، يسوغ استعمالها عند العروضيين .
ومن لا يكون له بهذا الفن معرفة ، فإنه ينكرها لأجل قطع الموصول منها .
ولابد من الإتيان بها لتظهر صورة ذلك ، وهى :

أصلحك الله وأبقاك ، لقد كان من الـ واجب أن تأتينا الـ يوم إلى منزلنا الـ خالى لكى نحدث عهداً بك يازين الأخلا ء. فما مثلك من غير عهداً أو غفل.

وهذا إنما يذكره أهل هذا الشأن للمعاياة، لأنه ليس من الأشعار المستعملة
فلما استخرجته عرضته على ذلك الشخص ، فقال : هكذا قال مظفر الأعمى[1] .

٨ — التضمين .

وهو : ألا تستعمل الكلمة التى هى القافية بالمعنى ، حتى تكون موصولة بما فى أول البيت الثانى ، مثل قول النابغة الذبيانى :

وهم وردوا الجِفار على تميم ... وهم أصحاب يوم عكاظ إنى[2]
شهدت لهم مواقف صادقات ... أتينهمُ بنصح الود منى

والتضمين : عيب شديد فى الشعر ، وخير الشعر : ماقام بنفسه ، وخير الأبيات عندهم : ما كفى بعضه دون بعض ، كقول النابغة نفسه :

ولست بمستبق أخا لا تلمُّه ... على شَعَث . أىُّ الرجال المهذب[3]

---

(١) وفيات الأعيان ـ ٢ ـ ١٢٩ ـ ثمرات الأوراق — ١٠٠ على هامش المستطرف.
(٢) الجفار ككتاب : ماء لبنى تميم .
(٣) اللم : الإصلاح والجمع . والشعث : التفرق ؛ اقول : لم الله شعثه ؛ أى أصلحه وجمع ما تفرق من أموره ، وبابه رد .

فيكفى أن تتمثل منه بقوله : أى الرجال المهذب ، أو بباقى البيت .

وعيب النابغة فى شعره الأول ، عيب مفرد ، وهو التضمين ، ولكنه لم يتكلفه كما تكلفه أبو العتاهيه فى شعره الآتى ، فجمع إلى التضمين تكلفه له(١) .

ياذا الذى فى الحب يلحَى أما	والله لو كُلِّفت منه كما(٢)
كُلِّفت من حُبِّ رخيم ، لما	لمتَ على الحب ، فذرنى وما(٣)
ألقَى ، فإنى لست أدرى بما	بُليت ، إلا أننى بينما
أنا بباب القصر فى بعض ما	أطوف فى قصرهمو إذ رمى
قلبى غزال بسهام ، فما	أخطا بها قلبى ، ولكنما
سهماه عينان له ، كلما	أراد قتلى بهما سَلَّما

ولكن من الإنصاف للعتاهى أن نقول : إنه مع قصده لهذا الصنيع لم تفارقه دماثة طبعه ، ورقة أسلوبه ، وسلاسة حاشيته ، ولم يتخل عنه هذا التدفق والانسجام والعذوبة التى هى كبرى مزاياه ، وأظهر خصائصه .

ويمكن أن نغفر له ذلك ، إذا جعلنا هذه المقطوعة من باب الأراجيز ، فإنها شبيهة بها .

ويجرى هذا المجرى : أن يكون آخر كل بيت من القصيدة أول الذى يليه .

وقد تكلفه قوم فجاءوا بالغث السخيف ، ولكنه جاء حسناً بارعاً فى تضاعيف مقطوعة لليلى الأخيلية — تمدح بها الحجاج — :

إذا هَبط الحجاج أرضاً مريضة	تتبع أقصى دائها فشفاها

(١) الموشح — ٢٦١ .
(٢) لحاه يلحاه : لامه .
(٣) الرخيم : الرقيق .

شفاها من الداء العضال الذى بها   غلام إذا هزّ القناة سقاها(١)
سقاها دماء المارقين (٢) وعلّها   إذا جمحت يوماً وخيف أذاها

وفى بعض الروايات(٣) .

سقاها فروّاها بشُرب سِجاله   دماءَ رجال حيث مال حشاها(٤)

فهذا التكرار زاد فى بهجة الكلام ، لأنه جاء فيض الخاطر ، فى أسلوب قوى متدفق ، وديباجة مونقة مطبوعة ، ولأنه يمكن أن يعتبر كل بيت مستقلا بمعناه ، غير محتاج لما يليه إلا من حيث بسط الكلام ، وتوضيح معناه .

٩ — عدوا من اللزوم : الإتيان فى الكلام بألفاظ لا تنطبق الشفتان فى حروفها ، كقول الحظيرى من أبيات (٥) :

هأنذا عارى الجسدْ   أسهرنى الذى رقدْ
آه لعين نظرت   إلى غزال ذى غيَد(٦)
أريتنى يا ناظرى   صيد الغزال للأسد
إن الضنى لهجره   ياعاذلى هدّ الجسد

أو الإتيان بكلمات فى كل منها همزة ، كقوله أيضاً :

بأبى أغيدٌ أذاب فؤادى   إذ تناءى ، وأظهر الإعراضا
رشأ يألف الجفاء فإن أقبل   أبدى لآمليه انقباضا(٧)

أو الإتيان بكلمات فى كل منها سين أو شين .

---

(١) القناة : الرمح .
(٢) المارقين : يريد الخوارج .
(٣) الأمالى — ١ — ٨٧ — زهر الآداب — ٣— ٢٦٥ .
(٤) السجال ككتاب : جمع سجل كشمس : الدلو العظيمة . ومال حشاها : كناية عن الطغيان والبطر . وفى بعض الروايات :

سقاها دماء المارقين وعلها   إذا جمحت يوما وخيف أذاها

(٥) معاهد التنصيص — ٢ — ١٠٧ .
(٦) الغيد محركة : النعومة . والغادة والغيداء : الناعمة . والأغيد : الوسنان المائل العنق .
(٧) الرشأ فى الأصل : الظبي إذ قوى ومشى مع أمه ، وجمعه : أرشاء كأرجاء .

وللحريري رسالتان مشهورتان فى ذلك .

الأولى السينية (١) ، وقد التزم فى كل كلمة منها السين نثراً ونظماً .

وقد كتبها على لسان بعض أصدقائه يعاتب صديقاً له أخل به فى دعوة دعا غيره إليها ، أولها : باسم القدوس استفتح ، وبإسعاده استنجح .

ومن شعرها :

و « سيف السلاطين، » مستأثر بأنس السَّماع وَحسْو الكئوس

وختمها بقوله :

وحسبنا السلام ، رسول السلام

والأخرى : الشينية (٣) .

وقد كتب بها إلى أبي طلحة بن النعمان الشاعر — لما قصده بالبصرة — يمدحه ويشكره ، ويتأسف على فراقه .

أولها : بإرشاد المرشد المنشىء أنشىء . شغفَنى بالشيخ : شمس الشعراء ، رِيش معاشه(٤) ، وفشا رِياشه(٥) ، وأشرق شهابه ، واعشوشبت(٦) شِعابه .

ومن شعرها :

فأشعاره مشهورة ومَشاعره وعِشرته مشكورة وعَشائره (٧)

وقد ألف المعرى « كتاب سيف الخطبة » : جزءان مقداره أربعون

---

(١) معجم الأدباء — ١٦ — ٢٧٦ .

(٢) اسم المكتوب له : سيف السلطان .

(٣) المصدر نفسه — ١٦ — ٢٧٨ .

(٤) ريش معاشه : يريد كثرت نعمته .

(٥) الرياش : جمع ريش : وهو : اللباس الفاخر ، والخصب والمعاش .

(٦) المعشوشب : المكان كثر العشب فيه . والشعاب : جميع شعبة بالضم : غصن الشجر والناحية .

(٧) المشاعر : الحواس : جمع مشعر كمنهل ، والعشائر : أهل الرجل وجماعته ، جمع عشيرة .

كراسة، يشتمل على خطب السنة، فيه خطب للجمع ،والعيدين ،والخسوف والكسوف ، والاستسقاء ، وعقد النكاح .

وهى مؤلفة على حرف من حروف المعجم ، وفيها خطب ، عمادها الهمزة ، وخطب بنيت على الباء ،وخطب على الدال، والراء،واللام ،والميم، والنون ، وتركت الجيم والحاء ومايجرى مجراهما ، لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون سجسجا[١] سهلا[٢].

وقد أشاد البديع بمقدرته الخارقة فى هذه الشعبذات[٣] البيانية — حين ناظر الخُوارَزْمى— فذكر من ذلك ألوانا عدة ، فكتاب يقرأ منه جوابه ، وكتاب يقرأ من أسفله ، وكتاب إذ قرىء من أوله إلى آخره كان كتاباً ، فإن عكست سطوره مخالفة كان جواباً ، وكتاب لا يوجد فيه حرف منفصل من راء تتقدم الكلمة ، أو دال تنفصل عن الكلمة، وكتاب خال من الألف واللام ، وكتاب خال من الحروف العواطل ، وكتاب أوائل سطوره كلها ميم، وآخرها جيم ، وكتاب إذا قرىء معرَّجاً وسرد معوَّجاً ، كان شعراً ، وكتاب إذا فسر على وجه كان مدحا ، وإذا فسر على وجه كان قدحا !

وقد رد عليه الخوارزمى : بأن هذه الأبواب شعبذة !

فأجابه البديع : وهذا القول : طَرْمذة[٤] !! فما الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها ، حتى أباحثك على مكنونها ، وأكاثرك بمخزونها ، وأشبر[٥] فيها قلبك ، وأسبر فيها لسانك وفمك .

فقال الخوارزمى : الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان ، المتعارفة بين الناس .

---

(١) السجسج : أى وسط ، تقول يوم سجسج ، وهواء سجسج : لاحر ولاقر.
(٢) معجم الأدباء — ٣ — ١٥٠.
(٣) الشعبذة والشعوذة : ما يفعله أهل السحر والمخرفة .
(٤) الطرمذة : فخر الرجل بالباطل ، والتمدح بما ليس فيه ، وعدم تحققه فى الأمور
(٥) أقيسه بالشبر .

فقال البديع : ألا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة ، وهذا النوع المتداول بكل قلم ، المتناول بكل يد وفم ! ؟ .

وتعبير البديع للخوارزمى : بأنه لا يعرف غير ماسماه الطريقة الساذجة فى الكتابة ، يدلنا على مدى التحول الذى طرأ على أساليب البيان ، ومبلغ ما أصاب الأذواق من السقم والانحراف ! !

وإن صح ماقاله البديع ، فقد شهد للخوارزمى — من حيث لا يشعر — : بأنه أسلم منه طبعاً ، وأصح ذوقا ، وأصدق أداء ، وأفصح بياناً .

ولعله من الطرائف : أن ابن حجة الحموى ، رغب إليه أحد طلبة العلم بحلب : أن يكتب له تقريظاً على رسالة مشتملة على حكم ومواعظ ، فكتب تقريظاً مهمل الحروف، ليس به حرف منقوط سوى التاء المربوطة !!

منها : والله ماسمعها عالم إلا وهام ، ولا ردع سحرها الحلال مسلماً إلا كره الحرام ، وعاد عاملا وأعد للصلاح حواصله ، وصار له مع الله معاملة . ما أحلى ماكرر عاطلها المحلّى ،وأهلا لسهولة مسلكها وسهلا ...

ومما يتصل باللزوم : نوع يقال اه : « المتزلزل » .

وهو أن يقع فى الكلام لفظ ، إذا غيرت حركة من حركات حروفه ، انتقل معناه إلى معنى آخر .

سمى بذلك لتحويله من صورة إلى أخرى .

ومنه قولهم : فلان متزلزل : إذا كان لا يستقر على حال واحدة .

وهو نادر الوقوع ، وقل أن يقع اتفاقاً .

وقد مثل له الوطواط بمثالين من صياغته يتصلان بالله — عزوجل — وبرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بحيث لو غير إعرابهما لكانا من الكفر الصراح !! فرأيت من الأدب أن أضرب عنهما صفحا .

(١) رسائل البديع ــ ٨٥ على هامش خزانة الأدب للحموى.
(٢) خزانة الأدب — ٤٤٠ .
(٣) حدائق السحر — ١٨٣ .

وقد كان للوطواط - مندوحة عن مثل هذا الكلام الموبق، البالغ منتهى الجرأة والتهجم - بما حباه الله من القدرة على التصرف والافتنان .

وإليك مثالا له ، تكلفته من نظمى للإيضاح :

أرى « أسماء » حجّبها أبوها   فسحقـــا ثم سحقا للمحجّب

فإذا كسرت الجيم كان الدعاء على أبيها — وهو المراد — .

وإذا فتحتها كان الدعاء عليها .

وجعل منه العلوى قوله - تعالى - : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

برفع اسم الجلالة ونصب العلماء .

وعد ذلك من الخطأ ، لأن الله لا يخشى أحداً ، لقدرته على كل الممكنات .

والخطأ : ما قاله العلوى ، فرفع اسم الجلالة قراءة معروفة ، كقوله - تعالى - : « فتلقى آدم من ربه كلمات » .

بنصب آدم ورفع كلمات : على أنها استقبلته : بأن بلغنه واتصلت به[1] ، وقد قالوا : إنها أبلغ فى المعنى .

والمراد فى الآية الأولى بخشية الله لعباده : لازم الخشية ، وهو التكريم وما شاكله .

وقد ورد ذلك كثيرا ، ومنه الأثر : « إن الله ليستحي أن يخرب البيوت العامرة » ، و« إن الله ليعجب من شاب لا صبوة له[2] » .

ولا شك أن أكثر هـــذه الأنواع الملحقة باللزوم — ونعد البديع والحريرى بطليها المجليين — أثر من آثار الفراغ والبطالة ، وعمل يشبه أعمال الحواة والسحرة ، ولا ننكر أنه نتاج مقـــدرة فائقة على التصرف فى الصياغة ، والتلعب بالألفاظ ، وأن فيه إيقاظاً للأذهان ، والقرائح ،

---

(١) الطراز ٣ — ١٦٠

(٢) الكشاف — ١ — ٥٢ .

(٣) تزيين الأسواق — ٦ .

كتأليف الألغاز والأحاجى والمعميات ، ولكنه — كما يقول ابن الأثير — لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة ، وإنما يأتى ومعانيه غثة باردة ؛ وسبب ذلك أنها تستكره استكراها ، وتوضع فى غير مواضعها ، وكذلك ألفاظه ، فإنها تجىء مكرهة أيضاً غير ملائمة لأخواتها ، وعلم البيان إنما هو الفصاحة والبلاغة فى الألفاظ والمعانى ، فإذا خرج عنه شىء من هذه الأوضاع المشار إليها ، لا يكون معدوداً منه ، ولا داخلا فى بابه ، ولو كان ذلك مما يوصف بحسن فى ألفاظه ومعانيه ، لورد فى كتاب الله — عز وجل — الذى هو معدن الفصاحة والبلاغة ، أو ورد فى كلام العرب الفصحاء ، ولم نره فى شىء من أشعارهم ولا خطبهم [١] .

اللزوم فى شعر العصريين :

يمتاز البارودى من بين شعراء العصر بالإكثار من اللزوم كثرة تسترعى النظر ، وإن كنا لا نستغرب ذلك منه ، فقد كان حفيا بأشعار الفحول من السابقين ، يصبّ على قوالبهم ، ويترسم خطاهم، ويتأثرهم فى الدقيق والجليل.

ثم هو —. إلى ذلك — كان ولوعاً بالتفاصح والتشادق ، والتفاخر بأنه رب قلم ، كما أنه رب سيف ، وقد حداه هذا أن ينتظم بالروى كل حروف المعجم تقريباً ، فجاءت له قصائد على قافية الهمزة والألف المقصورة ، كما جاءت له أخرى على قواف بغيضة ثقيلة ، وصفها النقاد : بأنها قواف غير شعرية ؛ ينظم منها الشاعر حينما يريد الحذلقة ، ويجنح إلى التنطع ؛ كقافية الثاء والذال ، والزاى ، والشين ، والطاء والظاء ، فزاد فى ذلك على أبى تمام والمتنبى وابن هانئ الذين سبقوه إلى شىء من هذا الإغراب، ولكنه أبى إلا أن يبذهم جميعاً فى هذا المضمار الكريه فكان له ما أراد !

والمتقدمون قلما ينتظمون بالروى كل حروف المعجم ، لأن ماروى من شعر امرئ القيس ، لا نعلم فيه شيئاً على الطاء ولا الظاء ، ولا الشين ولا الخاء ونحو ذلك من حروف المعجم .

---

(١) المثل السائر — ٣٠٨ .

وكذلك ديوان النابغة ، ليس فيه روى بنى على الصاد ولا الضاد ولا الطاء، ولا كثير من نظائرهن .

وأبو عبادة[١] له شعر جم ، ولا أعلم — فيما روى له — شيئاً على الخاء ولا الغين ولا الثاء ، إلا أن يكون شاذاً لم يثبت فى أكثر النسخ[٢] .

فالبارودى حينما يعتمد اللزوم ، إنما يرفده فى ذلك كثرة محفوظه من اللغة ، وإدلاله بالقدرة على النظم ، وشغفه بتقليد الأقدمين ، وهى بعينها نوازع قد ساقته إلى ركوب هذه القوافى الصعبة، التى يعد اللزوم نفسه دونها هجنة وسماجة !

وفى الجزء الأول وحده ، نظم تسع قصائد من اللزوم ، أقلها : خمسة أبيات (٣) : وهى قصيدة غزلية ، أولها :

زمزمى الكأس وهاتى واسقنيها يا مهاتى

وأكثرها : ستة وعشرون بيتاً ، وهى قصيدة زهدية (٤) ، أولها :

إلام يهفو بحلمك الطرب أبعد خمسين فى الصبا أرب

وبعض هذه القصائد تجمع بين اللزوم والجناس التام ، كالقصيدة التى عنوانها . الروح بعد مفارقة الجسم (٥) ، فقد جانس فيها بين مصراعى المطلع ، فقال:

بلغت مداك من أرب فسيحى فأنت اليوم فى جو فسيح

ثم أتى بعد ذلك بستة أبيات تنتهى خمسة منها « بالمسيح » ويتخللها بيت ينتهى « بالكسيح » .

---

(١) أبوعبادة : كنية البحترى .
(٢) مقدمة لزوم مالا يلزم للمعرى — ٢٤ .
(٣) ص ٥٠
(٤) ص ٤٦ .
(٥) ص ٦٥ .

ومثلها قصيدة وعطية جاءت على روى الدال، عددها ستة أبيات، تنتهى بكلمة «عادا (١)» وأولها:

وشامخ فى ذرا شماء باذخة لا يعرف الصدق إن والى وإن عادا

وبالرغم مما عرف عن البارودى من إحكام الصياغة، وشدة الأسر، ومتانة النسج، وسلامة الديباجة، فإن هذا اللزوم ساقه مرغماً إلى الوقوع فى بعض التكلف والغرابة والضعف والتهافت، وهو مما يبرأ منه سائر شعره المرصوف الحصيف، كقوله من قصيدة همزية، يصف فيها منزلا بجزيرة كريت(٢)، أولها:

وخميلة بكرت سماوة أيكها
تحمى الهجير عن النفوس وتدرأ(٣)

وفيها يقول:

تستن فيها الريح بين منابت	خضراء يغشاها الجبان فيجرأ (٤)
تستوقف الأبصار فى غدرانها	صور تزول مع النسيم وتطرأ
فالورق تهتف والربارب ترتعى	والعين تبغم والبلابل تصرأ (٥)
شجراء تسلكها السموم فتغتدى	رهواً ويسكنها الهجير فيمرأ(٦)
فتح الربيع بها مدارس نزهة	للعين فيها بهجة لا تضرأ (٧)

(١) ص ١١٨.
(٢) ص ١٦.
(٣) السماوة: أعلى الشىء والأيك: الشجر الملتف و الهجير: شدة الحر.
(٤) تستن: تجرى.
(٥) الورق بضم الواو: الحمام والربارب: قطعان الظباء، جمع ربرب كجعفر. والعين بالكسر: واسعات العيون، يريد بها بقر الوحش. والبغام بضم الباء: صوت الظباء، وقد استعمله لبيد فى بقر الوحش. انظر المخصص لابن سيده. وتصرأ: تصيح.
(٦) شجراء: كثيرة الشجر. والرهو: الساكن.
(٧) تضرأ: تخفى.

وهذه القوافى قلقة غير متمكنة، زيادة على غرابتها وخشونتها فى الأسماع!!

وقد ضيق هذا اللزوم من خطو البارودى، وقصر من عنانه، وكف من طماحه ، فوقف فى أكبر قصيدة لزومية له عند البيت السادس والعشرين ، وهو المجلى السباق ، الموسوم بطول النفس ؛ وامتداد الشوط ، وبعد الغاية.

وهناك شاعر معاصر هو الأستاذ أحمد مخيمر ؛ قد اصطنع اللزوم فى بعض شعره ، وضمنه ديواناً يشغل النظم منه ثلاث عشرة ومائة صفحة من القطع المتوسط جعل عنوانه « لزوميات مخيمر » وهو الجزء الأول منها .

والأستاذ مخيمر شاعر من أبناء دار العلوم المجيدين ، وله عدا اللزوميات شعر حر مطبوع .

ولا أعرف فى الشعراء المعاصرين من قصد إلى اللزوم عامداً متعمداً ، واعتزم أن يكون له ديوان من هذا اللون ، ينسب إليه فى فخر وزهو غير مخيمر ، فهو بحق يعد تلميذاً باراً مخلصاً للمعرى .

وقد حمله حبه لأستاذه ، أن يدافع عن آرائه وأفكاره وخلقه ، وعن منهجه اللزومى فى الشعر ، فيقول : إنه أراد — أى المعرى — أن يضاعف التأثير الموسيقى لشعره ، ومن المعلوم : أن القافية فى الشعر العربى عنصر من عناصر موسيقاه ، فالتزام حرف آخر بجانب الروى ، يجعل للشعر رنيناً خاصاً تستعذ به النفس ، ويشيع فيها طرباً روحياً ، يؤكد الإحساس ، ويوضح الصورة ، ويعمق التأثير .

ويقول ... ولكن الحقيقة التى لا تنكر : أن هذا الشعر الخالد ؛ ما كان بممكن أن يكون له هذا التأثير ، وذلك النفوذ الروحى ، لو أنه جلى لنا فى أسلوب غير هذا الأسلوب .

وهو يصرح باقتفائه أثر المعرى ، فيقول : وعلى الرغم من أنى لا أملك قدرة المعرى اللغوية ، ولا تؤثر فى نفسى ظروف كظروفه ، فقد رأيت أن

أعارضه فيما ذهب إليه بهذا الضرب من الكلام ،الذى اختاره هو لنفسه، وقيدها به ، وساقها إليه .

وقد دفعنى إلى ذلك : أنى أردت أن أسلك فى التعبير سبيله التى سلكها ، وأن أجعل لشعرى نفس التأثير الموسيقى الذى أراد أن يجعله لشعره، وأنى كنت أشعر شعوراً قويا بأن من العجز أن تلقى لزوميات المعرى هكذا ، تنتقل من جيل إلى جيل لا يتلفت إليها أحد بالمعارضة أو التأييد ، كأن القرائح عقمن بعد أبى العلاء(١).

فخيمر — كما نرى — لا يصوغ الشعر اللزومى عفواً ولا اعتباطاً، لكن ينظمه بنية سابقة،وإصرار مبيت ، وإخلاص غامر ، يحدوه إلى ذلك اعتقاده بأن اللزوم يرفع من درجة الشعر لفظاً ومعنى ، ويسبغ عليه بشاشة خاصة: تجعله ساحر الأداء ، عميق التأثير .

ثم هو لا يعارض المعرى حباً فى ترسم خطاه فحسب ، ولكن ليجدد هذه السنة الشعرية الجيدة التى أشاح عنها الشعراء ، وأغفلوها ! وهى حقيقة بأن تحيا وتخلد فى رأيه .

ولزوميات مخيمر قسمان :

القسم الأول « الحياة والوجود »وهو أنفس القسمين ، وقد أهداه إلى روح أبى العلاء ، مصدراً بأبيات من الشعر .

والقسم الآخر « السياسة والاجتماع » وقد أهداه إلى شهداء الاستعمار فى العالم العربى مصدراً بالشعر أيضاً .

ومعظم هذه اللزوميات قصير منها: البيتان والثلاثة والأربعة إلخ .

وأطولها قصيدة بعنوان « فى القمر » عدة أبياتها ثلاثة وثلاثون (٢) .

وهى فى جملتها خفيفة الظل ، عذبة الروح،خالية من الأفكار المزدحمة المعقدة ، والشطحات الهوجاء، والأخيلة الجامحة، ويقل فيها التكلف والغرابة.

---

(١) ص — ٧ . (٢) ص — ٦٤

وهى نتاج تأملات فلسفية واجتماعية، وصدى أحداث مختلفة، وانعكاسات أحلام وآلام وآمال، ويا حبذا لو أنها خلت من بعض قطع قليلة تتعلق بالشخصيات مدحاً وهجاء.

ومما راقنى منها — وهو كثير — قطعة عنوانها : لون زهرة :

لون وُرَيقاتك يا زهرتى ترنيمة من قلبك الناضر
يدعو بها النحل إلى لمسه ليثمر الآتى من الحاضر

وقطعة عنوانها : قذيفة الأطياف :

لا يلبث الدهر أن تترى عجائبه حتى تمد إلى المريخ أسيافا
قذيفة الذر مرت . سوف تتبعها قذيفة تجعل المحسوس أطيافا
إذا صعدنا إلى المريخ بعد غد
وهزّنا الشوق زرنا الأرض أضيافا

وقطعة عنوانها : الخالد :

إذا صح أنى لست فى الكون خالداً فمالىَ صبًّا بالحياة وبالخُلد
وإن امرأ يحيا ، ويعلم أنه سيفنى لذو قلب على علمه جَلْد
دعونىَ أستمتع بعيشىَ خالداً فما أنا — يا للناس — بالحجر الصلد

ولعل مخيمر فى أجزائه التالية يكون أسدّ رأياً ، وأعمق نظراً، وأرحب أفقاً، وأكثر افتنانا ، كما لعله يقصر لزومياته على الأغراض السامية والأفكار الخالدة وحدها ، فإنها هى التى تليق بهذه القوافى المترفة الدسمة من الشعر .

وإذا استثنينا البارودى ومخيمراً من شعراء العصر اللذين قصدا إلى اللزوم قصداً ، ساغ لنا أن نقول : إن اللزوم يقع فى شعر المعاصرين فلتات ومن غير إرادة ، لذلك لا نكاد نشعر به ، وهم غالباً لا يفطنون له، وذلك أمر طبيعى ما داموا لم يتعمدوه .

ولولا أن النقاد يعدون لزوماً : ما يقع من تماثل فى الحركة أو الحرف

أو هماماً قبل الروى فى البيتين المتواليين ، فضلا عما يزيد على ذلك ، لكان لنا أن نقول : إن الشعراء العصريين لا يأبهون للزوم ولا يعنون به ، وحتى الذين يحرصون على هذا التماثل تحصيلا للإيقاع والتنغيم ، والانسجام والتلاؤم لا يريدون به هذا الالتزام الاصطلاحى ، وإنما يريدون أن يوفروا للشعر عنصراً موسيقياً يزيد فى تأثيره وجماله ، يقودهم فى ذلك إحساسهم الفنى وحده ، دون الخضوع لنظرية بلاغية مدروسة ، وهو مع ذلك لا يتكرر ولا يتوالى ، ولا يخرج عن نطاق القلة التى لا تلفت النظر ، ومن ثم لا يجىء إلا حسنا رائعاً ، لأنه من عمل الطبع لا الصنعة .

وتفريعاً عما تقدم ، يمكن أن نسلم بوقوع اللزوم فى الشعر العصرى ، مادمنا نسلم مع الأقدمين بمجيئه فى البيتين ، كما يمكن أن نقول : إن الشعر المعاصر فى أكثره بنجوة منه ، إذا اعتبرنا أنه يقع فيه لمعاً غير مقصودة ، بل قد لا يتنبه إليها ناظم الشعر نفسه .

الفصل الثانى

التطريز

الطراز بكسر الطاء فى اللغة : علم الثوب ، وهو فارسى معرب . وجمعه : طرز بضمتين ؛ مثل كتاب وكتب .

والطراز أيضاً : الموضع الذى تنسج فيه الثياب الجيدة ؛ تقول : عمل هذا الثوب فى طراز فلان .

والتطريز : تفعيل من طرز الثوب ؛ فتطرز : أى أعلمه ؛ بأن جعل له طرازاً .

وطرز كفرح : حسن خلقه بعد إساءة [1] .
وطرز كفرح أيضاً فى الملبس : تأنق فلم يلبس إلا فاخراً .
ومن المجاز : قولهم : للوجه المليح : هو مما عُمل فى طراز الله !. وهذا الكلام الحسن من طراز فلان [2] .

ومن ابتكار الصاحب بن عباد ، تسميته العذار : طراز الله [3] !كما قيل للشيب : صبغة الله ! ؛ قال :

ولما تبدّى لى امتداد عذاره ... رأيت طراز الله فى ثوب حسنه

وما أحسن طرز فلان « بفتح الطاء » !

وَطَرْزه : طرز حسن ، وهو طريقته فى عمله ، ونيقته [4] .

وهو يتطرز فى اللباس ، ويتطرس فى المطعم : أى يتنوق ، فلا يلبس إلا فاخراً ، ولا يأكل إلا طيباً .

---

(١) القاموس ، والمصباح . (٢) الأساس . (٣) انظر ثمار القلوب للثعالبى
(٤) النيقة بكسر النون : اسم من تنيق وتنوق : تجود فى الملبس والمطعم وبالغ .

وهو من الطراز الأول : أى من النمط الأول ، قال حسان فى أولاد جفنة الغساسنة:

بيض الوجوه ، كريمة أحسابهم   شم الأنوف من الطراز الأول

فالتطريز ومشتقاته ـ كما نرى ـ يدل على الزينة ، والحسن ، والجودة ، والأناقة المفرطة .

والناظر إلى أمثلته فيما ـ يأتى ـ يتبين منه ذلك ، بل يتبين : أنه صنعة ناعمة مترفة مسرفة فى الترف ، تحتاج إلى عناء وتفكير . وجد وكد ،ولعل هذا ما دعا العسكرى أن يقول فيه : وهذا النوع قليل فى الشعر (١)

وهو فى اصطلاح البلغاء : أن يبدأ الناثر أو الشاعر كلامه بذكر جمل من الذوات غير مفصلة ، ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب تعداد جمل تلك الذوات ، تعداد تكرار واتحاد لاتعداد تغاير (٢) .

وعرفه العلوى بأنه : مقول على مايكون فى صدر الكلام والشعر ، مشتملا على ثلاثة أسماء مختلفة المعانى ، ثم يؤتى بالعجز فتكرر فيه الثلاثة بلفظ واحد (٣) .

وهو أشبه ما يكون بشرح للتعريف السابق .

ومن أمثلته قول أبى نواس — على لسان لابس ثوب أبيض — :

فثوبى مثل شعرى مثل نحرى   بياض فى بياض فى بياض

وقول ابن شعيب الأصبهانى (٤) :

وساق بت أشرب من يديه   مشعشعة بلون كالنجيع (٥)

لخمرتها ، وحمرة وجنتيه   ونور الكأس فى نور الشموع

ضياء حارت الأبصار فيه   بديع فى بديع فى بديع

---

(١) الصناعتين ـ ٤١٢

(٢) حسن التوسل ـ ٧٤ ـ خزانة الأدب الحموى ـ ٤٥٨ — نهاية الأرب ـ ٧ ـ ١٤٨

(٣) الطراز ـ ٣ ـ ٩١

(٤) معجم الأدباء ـ ١١ ـ ٢١٣ (٥) مشعشعة: ممزوجة . والنجيع : دم الجوف .

وقال الجوهرى صاحب الصحاح (١) :

وهأنا يونس فى بطن حوت بنيسابور فى ظل الغمام (٢)
فبيتى ، والفؤاد ، ويوم دجن ظلام فى ظلام فى ظلام (٣)

وقول اللحام الحرّانى فى بعض الحكام (٤) :

قلنسوة على رأس صليب مساحته جريب فى جريب (٥)
وإن يدى ، وهامته ، ونعلى قريب من قريب من قريب

ومما نسب إلى عضد الدولة البويهى (٦) :

طربت إلى الصبوح مع الصباح وشرب الراح ، والغرر الملاح
وكان الثلج كالكافور نثراً ونارى بين نارنجى وراحى
فشمومى ، ومشروبى ، ونارى وثلجى ، والصبوح مع الصباح
لهيب فى لهيب فى لهيب صباح فى صباح فى صباح

وقول ابن المعتز — على لسان المعشوق — :

فثوبى ، والمدام ، ولون خدى شقيق فى شقيق فى شقيق (٧)

ويقول ابن لنكك :

شموعك والكئوس مع الندامى نجوم فى نجوم فى نجوم

وقول بعضهم :

فثوبك مثل شعرك مثل بختى سواد فى سواد فى سواد

---

(١) معجم الأدباء — ٦ — ١٥٩ — ١٦٠
(٢) نيسابور بفتح النون : من بلاد وراء النهر .
(٣) الدجن كرأى : إلباس الغيم الأرض .
(٤) اليتيمة — ٤ — ١٠٤
(٥) الجريب بوزن طبيب : مقدار معلوم من الأرض والطعام .
(٦) المستطرف — ٢ — ١٨٩ وقد تشكك الثعالبى فى نسبتها إليه — اليتيمة — ٢ — ١٩٦ — ١٩٧
(٧) الشقيق : شقائق النعمان ؛ وهو زهر شديد الحمرة .

وقول عز الدولة:

وخالك فى عذارك فى الليالى سواد فى سواد فى سواد

وقول آخر:

أيا قمراً تبسم عن أقاح ويا غصناً يميل مع الرياح

جبينك ، والمقبّل ، والثنايا صباح فى صباح فى صباح[1]

وقول على باشا رفاعة الطهطاوى لأسود يحمل القهوة ليلا:

كأنك ، والذى بيديك ليلا سواد فى سواد فى سواد

ومن يتقصى التطريز ، يظهر له أنه أكثر ما يقع فى الوصف والغزل والشكوى على جهة المهالحة والمفاكهة.

ثم هو لا تكاد تجده فى شعر الجاهليين والإسلاميين ، ولا يقع فى شعر الفحول من المحدثين إلا فلتات ، عدا ابن الرومى ، فإنه أكثر منه ، وكان مجيداً فيه ، شأنه فى كل ما تعاطاه من فنون الشعر.

فمن بدائعه قوله يتغزل:

ويسقينى ويشرب من رحيق خليق أن يشبه بالخلوق[2]

كأن الكأس فى يده وفيه عقيق فى عقيق فى عقيق

وقوله — يهجو بنى خاقان —:

أموركم — بنى خاقان — عندى عُجاب فى عجاب فى عجاب

قرون فى رءوس فى وجوه صلاب فى صلاب فى صلاب[3]

فأنت تحس ماء الطبع يترقرق فى هذا الشعر ، ولا تعثر على كلمة غليظة أو نابية فيه ، فهو سمح سهل مطرد كالماء الدافق ، هذا إلى دقة الوصف ولطفه ، وتلاحم نسجه ، وجودة التلاؤم والمشاكلة بين طرفى التشبيه ، لحمرة الخمرة الصافية ، وحمرة اليد المخضبة ، وحمرة الشفاه النابضة بالشباب الحار ، أفضل ما يصوره لنا هذا العقيق المثلث!.

---

(١) المقبل كمعظم: الثغر.

(٢) الخلوق بالفتح والخلاق كسحاب: الطيب.

(٣) القرون: كناية عن الدياثة ، ويقال للديوث قرنان بالفتح ، وقد أكثر ابن الرومى فى هجائه بذلك.

وكذلك يروقك هذا التناسب البديع ، الذى وفق إليه الشاعر فى صلابة القرون، وصلابة الرءوس ، وصلابة الوجوه، فكل منها يوصف بالصلابة. والصلابة قد تحمد فى أشياء كثيرة ، ولكنها تبلغ نهاية الذم فى هذه الثلاث!! لهذا لم يكن عجيباً أن تثير فينا العجب العاجب ثلاث مرات : عجاب فى عجاب فى عجاب !.

ولا تتحقق مثل هذه البراعة إلا بالفكرة الثاقبة ، والنظرة العميقة الواسعة ، والملاحظة الدقيقة المستوعبة ، والاستقراء الشامل لخصائص الأشياء ومميزاتها ، وإدراك الفروق بينها ، وهى من سمات ابن الرومى .

وقد كان هذا اللون الطريف نافق السوق فى عهود التصنيع البديعى ، فابن إميلَـوَيْه بن أبى طاهر الجيلى يحدثنا (١) : أنه أنشد لعضد الدولة فى أبى الفتح بن العميد ومودته ، قوله (٢) :

ودادك لازم مكنون صدرى … وحبك جنتى ، والعشق زادى
فإن واصلتنى أزداد حبا … وإن صارمتنى يزدد سهادى
وخالك ، فى عِذارك ، فى الليالى … سواد فى سواد فى سواد (٣)

فأجابه أبو الفَتح :

دعانى فى انبلاج الليل « صبح » … فنادى : قم لحىّ على الفلاح
فقلت له : ترفق يامنادى … أليس الليل مسودّ النواحى
فثغرى، والمدام ؛ وحسن وجهى … صباح فى صباح فى صباح (٤)

ويقول ابن سكرة الهاشمى (٥) خرجت إلى الأهواز قاصداً الوزير أبا محمد المهلبى ، مادحاً له :

فلما وصلت إليه أنشدته :

قفى حيث انتهيتِ من الصدود … ولا تتعمدى قتل العميد (٦)

---

(١) معجم الأدباء — ١٤ — ٢٣٩ — ٢٤٠

(٢) عزا الثعالبى البيت الأول والثالث لبختيار بن معز الدولة. اليتيمة —٢—١٩٨ .

(٣) الخال: الشامة فى البدن . والعذار بالكسر : الخد.

(٤) يلاحظ أن هذا البيت منقطع الصلة بما قبله .

(٥) معجم الأدباء — ٩ — ١٥١ — ١٥٢

(٦) العميد والمعمود : من هدّه العشق أو المرض .

فقد — وهواك — وهو أجل حلف

حيت نظيرتيك من الهجود[1]

هجرت مقيمة ، وظعنت غضبى   لحربت الحديد على الحديد[2]

فراق ظعينة ، وفراق رأى   يكرهما على فراق جود

ثلاث ما اجتمعن على ابن حب   صدود فى صدود فى صدود

قال : وانصرفت . فلما كان من الغد استدعانى ، وقال : اسمع ، وأنشدنى لنفسه :

أتانى فى قميص اللاذ يمشى   عدو لى يلقب بالحبيب[3]

فقلت له : فديتك ! كيف هذا   بلاواش — أتيت — ولا رقيب

فقال : الشمس أهدت لى قميصاً   رقيق الجسم من شفق الغروب

فثوبى ، والمدام ، ولون خدى   قريب من قريب من قريب

ويلاحظ : أن التطريز فى شعر ابن سكرة ، وفى شعر أبى الفتح ، مأخوذ من قول ابن المعتز المتقدم :

فثوبى ، والمدام ، ولون خدى   شقيق فى شقيق فى شقيق

ويقول الأمير تميم ابن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى :

تمتع بالمسرة والشباب   فقد برز الربيع من الحجاب

لحبك والزمان وأنت فيه   شباب فى شباب فى شباب

لحى على المدام بكف ساق   يدير الخمر من برد عذاب[4]

---

(١) الحلف كنفع ورفق وكتف : القسم ونظيرتيك : عيناه والهجوم : النوم

(٢) حربة : ضراه وأثاره .

(٣) اللاذ : جمع لاذة . وهو ثوب حريرى أحمر صينى .

(٤) برد عذاب : يقصد الأسنان العذبة الريق .

يدير بريقه ويديه خمراً ... شراب فى شراب فى شراب
يداه ثم وجنته وقلبى ... شهاب فى شهاب فى شهاب
كأن يديه حاكت وجنتيْه ... بنار — يصطلى منها — لُهاب(١)
إذا ما أكثر العذّال فيه ... وزاد علىَّ ترديدُ العتاب
عدواتهم وعذلهم جميعاً ... سراب فى سراب فى سراب
لعمرك إنما الدنيا عروس ... جلاها الغيث من تحت النقاب
بنفسجُها ونرجسها وورد ... خضاب فى خضاب فى خضاب
فأهرقْ من دم الإبريق راحا ... فإن الغيثَ ممنوع انسكاب
وإبريق وكأسىَ والغوادى ... سحاب فى سحاب فى سحاب
أتم الشرب إن الصحو غبن ... وللنيروز حظ فى الشراب
فرأيك ثم شربك والقوافى ... صواب فى صواب فى صواب

ويلاحظ أن هذه القطعة أطول ما جاء فى التطريز ، ومن هنا شابها كثير من التكلف والتعمل والاجتلاب ، وبعدت عن نوازع الفطرة والطبع ، لأن هذه الحلى إنما هى لمحات قليلة وفلتات تأتى عفوا ! !.

وقد ذهب العسكرى فى التطريز مذهبا آخر(٢) ، خالف فيه ما اصطلح عليه جمهور البلغاء ، فعرفه : بأن يقع فى أبيات متوالية من القصيدة ، كلمات متساوية فى الوزن ؛ فيكون فيها كالطراز فى الثوب .

وذلك كقول زياد الأعجم :

ومتى يؤامِر نفسه مستخلياً ... فى أن يجود لذى الرجاء يقل جُدِ(٣)

---

(١) لهاب بضم اللام: اشتعال النار.
(٢) الصناعتين ـ ٤١٢
(٣) مستخليا: خاليا بنفسه .

أو أنْ يعود له بنفحـــة نائل بعد الكرامة والحياء يقل عُد
أو فى الزيادة بعد جزْل عطية للمستزيد من العفاة يقل زد

فالتطريز هنا فى قوله : جد ، وعد ، وزد .

وقول أبى تمام :

أعوام وصل كاد يُنسى طولها ذكرى النوى ، فكأنها أيام
ثم انبرت أيامُ هجر أردفت نجوى أسى ، فكأنها أعوام[1]
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنهم وكأنها أحلام

فالتطريز فى قوله : فكأنها أيام ، فكأنها أعوام ، وكأنها أحلام .

وقول العسكرى فى مرثية :

أصبحت أوجه القبور وضاء وغدت ظلمة القبور ضياء
يوم أضحى طريدة للمنايا ففقدنا به : الغنى والغَناء[2]
يوم ظل الثرى يضم الثريا فعدمنا منه : السنا والسناء[3]
يوم فاتت به بوادر شؤم فرزئنا به : الثرى والثراء[4]
يوم ألقى الردى عليه جرانا فحرمنا منه : الجدا والجداء[5]
يوم أودت به هناة الليالى فلبسنا به : البلى والبلاء[6]

ومثل ماتقدم قول المعتمد بن عباد الأندلسى للطبيب أبى محمد المصرى[7]:

أيها الصاحب الذى فارقت عينى ونفسى منه السنا والسناء

---

(١) أردفت: حملت واستتبعت . (٢) الغناء بالفتح: النفع والاكتفاء.
(٣) السنا : الضوء. والسناء: الرفعة. (٤) الثرى : الخير .
(٥) الجران بالكسر: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره ؟ فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض ، قيل ألقى جرانه ، والجدا بالفتح : العطاء . والجداء بالفتح أيضاً : النفع تقول قل جداء عنك؛ أى غناء الأساس مادة ج د ى .
(٦) أودى به: ذهب. والهناة بفتح الهاء والتاء المربوطة: الداهية وقد أوردها القاموس بالتاء المفتوحة خطأ .
(٧) قلائد العقيان — ٦

نحن فى المجلس الذى يهب الرا   حة ، والسمع والغنى والغناء
نتعاطى التى تسمّى من اللذة   والرقة الهوى والهواء[١]
فأته تلف راحة ومحيّا   قد أعدا لك : الحيا والحياء[٢]

والحق : أن ما جاء فى شعر العسكرى وشعرا بن عباد : أولى به أن يسمى جناساً ، كما هو مذكور فى محله[٣] .

ومما أورده العسكرى مثالا للتطريز : قول أحمد بن أبى طاهر :

إذا أبو قاسم جادت لنا يده   لم يحمد الأجودان: البحر والمطر
وإن أضاءت لنا أنوار غرته   تضاءل الأنوران: الشمس والقمر
وإن مضى رأيه أو حدّ عزمته   تأخر الماضيان: السيف والقدر
من لم يكن حذراً من حد صولته
لم يدر ما المزعجان : الخوف والحذر

فالتطريز فى قوله : الأجودان ، والأنوران ، والماضيان والمزعجان .
وقد عد هذه القطعة فى الصناعتين[٤] أحسن ما جاء فى التطريز .

وقال عنها فى ديوان المعانى[٥] : لو استعمل الإنصاف ، لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر .
وسيأتى ذكر لهذه القطعة فى أمثلة التوشيع .

---

(١) يريد بها : الخمر .
(٢) الراحة هنا : بطن الكف . والحيا : الغيث يريد به العطاء . أى تلق راحة عطاء ، ووجها حييا .
(٣) انظر فن الجناس للمؤلف .
(٤) ص - ٤١٢
(٥) ح - ١ - ص - ٤٨

ومن الغريب أن العسكرى فى الفصل الذى عقده « للتطريز » لم يسق مثالا واحدا ينطبق عليه فى رأى الجمهور .

ولكنه فى فصل آخر عقده « للمجاورة »[1] أتى بأمثال ذكرت فى التطريز ، كقول الشاعر :

فلونى ، والمدام ، ولون ثوبى   قريب من قريب من قريب

وقوله :

كأن الكأس فى يده ، وفيه   عقيق فى عقيق فى عقيق

وقوله أيضا :

دعَوْنا ضَرة البدر المنير   فوافتنا على خـِضر نضير[2]

مطرزة الشوارب بالغوالى   مضمخة السوالف بالعبير[3]

ترى ما شئت من قدٍّ رشيق   وما أحببت من رِدف وثير

ألامسها — وقد لبست حريراً —   فأحسبها حريراً فى حرير

فأنسٌ ، ثم لهو ، ثم وصل   سرور فى سرور فى سرور

وعرّف المجاورة بأنها : تردد لفظتين فى البيت ، ووقوع كل واحدة منهما بجنب الأخرى أو قريبا منها ، من غير أن تكون إحداهما لغواً لا يحتاج إليها .

وبهذا يتجلى لنا الفرق بين نظره ونظر الجمهور إلى التطريز ، فهو لم يشترط فيه غير تساوى الوزن فى كلمات ، تقع فى أبيات متوالية من القصيدة كما تقدم فى الأمثلة .

---

(١) الصناعتين — ٤٠١ .

(٢) خضر : شىء يوصف بالخضرة كالعشب والبساط .

(٣) الشارب : الشعر الذى يسيل على الفم؛ قال أبو حاتم: ولا يكاد يثنى. وقال الكلابيون: شاربان باعتبار الطرفين ، والجمع شوارب؛ والمراد بالشوارب هنا : الزغب النابت على فم المرأة وقد كان بعض الناس يستملحه ، أو المراد : مكان الشوارب من إطلاق الحال وإرادة المحل . والغوالى: أخلاط من الطيب .

الفصل الثالث

التفويف

الفوف بالضم فى اللغة : البياض فى أظفار الأحداث ، واحدته : فوفة بوزن غرفة .

وهو أيضاً : قطع القطن ، وضرب من برود اليمن .

وفى قول ابن أحمر : الزهر ، شبه بالفوف من الثياب .

وحلة أفواف ، وبرد أفواف : رقيق .

وشعر كأنه أفواف الوشى (١) .

وثوب مفوّف كمعظم :رقيق، أو فيه خطوط بيض .

ومن هذا الأخير اشتق التفويف البديعى المراد هنا .

والقصد : تلوينه ونقشه(٢).

وفى اصطلاح البديعيين : إتيان المتكلم بمعان شتى من المدح والوصف والغزل ، وغير ذلك من الأغراض التى ينتجها المتكلمون ، كل فن فى جملة منفصلة من أختها بالسجع غالباً ، مع تساوى الجمل فى الزنة (٣)

وقد عرفه الخطيب(٤) بأخصر من ذلك ، فقال هو : أن يؤتى فى الكلام بمعان متلائمة ، فى جمل مستوية المقادير أو متقاربتها .

وأرجع بعض أمثاله إلى مراعاة النظير ، وبعضها إلى المطابقة .

---

(١) القاموس والأساس : مادة فوف .

(٢) خزانة الأدب للحموى ـــ ١٤٠

(٣) بديع القرآن ـ ٧٦ ـ نهاية الأرب ـ ٧ ـ ١٤١

(٤) الإيضاح ـ ٢٥٠ ـ حسن التوسل ٧٠

ومثّل له بقول أبي القاسم الزاهى أو ابن رشيق فى وصف السحاب:(١)

تسربل وشيا من خزوز تطرّزت   مطاريفها طرزاً من البرق كالتبر(٢)

فوشى بلا رقم ، ونقش بلا يد   ودمع بلا عين ، وضحك بلا ثغر

والشاهد فى البيت الثانى .

وقول عنترة :

إن يلحقوا أكرر ، وإن يستلحقوا   أشدد ، وإن نزلوا بضنك أنزل(٣)

وقول ابن زيدون :

ته : أحتمل ، واحتكم : أصبر ، وعزّ : أهن

ودلّ : أخضع ، وقل : أسمع ، ومر : أطع(٤)

وقول ديك الجن الحمصى :

احلُ . وامرر . وضرّ . وانفع . ولن . واخشن

ورش وابرِ ، وانتدب للمعالى(٥)

ومثّل له الحلبى بقول صفى الدين الحلى — وهو أشبه بقول ديك الجن المتقدم فى الصورة — :

اقصر . أطل . اعذل . اعذر . سلّ . خلّ . أعن

خن . هنّ . عنّ . ترفق . كفّ . لجّ . لم(٦)

---

(١) بغية الإيضاح — ٤ — ١٨

(٢) الخزوز بالضم : جمع خز ، وهو الحرير . والمطاريف جمع مطرف بكسر الميم وضمها ، وفتح الراء : رداء من خز مربع ذو أعلام . والطرز ككتب فى الأصل : جمع طراز . وهو علم الثوب وفى رواية .... وشيا من حرير .

(٣) يستلحقوا : يطلبون أن ألحق بهم .

(٤) دل بكسر الدال : فعل أمر من الدلال .

(٥) رش : أمر من راشة : سقاه وكساه وأصلح حاله ونفعه . وابر من البرى : ضر واقطع . وانتدب : أجب واضمن وتكفل .

(٦) عن : أمر من العناء . ولج : أمر من اللجاج .

ومما جاء فى شعر الأعراب : قول أبى العميثل[١] .

فاصدُق ، وعِفَّ ، وجُدْ ، وأنصف، واحتمل
واصفح ، ودار، وكاف ، واحلُمْ ،واشجُع[٢]

والطف ، ولِنْ، وتأن ، وارفُق ، واتئد
واحزُم ، وجِدّ ، وحام ، واحمل ، وادفع[٣]

وقد عجبت أن يكون الأعراب الجارون على السليقة والفطرة ينطقون بمثل هذا الشعر الذى لا يأتى إلا بعسر وكلفة شديدة ، وأحسبه محمولا على أبى العميثل فيما حمل على الأعراب من الشعر المنحول .

ولعلنا نجد الدليل فى قول ابن بسام : وهذا الباب صنعه المولدون ، وعدوه تقسيما وتقطيعا[٤] .

ولأبى الفرج الأصفهانى فى مدح الوزير المهلبى ـ وكان منقطعاً إليه[٥] ـ :

يافرجة الهم بعد اليأس والوجل
يافرحة الأمن بعد الروع والوَهَل[٦]

أسلم ، ودم ، وابق ، واملك ، وانم ، واسم ، وزد
وأعط ، وامنع ، وضِر ، وانفع ، وصُل ، وصِل[٧]

وقد قسم العلوى التفويف إلى قسمين[٨] :

١ ــ قسم يكون التفويف فيه راجعاً إلى المعنى ، وذلك كأن تصف

---

(١) العمدة ــ ٢ ــ ٢٤ (٢) كاف : من المكافأة.
(٣) احزم : أمر من الحزم .
(٤) الذخيرة ــ ١ ــ ٣٢٠
(٥) اليتيمة ــ ٣ ــ ٩٩
(٦) الفرجة مثلثة الفاء : الخروج من الهم. والوهل بفتح الهاء : الفزع.
(٧) ضِر بكسر الضاد : أمر من ضاره يضيره ويضوره ضر . وصل بضم الصاد : أمر من الصولة. وصِل بكسر الصاد: من الوصل والصلة: ضد هجرته.
(٨) الطراز ــ ٣ ــ ٨٥ ــ ٧٦.

الممدوح بما يدل على مدحه من صفات المكارم ، وسمات المحامد ، ثم تورد صفات دالة على ذمه ، ولكن اقترن بها ما يرشد إلى كونها مدحاً ، مثل قول جرير :

هم الأخيار مَنْسَكَة وهَدْيا — وفى الهيجا كأنهمو صقور[1]

بهم حدَبَ الكرام على المعالى — وفيهم عن مساويهم فتور[2]

خلائق بعضهم فيها كبعض — يؤم كبيرَهم فيها الصغير

عن النكراء كلهم غبىٌّ — وبالمعروف كلهم بصير

فتشبيههم بالصقور على إطلاقه :ذم ، لأن من شأن الصقور الخطف والبغى ، وتوصف بالبخر ، ولكن اقترانه « بالهيجا » جعله مدحاً ، لأن الإنسان إذا كان فى الحرب صقراً ، كان باسلا غلابا .

ووصفهم بالفتور ـ وهو ضعف وعجز ـ :ذم ، ولكن اقترانه بعطفهم على المعالى ، وولوعهم بها صيره مدحاً سامياً .

وائتمام الكبير بالصغير نهاية الخمول والفسولة ، ولكن اقترانه بأنهم يتساوون فى الأخلاق الكريمة ، والصفات العالية ، رفعه إلى الغاية من الثناء والمديح : « ذرية بعضها من بعض » .

والغباوة فى ظاهرها صفة ذم ، ولكن لما اقترنت بأنهم بصراء بالمعروف، استحالت إلى مدح عظيم .

٢ — قسم يرجع إلى الألفاظ كالشعر المتقدم .

تسربل وشيا من حرير تطرزت . . . . « البيتين »

ويتصل بالتفويف : شيئان .

الأول : التعديد ، ويسمى أيضاً : سياقة الأعداد .

---

(١) المنسكة :مصدر ميمى ؛ وهو التزهد والتعبد. والهيجاء بالقصر والمد :الحرب .

(٢) الحدب بفتح الدال : العطف.

وهو : إيقاع أسماء مفردة على سياق واحد ؛ بحيث يكون كل واحد من هذه الأسماء له معنى قائم بذاته ، ويكون اسما كذلك لشيء آخر .

فإن روعى فى ذلك ازدواج أو جناس أو طباق أو نحو ذلك ، كان فى غاية الحسن .

وذلك كقولهم من النثر : دفعنا إليه ، ووضعنا بين يديه زمام الحل والعقد ، والقبول والرد ، والأمر والنهى ، والإثبات والنفى ، والبسط والقبض ، والإبرام والنقض ، والهدم والبناء ، والمنع والإعطاء .

ومن الشعر قول المتنبى :

بم التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن(٢)

والقسم الآخر : تنسيق الصفات .

وهو أن يذكر الشيء بجملة أسماء ، أو جملة صفات متوالية .

مثال ذلك من القرآن الكريم : « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبـــار المتكبر سبحان الله عما يشركون » .

« يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » .

ولا تطع كل حلاّف مَهين همّاز مشّاء بنميم ، منّاع للخير معتد أثيم ، عُتلٍّ بعد ذلك زَنيم » .

ومن الحديث الشريف . « ألا أخبركم بأحبكم إلىّ ، وأقربكم منى مجالسَ يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقا الموطّئون(٤) أكنافا الذين يألفون ويؤلفون .

---

(١) نهاية الأرب — ٧ — ١٣١ .

(٢) السكن محركة : من تسكن إليه : أى تستريح .

(٣) العتل : الأكول المنيع الجافى الغليظ . والزنيم : المستلحق فى قوم ليس منهم ، والدعى ، واللئيم المعروف بلؤمه أو شره .

(٤) الموطأ : اللين المهد المهيأ . والكنف محركة : الحرز ، والستر ، والجانب ، والظل والناحية .

ألا أخبركم بأبغضكم إلى، وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة : أسوؤكم أخلاقا، الثرثارون المتفيهقون(١) ».

ومنه قولهم : فلان حسن السيرة ، نقىّ السريرة ، طيب الأعراق ، كريم الأخلاق ، ظاهر النسب ، زاهر الحسب ، حميد الشمائل ، كثير الفضائل .

ومن الشعر : قول البحترى :

جُمعت أمور الدين بعد تزيُّل   بالقائم المستخلَف «المتوكل»(٢)
بموفق للصالحات ، ميسر   ومحبَّب فى الصالحين مؤمَّل

وهو كثير فى شعر البحترى : لديباجته الموشية المنقوشة الرائعة . ولا فتنانه فى الصور البيانية الخلابة المونقة .

ويأتى التفويف على ثلاثة أقسام :

١ — أن يكون بجمل طويلة ، كقوله — تعالى — حكاية عن الخليل — عليه السلام —: «الذى خلقنى فهو يَهدين، والذى هو يُطعمنى ويَسقين ،وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أنْ يغفر لى خطيئتى يوم الدين ، رب هب لى حُكما وألحقنى بالصالحين » .

وقد حصل فى الآية أغرب أقسام التفويف ، وهو الذى تكون جمله متماثلة المقاطع : لأن وقوع ذلك فيه نادر ، والغالب وقوعه بخلافه ، إذ لا يجب تماثل مقاطعه إلا فى الزنة دون التقفية .

ومثاله من الشعر قول النابغة الذبيانى :

فلله عينا من رأى أهل قبة   أضرّ لمن عادى وأكثر نافعاً
وأعظم أحلاما، وأكبر سيدا   وأفضل مشفوع إليه وشافعاً

---

(١) الثرثار: المكثار من الكلام . والمتفيهق: المنطلع المتوسع فى كلامه، كأنه ملأ به فمه .

(٢) التزيل: التفرق .

وقول المتنبي — يمدح محمد بن مُساور الرومي — :

مرجوٌّ منفعة ، مخوف أذيَّة مغبوق كأس محامد ، مصبوحُ(١)
ألبابنا بجماله مبهورة وسحابنا بنواله مفضوح

٢ — أن يكون بجمل متوسطة ، كقوله - تعالى - : « يُولج الليل فى النَّهار ويُولج النهار فى الليل ، ويُخرج الحى من الميِّت ، ويخرج الميت من الحى » .

ومن الشعر قول المتنبي :

دار الملمِّ لها طيفٌ تهدَّدني ليلا فما صدقت عيني ولا كذَبا(٢)
أنأيته فدنا ، أدنيته فنأى جمَّشته فنبا ، قبلته فأبى(٣)

وقوله فى سيف الدولة — حين رضى عنه — :

معطى الكواعب ، والجُرد السلاهب، والبيض
القواضب ، والعَسَّالة الذُّبُل(٤)

وقول بعض الشعراء :

بالجود مغتبق ، بالحمد مصطبح فى السبق منقطع ، بالحلم متصل

وقول ابن زيدون :

تِهْ : أحتمِلْ ، واستطلْ : أصبرْ ، وعِزَّ : أهنْ
وولِّ : أقبلْ ، وقُلْ : أسمعْ ، ومُرْ : أطعِ

وفى هذا البيت يقول ابن بسام(٥): وأحسن - لعمرى - ابن زيدون فى هذا التقسيم؛ ودفع بالحديث فى صدر القديم !! ولو قرع سمع أبى منصور(٦)

(١) المغبوق: الذى يسقى مساء ، والمصبوح: الذى يسقى صباحا ، والمراد أنه يحمد فى المساء والصباح .

(٢) دار: خبر عن ضمير محذوف. والملم: الزائر ولم تصدق عينه لأنه رأى خيالا ؛ ولم يكذب الطيف لأنه هجره بعد ذلك.

(٣) التجميش : المداعبة .

(٤) الجرد: القصيرة الشعر وهو مدح فى الخيل. والسلاهب: الطويلة على وجه الأرض والعسالة: الرماح المضطربة للينها : والذبل : جمع ذابل على غير قياس لضمورها وهو مستحب فيها ، والضمير فى المعطى: لسيف الدولة .

(٥) الذخيرة — ١ — ٣٢٠

(٦) أبو منصور : عبد الملك الثعالبي؛ صاحب يتيمة الدهر.

بما فى تضاعيف هذا التصنيف من الشذور ، لما كان عنده « ابن وَشْمكير »(١) بمذكور ، ولا أغرب بغرائب « الصاحب » ، ولا بديع « البديع ».

(٣) أن يكون بالجمل القصيرة ، كقول المتنبي فى سيف الدولة من القصيدة المتقدمة .

أقلْ . أنِلْ . أقْطِع . احمِل . علِّ . سلِّ . أعد

زد . هشَّ . بَشَّ . تفضّل . أدْنِ . سُرَّ . صِلِ

ونحب أن نقف قليلا عند هذا البيت بخاصة ، لما يتعلق به من قصة ، فقد كان المظنون : أن سيف الدولة ـ وهو شاعر وناقد أريب ـ ألا يطرب لمثله ، ولكن يظهر أنه اهتز للمديح ، ولم يلق بالاً إلى القالب الذى أفرغ فيه.

فقد روى الثعالبي(٢) : أن سيف الدولة لما تناول من المتنبي نسخة القصيدة ، وانتهى إلى هذا البيت ؛ وقَّع تحت «أقل» : قد أقلناك ، وتحت « أنل »: يحمل إليه من الدراهم كذا ، وتحت « أقطع » : قد أقطعناك الضيعة الفلانية « ضيعة بباب حلب» وتحت « احمل » : يقاد إليه الفرس الفلانى، وتحت «عل » « من التعلية » : قد فعلنا ، وتحت « أدن » : قد أدنيناك ، وتحت «سر» بالضم : قد سررناك ، وتحت « صل » « من الصلة » : قد فعلنا .

وقد فهم سيف الدولة من قوله : « سر » : أنه من السرور ، فقال : قد سررناك .

ولكن المتنبي ـ كما يروى ابن جنى ـ كان يريد : « سر » بفتح السين وكسر الراء المشددة من السَّرِّية .

فأمر له سيف الدولة بجارية .

ويذكر ابن جنى أيضاً : أنه كان فى حضرة سيف الدولة شيخ ظريف

(١) ابن وشمكير : هو الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير من أدباء طبرستان.

(٢) اليتيمة — ١ — ٩١

يدعى « المعقلى » فحسد المتنبي على ماناله ، فقال لسيف الدولة : يامولاى ؟ قد فعلت به كل شيء سألك إياه ، فهلا وقعت تحت هش بش : هيءهيءهيء «يحكى صوت الضحك »!!

فضحك سيف الدولة ، وقال له : ولك أيضاً ماتحب !!

وأمر له بصلة .

وسواء أكان المعقلى حاسداً أم بريئاً من الحسد ، فمما لاشك فيه أن نيل المتنبي مانال من تكريم مادى وأدبي بهذا البيت الفسل ، من شأنه أن يثير الحسد من الأعماق ! !

ولكن يخيل إلى : أن هذا الشيخ الظريف ، أراد من هذه الهاهأة معنى لم يدركه ابن جنى ، ولا سيف الدولة نفسه .

أغلب الظن : أنه أراد أن يضحك من الأمير ، لارتياحه إلى هذا البيت السخيف ، ومن شاعر الأمير الذى لايستحى أن ينطق بهذا الشعر المشاكل لرُقى الحيات !

على أن لنا أن نعتقد : أن سيف الدولة ـ ونحن نقدر مكانته الأدبية ـ قد أجاز المتنبي على القصيدة لا على هذا البيت وحده ، وأن هذا البيت لم يكن إلا مظهراً من مظاهر اهتزازه لهذا الشعر ، فسجل ارتياحه له بهذه الصلات السنية المترادفة ، تحقيقاً لأمل الشاعر فيه ، فى الحق : أن سائر القصيدة من سوائر الشعر ومذهباته ، وأن هذه الأعطيات ـ مع نفاستها ـ فانية فى جنب هذه المدائح الخالدة ! !

ويذهب القاضى الجرجانى فى « الوساطة(١) » إلى أن المتنبي فى هذا البيت نسج على منوال ديك الجن فى قوله المتقدم .

---

(١) رقى الحيات : يضرب مثلا لشيئين متضادين : الكلام الطويل الذى لايفهم ، والكلام اللين اللطيف ، والمراد : الأول .

(١) يتيمة الدهر ـ ١ ـ ٩٧

أحلْ ، وامْرُرْ ، وضُرَّ ، وانْفَعْ ، ولِنْ ، واخشُنْ
ورِشْ ، وابْرِ ، وانتدِبْ للمعالى

وأنا أخالفه فى هذا الرأى ، فهذا النوع أقل من أن يتنافس فيه المتنافسون ، وأحقر من أن يوصف : بأن شاعراً نسج فيه على منوال شاعر آخرُ ...!!

فليس هو ضرباً من الأخذ الخفى أو الظاهر ، وليس هو مما يصح أن يصب فيه الشاعر على قالب الشاعر ، ويقع بينهما التفاضل من أجله .

والشاعر لا يتكلف فيه أكثر من الإتيان بسلسلة من الأفعال أو الأسماء معطوفة أو غير معطوفة ، وهو أيسر شىء وأهونه عليه.

والشعراء فى عهد « القرزمة » (١) يفزعون إليه كثيراً ؛ لسهولة نظمه وقلة المئونة فيه .

على أن هذا النوع يعد لا زمة من لوازم المتنبى الكثيرة — ولكل شاعر لوازم — فقارئ ديوانه يرى أنه أكثر منه ، وبخاصة فى زمن الصبا فهو حرى أن يقال فيه : إنه يقلد فى ذلك « بالفتح » لا أنه يقلد .

فمن ذلك قوله فى صباه — يمدح محمد بن عبيد الله العلوى — :

أطعَنُها بالقناة ، أضربُها بالسيف ، جحجاحها ، مُسوَّدُها
أفرسُها فارساً ، وأطولها باعاً ، ومِغوارها ، وسيِّدها
شمس ضُحاها ، هلال ليلتها دُرُّ تقاصيرِها ، زَبَرجدُها(٣)

وقوله أيضاً فى صباه — يمدح عبيد الله بن خلكان — :

---

(١) القرزمة بفتح القاف : الإتيان بالشعر الردىء والقرزام بالكسر : الشاعر الدون وكذلك القرزوم كعصفور .

(٢) الجحجاح بالفتح: السيد الشريف. والمسود : الذى جعله قومه سيدا .

(٣) التقاصير : القلائد اللاصقة بالعنق ؛ جمع تقصار وتقصارة بكسر التاء . والزبرجد: حجر كريم .

دانٍ . بعيد . محب . مبغض . بَهِج

أغرّ . حُلو . مُمِرّ . ليّن . شرِسٍ[1]

ندٍ . أبيّ . غرٍ . وافٍ . أخى . ثقة

جعد . سرىّ . نهٍ . ندْب . رَضٍ . نَدُس[2]

وقوله من غزل قصيدة — يمدح بها على بن منصور الحاجب — :

الناعماتُ . القاتلات . المُحيِيا ت . المبديات من الدلال غرائبا

ثم قال من مدح القصيدة :

إن تلْقه لا تلق إلا جحفلا أو قسْطلا . أوطاعنا . أوضاربا[3]

أو هاربا . أو طالبا . أو راغبا أو راهبا ، أو هالكا ، أو نادبا

وقوله فى آل بويه :

قدروا . عفوْا . وَعدوا . وفوْا . سُئلوا

أغنَوْ . علوْا . أعلوْا . وَلُوا . عدلوا[4]

وقوله من قصيدة — يمدح بها شجاع بن محمد الطائى — :

عدوية . بدوية . من دونها سَلْب النفوس . ونارحرب توقد[5]

وهواجل . وصواهل ، ومناصل وذوابل ، وتوعد ، وتهدد[6]

(١) البهج : الفرح . والممر : المر على أعدائه . والشرس : الصعب الخلق على خصومه .

(٢) الندى : الجواد . والغرى : الحسن وأصله بتشديد الياء . والجعد : الكريم والنهى : العاقل . والندب : السريع . والرضى : المرضى الخلق . والندس : الذكى .

(٣) الجحفل : الجيش الكثير . والقسطل : غبار الحرب .

(٤) أى قدروا فعفوا وهكذا بترتيب كل ثان من الأفعال على ما تقدمه .

(٥) عدوية : نسبة إلى بنى عدى . وبدوية : نسبة إلى البادية أو البدو على غير قياس .

(٦) الهواجل : الفلوات لا أعلام لها جمع هوجل ككوثر . والصواهل : الخيول . والمناصل : السيوف . والذوابل : الرماح .

وقد ذكر ابن رشيق وابن بسام[١] : أن المتنبى زاد فى هذا وتباغض حتى صنع ما سماه ابن وكيع : رقية العقرب فى قوله :

عِشِ . ابقَ . اسمُ . سُدْ . قُدْ . جُدْ
مُرِ . انهَ . رِهِ . فِه . اسْرِ . نل

غِظْ . ارمِ . صبِ . احمِ . اغزُ . اسبِ
رُعْ . زعْ . دِ . لِ . اثنِ بِل

وقد تطوع ابن رشيق بشرحها ؛ لأنه لا بد من شرحها — كما قال —. والشرح كما يلى :

عش . ابق: « دعاء له بالعيش والبقاء » . اسم : من السمو . سد : من السيادة: «أى دم هكذا » . قد : من قوْد الخيل. جد : من الجود والسماح ، أو من الجود بوزن قول ، وهو : المطر الغزير . مر : من الأمر . انه : من النهى . ره : من الورى بوزن : وعد ، وهو :داء فى الجوف : أى اصنع ذلك بأعدائك وحسادك . فه : من الوفاء . اسر : من سرى الليل : « يصفه بالعزم والغارات . نل : من النيل والإدراك : أى نل ما تحب . أومن الإعطاء ، يقال : نلته : إذا أعطيته . غظ : من غيظ الحسود . ويروى « بالعين » من الوعظ. ارم : من رمى العدو بالمكايد وغيرها . صب : من صاب المطر والسهم . احم : من حميت المكان . اغز : من الغزو . اسب : من السبى . رع : من الروع . زع من وزعته : أى كففته . د : من الديه . ل : من الولاية للأمور . وقد يكون من الولىّ بوزن غنى ،وهو كل مطرة تجىء على أثر مطرة . اثن : من ثنى أضداده : إذا ردهم . بل : من الوابل ، وبلت السماء تبل : من باب وعد : أمطرت .

وهذه — كما يقول ابن رشيق — وقد صدق — غاية المقت والبغاضة !! ولا خلاف أن هذا الشعر أقبح ماروى على الإطلاق فى هذا الباب !!

---

(١) العمدة — ٢ — ٢٥ — الذخيرة — ١ — ٣٢٠

وأحسب أن المتنبي — إن صح ذلك عنه — كان يقوله على جهة المفاكهة والتندر ، لا أن يروى عنه ويحفظ ويؤثر ، ولعله مما يؤيد ذلك ماجاء في ديوانه (١) . من أنه سئل بيتا يضم أكثر ما يمكن من الحروف فقال

عِش . ابق . اسمُ . سُدْ . جِدْ . قُدْ . انْهَ . اسرِ . فُه . تَسَلْ
غِظْ . ارمِ . صِب . احمِ . اغزُ . اسبِ . رُعْ زَعْ دِلِ اثنِ بِلِ(٣)

وقيل لما أنشده قوله : أقل . أنل . أقطع . احمل . عل . سل . أعد

« البيت »

رأى قوما يعدون ألفاظه ، فزاد فيه مكان « أقطع » « أن . صن »
وأن بضم الهمزة معناه :ارفق . ومكان « تفضل» : « هب . اغفر » فرآهم يستكثرون الحرف ، فقال هذاالبيت .

وهذا دليل على أنه كان يقول أمثال ذلك للتفاصح والتفاخر ، ومكايدة الخصوم

ثم قال بعده :

وهذا دعاء لو سكتَّ كُفيته   لأنى سألت الله فيك وقد فعل(٢)

وفي البيت اتفاق مع رواية ابن رشيق في أكثر الألفاظ ، إلا أن الشراح خالفوه في بعض ماذهب إليه من ضبط بعض الألفاظ ، فحدث اختلاف في معناها تبعاً لذلك.

فمثلا : اسر ، رواها ابن رشيق بكسر الهمزة والراء : أمر من سرى الليل وأجاز غيره ذلك ، كما أجاز : أن تكون من السرو بوزن بدو ، وهو المروءة في سخاء ، فيكون الفعل : اسر بالضم مثل . أدع .

---

(١) العرف الطيب ٣٥٥

(٢) أى لو سكت عن هذا الدعاء لكنت في غنى عنه لأنى قد سألت الله لك هذه الامور فحققها فأغناك عن دعائى .

و «فه» جعلها ابن رشيق من الوفاء ، فرواها بكسر الفاء ، وجعلها الشراح من الكلام : أى فه بالعطايا بضم الفاء نسألك حاجاتنا .

وصب بكسر الصاد عند الشراح : من صاب السهم يصيب من باب باع لغة فى أصاب .

وعند ابن رشيق : من صاب السهم يصيب كما تقدم ، ومن صاب المطر يصوب بضم الصاد ، من باب قال يقول .

ومهما يكن ، فهذا اللون — كما ترى — قد أغرم به المتنبي ، وولع به جهده .

وهو عندى من خمس شعره الردىء ، الذى قال فيه ابن الأثير : إنه فى الغاية المتقهقرة التى لا يعبأ بها ، وعدمها خير من وجودها ، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها ! فإنها هى التى ألبسته لباس الملام ، وجعلت عرضه شارةً لسهام الأقوال(١) !!

فليس هو إذن مما قلد فيه غيره، وإن صح أنه تأثر فى ذلك شاعراً ، فلن يكون غير أبى تمام ، فقد ركب قبله هذا المركب الخشن ، وهو فيه أقبح من المتنبي ، لأنه يزيد عليه الغرابة والحوشية .

وقد جاءت له فى قصيدة واحدة فى مدح خالد بن يزيد الشيبانى ، مطلعها:

ما لكثيب الحمى إلى عَقَدِهْ ... مابال جرعائه إلى جَرَدِه (٢)

أنواع من هذا التعسف المقيت ، لا مزيد عليه فى الهجنة ! .

فقال منها — يصف سنام الجمل — :

---

(١) المثل السائر — ٢١٤

(٢) العقد بفتح القاف وكسرها: المتراكم من الرمل. والجرعاء من معانيها: الرملة الطيبة المنبت لا وعوثة فيها. والجرد محركة: فضاء لا نبات فيه.

تامكة . نهده . مداخله ملمومه محزئلّه . أجده(١)

ويصف الرمح فيقول :

مارنه . لدنه . مثقفه عرّاصه فى الأكف . مطرّده(٢)

ثم يقول فى الممدوح — مشبها له بالسحاب — :

مسفّه . ثرّه . مسحسحه وابل له . مستهلّه . برده(٣)

وقد كفانا ابن الأثير نقد هذه الأبيات ، فقال فى الأول : إنه من المعاظلة التى : يعد قلع الأسنان دون إيرادها .

وقال فى الثانى : وهذا كالأول فى قبحه وثقله ، فقاتله الله !! ما أمتن شعره ، وما أسخفه فى بعض الأحوال !!.

وقال عقب إيراد الثالث : لو لم يكن لأبى تمام من القبيح الشنيع إلا هذه الأبيات ، لحطت من قدره (٤) .

وقد صدق ابن الأثير ، فإن شيطان أبى تمام لم يكن له ناصحاً فى هذه الأبيات .

وأكثر هذا الالتواء والتعقيد والتنافر ، يسقط له حين يفارق طبعه الأصيل ، إلى تمويه ديباجته بهذا التصنيع .

هذا ، وليس معنى قولنا — فيما مضى — : إن التفويف من لوازم المتنبى : أن جميع ما أتى به قبيح ، فمن الإنصاف أن نقول : إن كثيراً مما وقع له يتسم بالجودة ، وقد مر بعضه فى التمثيل للنوع الجيد .

---

(١) النامك: الطويل المرتفع المكتنز. والنهد : المرتفع. والمحزئل بوزن مقشعر: المرتفع فى السير. والأجد بضمتين: وصف خاص بالنوق ؛ وهى القوية الموثقة الخلق ، المتصلة فقرات الظهر

(٢) المارن: الصلب اللدن. والعراص كشداد: اللين .

(٣) المسف: الدانى. والثر بفتح الثاء وتشديد الراء: الغزير . والمسحسح بصيغة اسم الفاعل: الشديد .

(٤) المثل السائر — ١٢٠ .

ومن ذلك الحسن المطبوع : قوله فى سيف الدولة :

الشمس من حساده ، والنصر من قرنائه ، والسيف من أسمائه
أين الثلاثة من ثلاث خلاله من حسنه ، وإبائه ، ومضائه

فانظر إلى هذا التقسيم الجميل ، الذى قرن فيه كل ألف بإلفه ، ثم أتى إلى هذه المفاضلة التى ترجع كل مزية إلى نوعها المختص بها ، والتى هى أظهر شىء فيه .

وقوله :

فتاة تساوى عقدها وكلامها ومبسمها الدرىّ فى الحسن والنظم (١)
ونكهتها ، والمندلىّ ، وقرقف معتقة صهباء فى الريح والطعم (٢)

وقوله فى على بن إبراهيم التنوخى :

فليس بواهب إلا كثيراً وليس بقاتل إلا قريعا (٣)
«علىّ» ليس يمنع من مجىء مبارزه ، ويمنعه الرجوعا
«علىّ» قاتل البطل المفدّى ومبدله من الزّرد النجيعا (٤)

وقوله فى ابنى عضد الدولة البويهى :

ولم أر قبله شبلى هزبر كشبليه ، ولا مهرى رهان
أشدّ تنازعاً لكريم أصل وأشبه منظرا بأب هجان (٥)

---

(١) المبسم بكسر السين : الفم.
(٢) النكهة : رائحة الفم. والمندلى بفتح الميم والدال : عطر ينسب إلى المندل من بلاد الهند. والقرقف بفتح القافين ، وكعصفور : الخمر يرعد منها شاربها. والصهباء : الحمراء إلى البياض.
(٣) القريع : السيد الشريف.
(٤) النجيع : دم الجوف.
(٥) التنازع : التجاذب. والهجان بالكسر : الخالص الصريح .

وأكثرَ في مجالسه استماعا فلان دقّ رمحا في فلان

وقوله في المغيث العجليّ :

جاءت بأشجع من يُسمَى ، وأسمح من
أعطى ، وأبلغ من أملى ومن كتبا(١)
لو حـلّ خاطرُه في مَقْعد لمشى
أو جاهل لصحا ، أو أخرس خطبا

والبحتري في هذا النوع سابق لا يجارى ، وله فيه آيات سوائر ، تعكس ماتميز به من تدفق الطبع ، ورقة التعبير ، ودماثة الأسلوب ، وأناقة الديباجة وصفائها ، وتآخي الكلمات وتوازنها ، في أجراس مطردة عذبة مطربة كوسواس الحلي ، وبُغام الظباء ، وهديل الحمام ، وشدو العنادل ! ! .

فمن ذلك قوله في الغزل :

لي حبيب قد لجّ في الهجر جدا وأعاد الصدود منه وأبدى
يتأبّى منعا ، ويُنعم إسعا فا ، ويدنو وصلا ، ويبعُد صدا
أتراني مستبدلا بك ما عشتُ بديلا ، أو واجدا منك بدّا
حاش لله ! أنت أفتن ألفا ظا ، وأحلى شكلا ، وأحسن قدّا

وقوله — يمدح المعتز — :

أصبحت رتبة الخلافة للمعتز بالله منزلا ومحلا
ملك ما بدا لعينك إلا قلتَ : بحرٌ طما ، وبدرٌ تجلى
ياجمالَ الدنيا سَناء ومجدا وثمال الدنيا عطاء وبذلا(٢)
كلما حُصِّلت مساعي قريش طبت فرعا في مُنْتماها وأصلا(٣)

---

(١) الضمير في « جاءت » للمحبوبة التي جاءت برجل هذه صفاته .

(٢) الثمال بالكسر: الغياث الذي يقوم بأمرقومه.

(٣) المساعي: المكارم والمعالي في المجد. والمنتمى: النسب.

بين عم النبي والحبر والسجّـاد والكامل الذى بان فضلا[1]

لهمْ زمزمٌ ، وأفنية الكعبة والحِجْر، والصّفا، والمُصلى[2]

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤ دُد والمجد والمكارم مثْلا

أنتأندى كفًّا، وأشرف أخلا قا ، وأزكى قولا ، وأكرم فعلا

ولشعراء الأندلس ولوع بالتفويف ، ويظهر ذلك بخاصة فى شعر ابن زيدون وابن دراج القسطلى .

فمن قول ابن زيدون :

والحلم يرسخَ هضبه والعلم يز
خَر بحْره ، ولَظى الذّكا يتضرّم

بَرَدت ظلالُ ، ذُارك واُحلَوْلى جنَى
نُعماك لى ، وَصفَت جِمامُ نَداك

تَتم به النّعمى ، وتتّسِق المنى
وتُستَدفع البلوى ، ويُستَقبل الصبر

فما آثرَ الأولى ولا قلّد الحجا
ولا شكَر النعمى ، ولا حفِظ اليدا

صمْصام بادرة ، وَطوْد سكينة
وجواد غاياتٍ ، وجِذْل حِكاك

إلى الله أوّاب ، ولله خائف
وبالله مُعتَدّ ، وفى الله مُشتدّ

(١) يقصد العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وحفيده على بن عبد الله.

(٢) الحجر بالكسر: ماحواه الحطيم المدار بالكعبة منجانب الشمال.

سجيّته الحُسنى ، وشيمته الرضا
وسيرته المُثلى ، ومذهبه القصد

غمام يُظلّ وشمس تُنير
وبحر يَفيض ، وسيف يُسَل

قسيم المحيّا ، ضحوك السّماح
لطيف الحوار ، أديب الجدَل

قررتَ به عينا فكم ساد عِترةً
وكم ساس سُلطانا ، وكم زان مشهداً

محض التقى ، عفّ الهوى
غَمْر الندى ، صَدْق الجلد

فابقيا في دولة قادرة
بعض حرّاس نواحيها القَدَرْ

مُستنذِلى مَنْ طغا مُستأصِلى
شأفةَ الباغى ، مُقيلى من عثَر

علمى منْ ضلّ ، مُزْنى من شكا
خَلّةَ الإمحال ، بَدْرَى من نظر

طريقتكم مُثلى ، وهديكم رضا
ومذهبكم قصد ، ونائلكم غَمْر

بالقَدْر يَنبُعد ، والتّواضع يدّنى
والبشر يُشمِس ، والندّى يتغيّم

لقد جدّ إخبات ، وحقّ تبتّل
وبالغَ إخلاص ، وصحّ متاب

وإلى هنا يمكن أن نقول إن هذا التفويف من النوع الجيد ، وفيه خصائص ابن زيدون من حلاوة اللفظ ، وطلاوة الأسلوب ، وبهاء الديباجة ، ونصاعة المعنى ، وبعده من الغموض واللبس ؛ لأنه استمده من طبعه ، واستقاه من قريحته ، ولم يقلد فيه المشارقة .

ولكن له نوع آخر نظر فيه إلى صنعة المتنبي فجاء غثّاً جهما ثقيلا !!

اسمع قوله :

أجْرِ ، أعد ، آمن، أحسن، ابدأ ، عد ، اكف، حط
تحَفَّ ، بسط ، استألف، صُنِ ، احم ، اصنعْ ، أعِل

وقوله :

ته ، احتمل ، واستطل ، أصبر ، وعَزّ ، أهُنْ
ولِّ ، أقبل ، وقُلْ : أسمعْ ، ومُرْ ؛ أطعِ

ويقول ابن دراج القسطلي :

عطاء بلا مَنٍّ ، وحكم بلا هوى
ومُلْك بلا كبر ، وعزّ بلا حُجْب
وبالخير فتاح ، وبالخير عائد
وبالخيل ، ظعّان ، وللخيل طعان
حرَمُ الهدى سُمّ العدا ، أمنيّة
لمسالم ، ومَنيّة لمحارب
فبهاؤه في نصله ، وذكاؤه
في رمحه ، ومضاؤه في سهمه
حياء ، وحلم ، وفضل ، وعدل
وعطف ، وعفو ، وبأس وجود

غيث سحاب ، وغيث جود
وطيب عَرْف ، وطيب ذكر

فعفوُهم جهدى ، وحُلوهم مرّى
وصفوهم طِرق ، ويُسرهم عُسرى

فأودق بالحُسنى ، وأغدق بالمنى
وأمر بالنعمى ، وأجزل بالصنع

وتوّجَ من تاج ، وألبس من حِلى
وقلّد من سيف ، ودرّع من درع

بما رشت من سهمى وأيّدت من يدى
وجلّيت من ضُرّى ، وأدنيت من نفعى

ولمن مُناه أن تعيش مؤيّدا
ومؤيّدا ، ومؤمّنا ، ومُؤمّنا

ومعظّما ، ومكرما ، ومحكما
ومسلما ، ومُغنّما ، وممكّنا

وفى كل ذكر ، وفخر ، ونشر
وشكر ، وشعر ، وشهد ، وشاد

فكان الحسام ، وكنت السنان
وكان الشعار ، وكنت الدثارا

فصنت العلا ، وأبحت الندى
وحُطت الهدى ، وحميت الذمارا

فتركت حزبَ الشِّرْك بين مصرَّع
ومعفَّر ، ومجدَّل ، ومُرمَّل
وثنيت حزب الدين بين مملَّك
ومظفَّر ، ومغنّم ، ومنفّل
بكرائم لم تُمتهن ، وعقائل
لم تمتثل ، ومصونة لم تُبذل
فيا فتحا لمفتتح وبُشرَى
لمنتظر ، ويامَرْأى لراء
وسنيُّها ، وعليّها وزكيّها
وحليمها ، وكريمها ، وجوادها
المسرعون إلى الندى ، والطائرو
ن إلى الوغى ، والراجحون حلوما
فعش ، ودم ، وابق ، واملك ، واقتبل نعما
واحلُل منيعا من المكروه مُنتَزحا

ومن تفويف ابن حمديس :

فانصرْ. وافخَر . وأدِر . وأشِرْ
وأبرْ . وأجِرْ . وأغِرْ . وسُدِ

رأى الحموى فى التفويف :

للحموى فى التفويف رأى يحسن أن نورده ، ليقف عليه الدارس ، ولأنه مما تلذ مناقشته .

يقول : تأملته — يعنى التفويف — فوجدته نوعاً لم يفد غير إرشاد

ناظمه إلى طرق العقادة – يريد التعقيد – والشاعر إذا كان معنوياً – يقصد أنه يعنى بالمعنى – وتجشم مشاقه ، تقصر يده عن التطاول إلى اختراع معنى من المعانى الغريبة ، وتجفوه حسان الألفاظ ، ولم يعطف عليه برقها ، وتأنف كل قرينة صالحة أن تسكن له بيتاً .

ثم هو يرى أن مجيئه بالجمل القصار أحسن وأبلغ وأصعب مسلكا(١) .
وأول ما نأخذه على رأيه: أنه يتصف بالتعميم ، فليس التفويف دائماً يسوق إلى العيوب التى ذكرها .

وليس كل ما جاء منه لحقته هذه العيوب ، فهو نوع من الكلام يأتى حيناً حسناً ، وحيناً قبيحاً ، وتارة طيعاً ، وآخرى عصياً ، بحسب صياغته وتأليفه ، وموقعه من الكلام ، وبحسب قوة الشاعر وضعفه ، وتحليقه وإسفافه ، والحكم عليه فرع عن تلك الأحوال .

وقد تأملته – كما تأمله الحموى – فوجدته يحسن بأشياء :

١ – ألا يطول حتى لا يثنى الأذن عن تتبعه ، ويصد الفكر عن ملاحقته ، إلا أن يستدعى المعنى ذلك ! كقول البحترى :

قف مشوقاً ، أو مسعداً ، أوحزيناً   أو معيناً ، أوعاذرا ، أو عذولا

فلا شك أن التفويف هنا طويل ، ولكن الذى حسنه ، بل قصره : أن هذه الألفاظ كلها مما يحتاج إليها فى هذا الموقف ، موقف الصب المغرم المتيم يلم بدار أحبابه بعد أن فارقها زمناً طويلا ، فيقف ويستوقف صاحبه معه ، حتى يحدث بها عهداً ، ويطفىء غليل الشوق إليها وإلى سكانها !!

فلا معدى للبحترى إذن عن استخدام هذه السلسلة الذهبية من الألفاظ حين أراد أن يتقصّى موقف رفيقه ، ومسعده على بلواه!

---

(١) خزانة الأدب – ١٤٠

ولا معدى لهذا الرفيق المسعد عن لباس حال من تلك الحالات التى صورها الشاعر ، وترك له الحرية التامة فى اختيار إحداها كما يطيب له .

فليس فى هذا البيت — على طوله — لفظة يحسن اطراحها ، لأنها لغو أو فضول أو حشو أو تطويل .

وربما قيل : إن «مسعداً» و «معيناً» لفظان مترادفان .

ويسهل الجواب : بأن الإسعاد أخص ، لأنه أكثر مايستعمل فى النوح والبكاء ، وأما الإعانة ! فتعم كل مساعدة .

وكذلك قول المتنبي :

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فكل لفظة من هذه الألفاظ تعرف الشاعر ولا تنكره ، وتمت إليه بسبب وثيق ، فلم يكذب المتنبي فى إيراد واحدة منها .

فهو شاعر يمتطى الخيل ، وشجاع يركب الليل ، ومغامر يعتسف الفلوات ، ومحارب يضرب بالسيف ، ويطعن بالرمح ، وشاعر يصطنع القرطاس والقلم .

وفى هذا البيت يقول ابن جنى : قد سبق الناس إلى ذكر ماجمعه فى هذا البيت ، ولكن لم يجتمع مثله فى بيت ما علمت .

وقال البحترى :

اطلبا ثالثاً سواى فإنى   رابع العيس والدجى والبيد

وهذا اللفظ عذب ، ولكن ليس فيه جميع ما فى بيت المتنبي[1]

٢ — أن تكون الكلمات متلائمة فى ألفاظها أو معانيها ، أو موضوعها

---

١) يتيمة الدهر — ١ — ١٦٨

وإلا كانت سرداً بلا ضابط ولا حساب .

فنحن نشعر بالصلة القوية بين أجزاء هذا البيت من قصيدة لأبى طالب فى ابن أخيه الرسول الكريم[١] :

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه ... ثمال اليتامى ، عصمة للأرامل[٢]

فمعانيه كلها تدور حول النفس الموسومة بالخير، النبيلة النزعة ، الميمونة الطالع ، المرجوة النفع ، يكشف ببركتها الكرب العام والخاص .

وفى قول حسان — يمدح آل جفنه الغساسنة — وقد ذكروا — : أنه أمدح بيت قالته العرب[٣] — :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شمُّ الأنوف من الطِّراز الأوّل[٤]

فإن نباهة الذكر ، وشرف الأعراق ، وعزة الأنفس ، ورفعة المراتب كلها من بابة واحدة ، ولكنك حينما تقرأ قول المتنبى :

منعّمة . مُمَنّعة . رداح ... يكلف لفظها الطيرَ الوقوعا[٥]

يبدو لك أن لفظة «رداح» نابية عن مقرها ، قلقة فى موضعها ؛ لأننا نعرف من سياق القصيدة : أنه لا ينسب بامرأة معينة هذه صفتها ، حتى يقال: إنه يذكر الحقيقة، وأن هذه بعض سمات جسدها ، ولكنها لفظة عابرة جاء بها لوزن البيت ، وليست أولى بهذه المرأة من « عروب » و « شموع »

---

(١) المواهب الفتحية — ١ — ١٤٤

(٢) أبيض معطوف على « سيد » المنصوب بالمصدر فى البيت قبله ؛ « وماترك قوم لاأبالك سيداً .... » هكذ أعربه الزركشى فى نكته على البخارى ، وقال لايجوز غيره وتبعه ابن حجر فى فتح البارى والدماميى ، وجعله ابن هشام فى المغنى مجروراً برب مقدرة ، وأنها للتقليل والمعنى ليس عليه. والثمال بالكسر: العماد والملجأ والمطعم والمكافىء .

(٣) ديوان المعانى — ١ — ٣٧

(٤) بيض الوجوه: مشهورون نبهاء ، وليس المراد البياض المعروف.

(٥) الرداح بفتح الراء: الثقيلة الأوراك.

و« قطوف »[1] مما يأتي على وزنها ، إذ ليس حتما أن تكون كل معشوقة رداحا .

وهذا بخلاف قول البحتري :

بنت كرم يديرها مُرْهَفُ القد م غرير الصِّبا خضيب البَنان[2]

لأن غرارة الصبا تستتبع ماقبلها من رهافة القد ، وما بعدها من خضاب البنان .

فهذه المحاسن متلائمة ، يأخذ بعضها بأعناق بعض ، وجميعها من صفات النواشئ الصغيرات الكواعب .

ثم استمع إلى قول المتنبي في ابن العميد :

عربيٌّ لسانُه . فلسفيٌّ رأيه . فارسيةٌ أعيادُه

تجد هذه الصفات ، قد لاءم بينها اجتماعها في الممدوح ، فالبيت تصوير دقيق موجز لابن العميد في فصاحة لسانه ، وحصافة رأيه ، وعظم نعمته ورفاهيته ، فلا يبعد من يقول : إن هذاالبيت هو ابن العميد حساً ومعنى .

(٣) ألا يتكرر في أبيات على الولاء ، وبخاصة في النوع الطويل منه الذي يتألف من الكلمات القصيرة ، حتى لا يجلب السآمة والملل ، ويوحي بالتكلف ، بل الأعم الأغلب في مثل هذا لا يجيء إلا متكلفاً ، لأن الخاطر يتعاظمه أن يقذف بعدد من الكلمات المفردة على شرط التلاؤم والتعادل دفعة واحدة ، فلا سبيل للشاعر إلا أن يتصيد الألفاظ ، ويرصها رصاً آليا استكمالا للوزن الشعري ، وهذا هو التعسف بعينه ، كقول المتنبي — يمدح عبد الواحد بن العباس الكاتب — :

---

(١) العروب كعروس : المتحببة لزوجها . والشموع كعروس أيضا : المزاحة اللعوب . والقطوف بفتح القاف : الضيقة المشى .

(٢) غرير الصبا : ناشىء غافل ناعم .

الحازم . اليقظ . الأغرّ . العالم . الفطن
الألد . الأريحىّ . الأروعا[١]

فلم يكتف بهذا البيت حتى قفّى عليه بقوله :

الكاتب . اللبق . الخطيب . الواهب . الندس
اللبيب . الهبرزىّ . المصقعا[٢]

فهذان بيتان جاءا على التوالى فبلغا غاية السماجة ، وأحسب أن « صبى المكتب » — إذا كان ملماً بأوزان العروض — لا يعز عليه أن يأتى بمثلهما أو أحسن منهما ! بل أستطيع أن أزعم أن نسبة « مجموع المتون » إلى الشعر أصح من نسبتهما .

ولا شك أن القارىء يحس أول وهلة : أن المتنبى لم يحشد هذه الكلمات استقراء لصفات الممدوح ، ولكن توصلا للوزن .

وهب هذه الصفات اجتمعت فى الممدوح — واجتماعها عسير — فقد كان حسن الذوق ، ومراعاة البراعة ، تقضى بإتيانها لمعاً فى تضاعيف القصيدة حتى يخف وقعها على الأذن .

وقد استتبع هذا الركام من الألفاظ أشياء أخرى محظورة ، ما كان أغنى الشاعر عنها !

فقد اضطر أن يردد المعنى بألفاظ مترادفة أو قريبة من الترادف دون حاجة إلى ذلك ، كالندس واللبيب ، والواهب والأريحى .

وأن يجلب ألفاظاً غريبة حوشية ، كالندس والهبرزى .

---

(١) نصب الحازم ومابعده بتقدير عامل محذوف : أمدح أو أعنى . والأغر : المشهور ، ويروى الأعز . والألد : الشديد الخصومة والأريحى : الواسع الصدر الذى يرتاح للمعروف والكرم . والأروع : من يعجبك بجماله أو شجاعته .

(٢) الندس بفتح فضم : الفطن : والهبرزى بكسر الهاء والراء : الجميل الوسيم ؛ وقيل : السيد الكريم . والمصقع كمنبر : الخطيب البليغ .

وأن يباعد المناسبة بين الألفاظ حتى أصبحت كالضرائر ، فالألد – على الأقل – فقدت شكلها وإلفها فى البيت الأول .

والخطيب والواهب لايجمعها قران .

والواهب تنكر مكانها بين الخطيب والندس .

والمصمم موقعها المختار بعد الخطيب ، فجاءت قسراً بعد الهبرزى .

هذا إلى الطول الفاحش فى البيتين ، فقد احتضنا ست عشرة لفظة ، لكل بيت ثمان منها .

ولعل براعة المتنبى هنا ظهرت فى هذا التوزيع العادل بين البيتين .

ولكن تأمل كيف برىء البحترى من هذه العيوب فى مدحه الفتح ابن خاقان :

إفضال «فتح» علىّ جمّ ونيل «فتح» لدىّ غمر (١)

المنعم المفضل المرجّى والأبلج الأزهر الأغر (٢)

فقد تألف هذا البيت الأخير من كلمات منظومة فى نسقها المتعين لها ، وكأن كل لفظة فيه تمهيد لتاليتها ، وفرش لها ، وإيذان بها ، ومناداة عليها

بقى الشق الثانى من رأى الحموى : وهو : أن أحسن هذا النوع : مايأتى باللفظ القصير .

ومقطع الحق فى هذا : أن حسنه لايتعلق بالطول ولا بالقصر — كما رأينا — بل باستيفاء الشروط الموجبة للحسن .

وإن كان لابد من المفاضلة ، فرأينا أن ما جاء بالكلم الطوال أحسن ،

---

(١) النيل: العطاء . والغمر : الكثير.

(٢) الأبلج: المضىء الواضح. والأزهر: المشرق الوجه. والأغر: الشريف الكريم الأفعال الواضحها.

لأن فيها معافاة من التكلف والتكرار ، وفقد الانسجام وبعداً عما سماه ابن الأثير «المعاظلة اللفظية »[١] وسماه غيره « التنافر ».

وهو - كما نعرف - يذهب بفصاحة الكلام ، ويخليه من الرونق والماء.

وكثير من أمثلة التنافر منتزع من هذا النوع القصير الكلمات .

ومن النوع الذى حالف المتنبى فيه التوفيق ، وقد سماه الثعالبى : حسن سياقة الأعداد [٢] — وقد سبق ذكره - قوله :

على ذا مضى الناس : اجتماعٌ وفرقة ... وميت ، ومولود ، وقال ، ووامق

وقولة :

ألا أيها السيف الذى ليس مُغْمَداً ... ولا فيه مرتاب ، ولا منه عاصم

هنيئاً لضرب الهام ، والمجد ، والعلا ... وراجيك ، والإسلام ، أنك سالم[٤]

وقوله — من قصيدة يمدح بها سيف الدولة — :

وربّ جواب عن كتاب بعثته ... وعنوانه للناظرين قتام[٥]

حروف هجاء الناس فيه ثلاثة ... جواد ، ورمح ذابل ، وحُسام[٦]

لما سمى الجيش جوابا : جعل حروفه جواداً ورمحاً وحساما ، اقتداراً واتساعا فى الصنعة [٧] .

وقوله :

أنت الجواد بلا من ولا كدر ... ولا مطال ، ولا وعد ولا مذل [٨]

---

(١) المثل السائر — ١١٩

(٢) اليتيمة — ١ — ١٦٨

(٣) القالى : المبغض . والوامق : المحب .

(٤) أنك سالم : فاعل هنيئا أى هنيئا لهذه المذكورات سلامتك . وهنيئا : حال محذوفة العامل ؛ والأصل ثبت هنيئاً .

(٥) القتام : الغبار : أى يبعث الجيش بدلا عن الجواب فيكون عنوانه الغبار الثائر .

(٦) أى هذا الجيش مؤلف من هذه الحروف الثلاثة كما يتألف الكتاب من حروف الهجاء .

(٧) اليتيمة — ١ — ١٦٨

(٨) المذل محركة : الضجر والقلق .

وقوله :

بى حَـــرٌّ شوق إلى ترشُّفها ينفصل الصـــبر حين يتصل[1]
الثغر،والنحر،والمخَـلْخل، والمِعصَم دائى ، والفــاحم الرَّجِل[2]

وقوله :

ولـكنّ بالفسطاط بحــرا أزرْتـه حياتى،ونصحى ،والهوى ، والقوافيا

وقوله – يهجو كافوراً من قصيدة له – :

أمَـيْنا ، وإخلافاً ، وغــدرا ، وخسة
وجبنا !! أشخصاـ لُحتَ لى ـ أم مخازيا ؟![3]

ومن مشهور التفويف: قول ابن دَرّاج القَسـْطلّى :

عطاء بلا مَنٍ وُحكم بلا هوًى ومُلك بلا كبر ، وعِزّ بلا ُعجب

وقول ابن شرف القيروانى :

لمختلفى الحاجات جمعٌ ببـابه فهذا له فنٌّ ، وهــذا له فنٌّ
فللخامل العَـليــا ، وللمعدم الغنى وللمذنب الُعتْبى،وللخائف الأمن[4]

وقول ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب ُمدامةً سكِـرنا بها من قبلأن يخلَـق الـكرْمُ
يقولون لى : صفها ، فأنت بوصفها خبير ، أجل عندى بأوصافها علم
صفاء ولاماء، ولطُـف ولا هوًى ونور ولا نار ، وروح ولاجسم

---

(٣) يريد ترشف فم المحبوبة.والضمير فى « يتصل » يعود على الشوق . والمخلخل بصيغة اسم المفعول : مكان الخلخال .

(٤) الرجل بكسر الجيم : الشعر بين السبط والجعد .

(٥) المين : الكذب .

(٦) العتبى بالضم: الرضا ؛ تقول استعتبنى فاعتبته أى أرضيته .

وقول الثعالبي في وصف الربيع :

ولما وَهى من صيِّب المزن عِقدُه وأقبل يروى غُلةَ النَّبت بل يَشفِي
رأيت به في الروض أعجبَ منظر يدلّ على صنع المهيمن ذى اللُّطف
فضحْك بلا ثغر، ونسج بلا يد وحَلْيٌ بلا صوغ، ودمع بلا طرف

ولا يعيب قول ابن شرف وابن الفارض إلا قصر الممدود فيهما لضرورة الشعر في «العلياء» و «الهواء».

فإن هذه الضرورة — وإن جازت عروضا — لا تجوز بلاغة، وهى في هذا النوع من الكلام المترف الأنيق أقبح وأسمج، والشاعر المتكبر المعتز بفنه ينأى عنها.

وقول الرُّستمى :

فتى حاز رقّ المجد من كل جانب إليه، وخلّى كاهل الشكر ذا ثِقْل
بعفو بلا كدّ، وصفو بلا قذًى ونقد بلا وعد، ووعد بلا مطل[1]

ويرى ابن رشيق[2] : أن امرأ القيس هو فاتح هذا الباب للشعراء، وأنْ أصل هذا كله قوله :

أفاد، فجاد، وشاد، فزاد وقاد، فذاد، وعاد، فأفضل

ولبعض العصريين — من قصيدة —[3] :

تولّى زمان اللهو ياهند فاعذِرى وأقصر عماكان من غَيِّه «عمرْ»[4]
ألم تُبصرى فودى تنفّس صبحُه وكان حبيبا للدُّمى ليلُه العَكِر
جناه على رأسى زمانٌ مُذَمَّم يشوب لنا صفوَ اللذائذ بالكَدَر
ربيعٌ ولا خِصب، وظلٌّ ولا ندى وماء ولا رىٌّ، وروض ولا ثمر

---

(١) النقد كضرب: إعطاء النقد.
(٢) العمدة — ٢ — ٢٥.
(٣) ألحان الأصيل — ٢٩٧.
(٤) أقصر عن الشيء: تركه قادرا عليه. وعمر: ابن أبي ربيعة على التشبيه.

ومن بدائع التفويف ماأوردناه سابقاً فى وصف السحاب :

تسربل وشيا من خُزوز تطرّزت   مَطارفها طُـرْزا من البرق كالتبر
فوشى بلا رقم ، ونقش بلا يد   ودمع بلا عين ، وضحك بلا ثغر

وقد عرض الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود لهذين البيتين بالنقد، فقال(١): تدرك من فورك . أن هذا الشاعر كاذب فى شعوره ، يبحث عن اللفظ أولا ، ثم يترك المعنى تابعاً ، والأصل أن يضطربَ المعنى فى ذهنه، فيخرجه فى ألفاظ ، فلم يتسربل السحاب وشياً من حرير مطرز، وليس البرق تطريزا ولا الرعد ضحكا، وكيف يكون، وهو الذى ماسمعته يدوى مرة إلا رأيت قلوب الناس تنخلع لدويه المخيف !

ولو قاله الشاعر يصف أصيلا جميلا هادئاً ، لجاز له أن يرى السحاب الخفيف المنتثر على صفحة السماء وشياً من الحرير المطرز ، ولكنه يصف السماء وقد زعزعتها العاصفه القاصفة برعدها وبرقها ، فمن كذب الشعر أن توحى إليه تلك الطبيعة الخشنة الغليظة بنعومة الحرير ، وزركشة التطريز، أو أن يوحى له الرعد بالضحك ، مع أنه أدنى إلى الزمجرة الغاضبة .

ويقول فى موضع آخر ، فلا شك أن هذه كلها صور جميلة ، فالسحاب الذى لبس رداء من حرير ، والرداء الذى طرزه البرق ، والدمع الذى ينسكب من غير المحاجر ، ثم الضحك الذى تنحدر قهقهته من غير الأفواه كل هذه صور جميلة ، ولكنها تفسد المعنى ، لأنها لاتترك فى القارئ أثر السماء العاصفة ببرقها ورعدها(٢) .

ونلاحظ أن هذا النقد لايخلو من التناقض ، فالناقد فى كلامه الأخير يقرر جمال هذه الصور ـ وإن أفسدت المعنى فى نظره ـ فيقول : « فلاشك

---

(١) فنون الأدب — ١٢.
(٢) فنون الأدب — ٧٨.

أن هذه كلها صور جميلة، فالسحاب الذى يلبس رداء من حرير إلخ، على حين يجرد هذه الصور نفسها من الجمال فى أول كلامه حيث يقول : فلم يتسربل السحاب وشياً من حرير مطرز ، وليس البرق تطريزاً إلخ .

ومادامت هذه الأشياء لاتنسجم مع هذه الصفات والحلى التى أثبتها لها الشاعر ـ ولو ادعاء ـ فقد فسد أساس الاستعارة ، وانتفى الجمال عنها جملة وتفصيلا .

ويكون خلاصة مارآه: أننا أمام منظر جميل وغير جميل فى وقت واحد!!

ونلاحظ أيضاً غلواً فى قوله :ـ كل هذه صور جميلة، ولكنها تفسد المعنى — ذلك لأن جمال الصورة لايتفق مع المعنى الفاسد ؛ إلا إذا صح أن يجمل ثوب الخز على حمار مثلا !! والشاعر يقول :

ولو لبس الحمار ثياب خز لقال الناس يالك من حمـــار

فالمعنى هو الذى ينضح على الصــورة بهذا الجمال؛ أو يمدها على الأقل بكثير من عناصره .

وكون هذه الصور الجميلة «لاتترك فى نفوسنا أثر السماء العاصفة ببرقها ورعدها »ـ كما يقول ـ لايعد إفساداً للمعنى ، ولكن يصح أن توصف بأنها لاتنقل إلينا الحقيقة ، أو أنها غير صادقة الأداء .

ففساد المعنى يرجع إلى شىء آخر ؛ كالمغالطة فى الحقائق ، أو التناقض ، أو الإحالة ، أو فساد المقابلات ، وما إلى ذلك مما أخذه النقاد على الشعراء، ودونوه فى أبحاثهم؛ كقول أبى نواس فى وصف الأسد :

كأنما عينُـــه إذا نظرت ـ بارزة الجفن ـ عينُ مخنوق

فوصف عين الأسد بالجحوظ ، وهى توصف بالغئور (١).

وقول عبد الرحمن القسّ :

(١) الصناعتين — ١١٥ .

أرى هجرها والقتل مثلين فاقصرا ملامكما . فالقتل أعفى وأيسر[١]

فأوجب هذا الشاعر للهجر والقتل؛ أنهما مثلان ثم سلبهما ذلك بقوله:

فالقتل أعفى وأيسر .

فكأنه قال: إن القتل مثل الهجر وليس مثله.[٢]

وكان الأولى أن يقول الأستاذ نجيب : إن الشاعر قد أغفل الجزء المهم من المعنى مثلا ، لا أنه أفسده ، لأن الفساد لم يحدث .

على أنه ليس واجباً على الشاعر أن يستقصى فى وصف مايرى ، ويستوعب الأجزاء كلها، لأن الشعر ليس تأليفا وجمعاً وضماً، وإنما هو لمحات خاطفة متبلورة مركزة، ووقوف عند جزئيات بارزة متضحة، تسترعى نظر الشاعر ، وتستوقف فكره ، فيخصها بعنايته ، ويتذوّق مافيها من جمال ، ويستشف ماوراءها من أسرار .

وفى ذلك يقول البحترى _ أكثر الشعراء التزاما لعمود الشعر _ :

كلفتمونا حـدود منطقكم ... فى الشعر يغنى عن صدقه كذبهْ

ولم يكن ذو القُروح يلهَج بالمنطق ... مانوعه ، وما سببـه[٣]

والشعر لَمْح تكفى إشارتُه ... وليس بالهَذْر طُوِّلت خُطبه

ولباب التصوير وسره ، وفتنة الخيال وسحره : مردها إلى البراعة فى التجسيم والتشخيص، وبث الحياة فى التعبير، وإلهاب العواطف، واستفزاز المشاعر ، لا إلى التدقيق فى سرد الصفات ، واستقراء أجزاء الصورة .

فإذا كان الشاعر أرانا وشى السحاب ، وطراز البرق ، وضحك الرعد فى هذا الإطار الأنيق المزخرف المفوف ، ولم يرنا أثر السماء العاصفة

---

(١) قصر عن الأمر قصورا ، وأقصر بالتشديد ، وتقاصر : انتهى .

(٢) الموشح — ٢٢٦ .

(٣) ذو القروح : لقب امرئ القيس .

برقها ورعدها » فلأن هذا المعنى لم يستثر شعوره ، ولم يحرك خاطره إلى إبرازه ،وليس هو مكلفاً بغير الصدق فى الأداء النفسى الذى يحسه هو أولا.

كما أنه ليس بملوم فى ذلك : فالشأن ـ كما قال المبرد ـ : واعلم أن للتشبيه حدّاً؛ فالأشياء تتشابه من وجوه، وتتباين من وجوه ، فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع ، فإذا شبه الوجه بالشمس ، فإنما يراد الضياء والرونق ، ولا يراد العظم والإحراق(١).

وكما قال « جاريت » : إنه لا يقلل من استماعنا بقراءة آثار « دانتى » أو « ملتون » افتراضها وجود ألوان لا يمكن أن تكون ، فإننا حين نشعر بجمال شىء لا نفكر فى علاقته بغيره ، أو فى القوانين التى تتحكم فى وجوده ، كما نفعل فى دراسة العلم ، بل نشعر : أن الجمال عالم مستقل بذاته ، له قوانينه الخاصة(٢).

وإنكار الناقد «نجيب » على الشاعر : تسمية صوت الرعد ضحكا ،لأنه يخلع قلوب الناس ـ وليس من شأن الضحك ذلك ـ لا يتخذ حجة على الشاعر لعدة أسباب .

منها : أن ضحك الرعد لا يخلع القلوب ـ كما هو تعبيره ـ إلا فى بلاد كبلادنا، أغناها الله بالنيل عن المطر ؛ كما يقول نجيب الحداد فى وصفها(٣):

بل أنت غانية عن المطر الذى   يَهمى فإن النيل فيك غمام

فلا تكاد تراه إلا فى بعض فصول السنة ، فأهلها معذورون إن فزعوا لقصف الرعود وجلجلتها !!

ولكن فى البلاد التى تغاث بالأمطار ـ ومنها بلد الشاعر(٤) ـ يطربون لصوت الرعد ، ويأنسون به ، ويعدونه بشيراً بالخير والبركة والخصب والنماء ، فلا بدع أن يسميه الشاعر ضحكا .

---

(١) الكامل « شرح المرصفى » ٢ ـ ٧٢ .
(٢) فلسفة الجمال ـ ٣٩ .
(٣) المنتخب ـ ١ ـ ٢٤٧ .
(٤) هو الزاهى ؟ فيكون بلده : العراق، أو ابن رشيق ؟ فيكون بلده : تونس .

بل قد سمَّوْا هذا الصوت : هَزَجا ! !

يقول الزمخشرى : ومن المجاز : سحاب هزِج بالرعد « بكسر الزاى » ، وسمعت هزَج الرعد والعود.

وهو مأخوذ من الأصل اللغوى : هزج المغنى فى غنائه كفرح ، والقارئُ فى قراءته : إذا طرَّبا فى تدارك الصوت وتقاربه(١).

فانظر كيف سموه : هزجا ، وقرنوه بخفق العود ؟ !

وسموه : ترنماً ، قال العسكرى : (٢)

والرعد فى أرجائه مترنِّم
والبرق فى حافاته متلهِّب

كالبُلْق ترمَح، والصوارم تُنتضَى
والجو يبسِم ، والأنامل تحسُب(٣)

وسموه : زجلا ، قال ابن الرومى(٤) :

متهلِّل زجِل تحنّ رواعد فى حَجرتيْه ، وتستطير بروق(٥)

ومنها:أنه ليس بغريب أن تنخلع القلوب من الضحك أو بعض الضحك على الأقل ، فإن الناس يختلفون فى ذلك اختلافا كبيرا ، فضحك الأطفال غير ضحك الرجال ، وضحك الرجال غير تهاتف النساء.(٦)

وفينا كثير من ذوى الحناجر الغليظة ، والأشداق الواسعة ، والمناخر

---

(١) الأساس — مادة هزَج .
(٢) نهاية الأرب — ١ — ٨٨ .
(٣) البلق: الخيول فيها سواد وبياض؛ جمع أبلق. وتنتضى: تسل. وتحسب: تعد .
(٤) ديوانه — ٣٠٦ جمع الأستاذ كامل كيلانى.
(٥) حجرتيه : ناحيتيه مثنى حجرة بالفتح.
(٦) التهاتف: ضحك فى فتور كضحك المستهزئ،وهو خاص بالنساء

الضخمة ـ إذا ضحكوا على حين غرة أو سعلوا أو عطسوا ـ ألقوا الرعب في النفوس !

ومع هذا نسمى بعض هذه الأصوات المنكرة ضحكا أو قهقهة ! !

ومنها : أن الشاعر لم يجاوز في هذا سنن من تقدموه في تسميتهم صوت الرعد : قهقهة ؛ فقد أتت الآثار الكثيرة في ذلك ، كقول الشاعر[1]:

إذا ونت السحب الثقال يحثها من الرعد حاد ليس يبصر أكمه
أحاديثه مستهولات ، وصوته ـ إذا انخفضت أصواتهن ـ مقهقه

على أن الشاعر لم يذكر الرعد في بيتيه ، فلعله غير مراد له ـ وإن كان يلازم البرق دائما ـ .

وعلى هذا النحو يمكن أن نصرف الضحك للبرق .

وكثيراً ما يوصف البرق بالضحك والتبسم ، كما يوصف الرعد بالقهقهة .

قال ابن مطير ـ وهو أجود ماقيل في السحاب ـ [2]:

مستضحك بلوامع ، مستعبر بدوامع لم تمرها الأقذاء[3]
فله ـ بلا حزن ولا بمسرة ـ ضحك يؤلف بينها وبكاء

وقال العتابي ـ وهو أجود ماقاله محدث ـ [4]:

أرقت للبرق يخفو ثم يأتلق يخفيه طوراً ، ويبديه لنا الأفق[5]
كأنه غرة شهباء لائحة في وجه دهماء مافي جلدها بلق
أو ثغر زنجية تفتر ضاحكة تبدو مشافرها طوراً وتنطبق

وقال ظاهر الدين الحريري ـ من شعراء الخريدة ـ [6]:

---

(١) نهاية الأرب — ١ — ٨٨ (٢) ديوان المعاني — ٦٢

(٣) المستعبر: الذي جرى دمعه. ومراه: استخرجه: أي هذه الدموع لم تجر بسبب قذاة في العين .

(٤) ديوان المعاني ـ ٢ ـ ٩ .

(٥) خفا البرق : لمع .

(٦) نهاية الأرب ـ ١ ـ ١٨٩ .

ألست ترى الجو مستعبرا يضاحكه برقه الخلب

وقال محمد بن عاصم — من شعراء الخريدة أيضاً —(١) :

أضاء بوادى الأثل والليل مظلمُ بريقٌ كحدّ السيف ضرّجه الدمُ
فشبّهته إذلاح فى غسق الدجى بأسنان زنجى بدتْ تتبسّم

وقال العسكرى :

كثير سرورى فى قليل وفائه وعند ابتسام البرق قهقهةُ الرعد

وقال شاعر :

والبرق يضحك كالحبيب وعنده رعد يُخشِّن كالرقيب مقاله

وقال آخر :

ولما وقفنا للوداع عشيّة وطرفى وقلبى : دامع ، وخفوق
بكيت فأضحكت الوشاة شماتة كأنى سحاب ، والوشاة بروق

وقال بعض الرجاز :

ضحك البر بها ثم بكى .

وفيما قدمناه مايغنى .

---

(١) نهاية الأرب — ٥ — ١٧٩ .

الفصل الرابع

التغاير

التغاير : أن يغاير المتكلم الناس فيما عادتهم أن يمدحوه فيذمه ، او يذموه فيمدحه(١).

واختصره بعضهم فقال : هو تحسين القبيح ، و تقبيح الحسن .

وهو نوع من البديع معروف، وقد سماه قوم: التغاير، وسماه العسكرى التلطف ، وللاسم من المسمى : نصيب ، فإن الأديب أو الشاعر يتلطف بالمعنى الحسن حتى يهجنه ، وبالمعنى الهجين حتى يحسنه !!

وهو القياس الشعرى المذكور فى المنطق، وقد ورد كثيراً فى كلام العرب.

فمن الأول - وهو تحسين القبيح - قول الفرّار السُّلَمى فى تحسين الفرار:

وكتيبة لبّستها بكتيبة ... حتى إذا التبست نفضت لها يدى(٢)

فتركتهم تقِص الرماح ظهورهم ... من بين مُنجدل وآخر مُسنَد(٣)

هل ينفعنّى أن تقول نساؤهم ... - وقُتلت دون رجالهم - : لا تبعَد(٤)

وقول الحارث بن هشام المخزومى فى معناه :

الله يعلم ما تركت قتالهم ... حتى رموا مُهرى بأشقر مُزبد(٥)

فصُرفت عنهم - والأحبة فيهم - ... طمعا لهم بعقاب يوم مُفسد

---

(١) نهاية الأرب - ٧ - ١٤٥ .

(٢) لبستها : خلطتها .

(٣) الوقص : الكسر . والمجندل : المصروع .

(٤) لا تبعد: من البعد بفتح العين وهو الهلاك ، أو من البعد ضد القرب .

(٥) الأشقر المزبد : المراد الدم .

وفيه يقول أبو عبيدة : ماعتذر أحد من الفرّارين بأحسن مما اعتذر به الحارث ! .

وهذا الذى سمعه صاحب « رُتبيل »(١) فقال: يامعشر العرب ، حسّنتم كل شيء فحسُن ، حتى الفرار ! !

ولما فر أمية بن عبدالله بن خالد يوم « مَرداء هجَر(٢) » من أبى فُدَيك الخارجى،وفد عليه أهل البصرة،ولم يدروا أيهنئونه أم يعزونه ، حتى دخل عبدالله بن الأهتم : فاستشرف الناس له ، وقالوا : ماعسى أن يقال للمنهزم؟

فسلم عبدالله ، ثم قال : مرحباً بالصابر المخذول ، الذى خذله قومه ! الحمدلله الذى نظر لنا عليك،ولم ينظر لك علينا ، فقد تعرّضت للشهادة جهدك ولكن علم الله حاجة أهل الإسلام إليك ،فأبقاك لهم بخذلان من معك لك.

فقال أمية : ماوجدت أحداً أخبر بى من نفسى غيرك(٣).

وقول منصور الفقيه فى مدح الموت :

قد قلت : إذمدحو الحياة وأسرفوا	فى الموت ألفُ فضيلة لا تعرَف
منها أمان لقائه بلقائه	وفراقُ كل معاشر لا يُنصِف

وقول شاعر فى إفشاء الأسرار :

وما أكتم الأسرار لكن أنمّها	ولا أدع الأسرار تَغلى على قلبى
فإن قليل العقل من بات ليلَه	تقلّبه الأسرارُ جنبا على جنب

وقول أبى العتاهية فى البخل :

جزِىَ البخيلُ علىّ صالحة	عنى لخفّته على ظهرى
أعلى وأكرمَ عن نداه يدى	فعلَتْ ، ونزّه قدرُه قدرى

---

(١) رتبيل :من بلاد التركستان .

(٢) مرداء هجر: موضع بهجر وهجر:قاعدة البحرين .

(٣) العقد الفريد ــ١ ــ ٧٤ .

ورزقت من جدواه عافية ألا يضيق بشكره صدرى
وظفرت منه بخير مكرُمة من بخله من حيث لايدرى
ما فاتنى خيرُ أمرئٍ وضعت عنى يداه مئونةَ الشكر

ومن اللطيف فى معنى ماتقدم قول الآخر :

أعتقنى سوءُ ماصنعت من الرّق فيا بردَها على كبدى
فصرت عبدا للسوء فيك وما أحسن سوءٌ قبلى إلى أحد

وقول نهشل بن حَرِىّ فى الجبن ـ وهو أحسن ماقيل فيه ـ :

فلو كان لى نفسان كنت مقاتلا بإحداهما حتى تموت وأسلما

وقول شاعر فى مدح الخمول والذل :

لذ بالخمول وعذ بالذل معتصما بالله تسلم كما أهل النهى سلموا
فالريح تحطم إن هبت عواصفها دون الثمار وينجو الشيح والرتم(١)

وقول ابن الرومى فى الحلف الكاذب :

وإنى لذو حلف كاذب إذا ما اضطررتُ وفى الأمر ضيق
وما فى اليمين على مُحْرَجٍ يدافع بالله مالا يُطيق

وقوله فى مدح الإعراض :

ما ساءنى إعراضه عنى ولكن سرّنى
سالفتاه عوَض من كل شىء حسن(٢)

وقوله فى الحقد :

وما الحقد إلا توءم الشكر فى الفتى
وبعضُ السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيث ترى حقدا على ذى عداوة
فثَمّ ترى شكرا على حسَن القرض

---

(١) الرتم كسبب : نبات دقيق بذره كالعدس .
(٢) السالفة : صفحة العنق .

إذا الأرض أدّت رَيْع ماأنت زارع
من البذر فيها فهي ناهيك من أرض[١]

وقد أخذه من قول عبد الملك بن صالح الهاشمي - وقد قال له يحيى البرمكي - : أنت حقود ! فأجابه: إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر !! فإنهما عندي لباقيان .

فقال يحيى : مارأيت أحداً احتج للحقد حتى حسنه غيرك !!

وقد عاد ابن الرومي فذمه بقوله :

يا مادح الحقد محتالا له شبَهاً ... لقد سلكت إليه مسلكاً وعثاً[٢]
كم زخرف القولَ ذو زور ولبّسه ... على القلوب ولكن قلّ مالبثا[٣]
الحقد داء دويّ لا دواء له ... يَرِي الصدور إذا ما جمره حُرثا[٤]
فاستشف منه بصفح أو معاتبة ... فإنما يبرئُ المصدورَ مانفثا

ويلاحظ : أن ابن الرومي يذم ما يمدح ، ويمدح مايذم كثيراً توسعاً واقتداراً .

وقد يكون ذلك لاعتلال مزاجه .

وفي مدح الشر ذكروا : أن المتوكل قال لأبي العيناء -حين دخل إليه-: بلغني أن فيك شراً !

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن يكن الشر ذكر المحسن بإحسانه ، والمسئ بإساءته ، فقد زكى الله - عز وجل - وذم ، فقال في التزكية : « نعم العبد إنه أوّاب » .

وقال في الذم: « همّازٍ مشّاءٍ بنميم . منّاع للخير معتدٍ أثيم . عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم »[٥] .

---

(١) الريع : الزيادة والنماء وفضل كل شيء على أصله . وناهيك به : كلمة تعجب واستفهام كما يقال حسبك ، وتأويلها : أنه غاية تنهاك عن طلب غيره .

(٢) الوعث كنفع : الطريق الشائك المسلك ، حرك للضرورة .

(٣) لبسه : خلطه .

(٤) يرى بكسر الراء يحرق ؛ من ورى . وحرث النار : حركها .

(٥) العتل : الأكول المنيع الجافي الغليظ . والزنيم : المستلحق بقوم ليس منهم ، والدعي واللئيم المعروف بلؤمه أوشره .

وقد قال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أثن دائماً ولم أشتم الجِبْس اللئيم المذمَّما[١]
ففيم عرفت الخير والشر باسمه وشقّ لى الله المسامع والفما

ويقول مسعود بن عبدالله الأسدى فى مدح الغدر :

قالوا غدرت فقلت إن وربما نال العلا وشفى الغليلَ الغادر

ويقول بعضهم فى مدح الفقر :

من شرف الفقر ومن فضله على الغنى ياصاح لو تعتبرْ
أنك تعصى كى تنال الغنى ولست تعصى الله كى تفتقر

ومن الثانى : أى تقبيح الحسن : أن الحسن رأى على رجل طيلسان[٢] صوف ، فقال له : أيعجبك طيلسانك هذا ؟

قال : نعم .

قال : إنه كان على شاة قبلك .

فهجّنه من وجه قريب .

وقال شاعر فى حاجب اسمه : سعد :

ياحاجب الوزراء إنك عندهم سعد ، ولكن أنت سعدالذابحُ[٣]

ويقول العسكرى : سمعت والدى — رحمه‌الله — يقول : لعن الله الصبر فإن مضرته عاجلة ، ومنفعته آجلة ، وذلك :أنك معجِّل بالصبر ألم القلب ، لتنال المنفعة فى العاقبة ، ولعلها تفوتك لعارض يعرض ، وكنت قد تعجلت الضرر من غير أن تصل إلى نفع .

وما سمعت هذا المعنى من غيره ، فنظمته بعد ذلك ، وهو :

الصبر عما تجنّه صَبِر ونفع من لام فى الهوى ضرر[٤]

---

(١) الجبس بالكسر : الجبان .

(٢) الطيلسان : لباس أسود من أثواب العجم .

(٣) سعدالذابح : أحد كوكبين ؛ والآخر يسمى سعدالسعود .

(٤) الصبر بكسر الباء وبالسكون على قلة : عصارة شجر مر .

من كان دون المرام مصطبرا فلست دون المرام أصطبر
منفعة الصبر غير عاجلة وربما حال دونها الغِيَر(١)
فقم بنا نلتمس مآربنا أقام أو لم يقم بنا القدر
وابغ من العيش ماتسر به إن عذل الناس فيه أو عذروا

وقد يظن أن الشعراء يركبون التناقض البغيض ،ويفزعون إلى الكذب الصُّراح،حين يستحسنون ما يستقبح ،ويستقبحون مايستحسن ،ويمدحون مايذم ، ويذمون مايمدح .

والحقيقة : أنهم لايتناقضون ولا يكذبون ، وإنما هم يتناولون بعض الجوانب دون بعض فى ذلك،كما فعل عمرو بن الأهتم(٢) حين مدح الزِّبرِقان ابن بدر بين يدى الرسول — صلى الله عليه وسلم — بأكرم صفات المدح ثم ذمه بأدنئها .

فلما رأى الكراهة فى وجهه حين اختلف قوله ، قال : يارسول الله ، رضيت، فقلت:أحسن ما علمت ، وغضبت، فقلت: أقبح ماعلمت،وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الثانية .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :« إن من البيان لسحراً»(٣)
وقد أشار إلى ذلك شوقى بقوله .

فامدح على الحق الرجال وذمهم أو خلّ عنك نصيحة النُّصاح

---

(٢) الغير كعنب : الأحداث
(٣) زهر الآداب — ١ — ٣٨ .
(٤) إن أريد بالحديث المدح ، فالمعنى أنه يستمال به القلوب ، ويرضى به الساخط ، ويستسهل به الصعب؟ فالمشبه به السحر، بمعنى مارق ولطف مأخذه على ماقى الصحاح ،أو السحر بمعناه الحقيقى المشهور، لكن بعد تجريده عن ملاحظة الخديعة والتمويه . وإن أريد به الذم ، فالمعنى : أنه يكتسب به من الإثم ما يكتسب الساحر ، أو أنه قد يخدع بزخارفه وحسن معارضه ومطالعه .

وقد احتج لهم «المرتضى» فى ذلك بقوله[1]: من شأن الشعراء أن يتصرفوا فى المعانى بحسب أغراضهم وقصودهم، إذا رأى أحدهم مدح شيء، قصد إلى أحسن أوصافه، فذكرها وأشار إليها حتى كأنه لا وصف له إلا ذلك الوصف الحسن، فإذا أراد ذمه. قصد إلى أقبح أحواله، فذكرها حتى كأنه لاشيء فيه غير ذلك، وكلٌّ مصيب بحسب قصده، ولهذا ترى أحدهم يقصد إلى مدح الشيب، فيذكر مافيه من وقار وخشوع، وأن العمر منه أطول وما أشبه ذلك، ويقصد إلى ذمه، فيصف مافيه من الإدناء إلى الأجل، وأنه أخمل الألون وأبغضها إلى النساء، وما أشبه ذلك.

وهذه سبيلهم فى كل شيء وصفوه، ولمدحهم موضعه، ولذمهم موضعه فمن ذم الوداع لما فيه من الإنذار بالفراق وبعد الدار، قد ذهب مذهباً صحيحاً، كما أن من مدحه لما فيه من القرب المحبوب، والسرور بالنظر إليه - وإن كان يسيراً - قد ذهب أيضاً مذهباً صحيحاً.

يقول البحترى فى كراهة الوداع يعتذر لأبى جعفر بن سهل المروزى:

الله جارك فى انطلاقك	تلقاءَ شامك أو عِراقك
لا تعذُلَنّى فى مسيرك	يوم سرت ولم أُلاقك
إنى خشيت مواقفاً	للبين تسفَح غرْب ماقك[2]
وعلمت أن لقاءنا	سبب اشتياقى واشتياقك
وذكرت مايجد المودِّ م	عند ضمك واعتناقك
فتركت ذاك تعمداً	وخرجت أهرب من فراقك

ويقول فى مدحه:

إن للبين نعمة لا تُؤَدَّى	ويداً فى تُماضر بيضاء

---

(١) آمالى المرتضى — ٤ — ١٦٧.

(٢) الغرب كنفم: عرق فى العين يسقى ولاينقطع، والدمع، ومسيله، أو انهلاله. والماق: مؤخر العين أو مقدمها.

حجبوها حتى بدت لفراق ... كان داء لعاشق ودواء
أضحك البينُ يوم ذاك وأبكى ... كلَّ ذى صَبْوة وسر، وساء
فجعلنا الوداع فيه سلاما ... وجعلنا الفراق فيه لقاء

وقال آخر:

جزى الله يوم البين خيرا فإنه ... أرانا - على عِلاّته - أمَّ ثابت

ومهما يكن، فهذا مذهب له أنصار من قديم الزمان.

وقد قيل للأصمعى: من أشعر الناس؟

قال: الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه، كبيراً، أو يأتى إلى المعنى الكبير فيجعله: بلفظه، خسيساً(١).

وقد قالوا: حسن البلاغة: أن يصور الحق فى صورة الباطل، والباطل فى صورة الحق(٢).

ومن صور البلاغة الرائعة: خطبة على — كرم — الله وجهه — فى مدح الدنيا، مغايراً لأمثاله فى ذمها. منها: إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار موعظة لمن اتعظ بها.

مسجد أحباب الله، ومصلَّى ملائكته، ومهبط وحى الله، ومتجر أوليائه، اكتسبوا منها الرحمة، وربحوا منها الجنة ...

وقوله: وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثى يعوده — فرأى سعة داره —: ما كنت تصنع بسعة هذه الدار فى الدنيا!! أما أنت إليها فى الآخرة كنت أحوج؟ وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة: تقرى فيها الضيف، وتصل فيها الرحم؟، وتُطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت بلغت بها الآخرة(٣).

وقد نظمها ابن أبى الأصبع(٤)، فمن ذلك قوله:

---

(١) العمدة - ٢ - ٤٦ - ٥٠.
(٢) المصدر السابق - ١ - ٦٥.
(٣) نهج البلاغة - ١ - ٥٢٢.
(٤) خزانة الأدب للحموى - ١٢٩.

دار زاد لمن تزوّد منها وغرور لمن يميل إليها

وقد مدح الحريرى الدينار وذمه(١) ، فمن الأول قوله :

أكرِم به أصفر راقت صفرته جوّاب آفاق ترامت سَفْرته

وقال فى ذمه :

تبّاً له من خادع مُماذق أصفر ذى وجهين كالمنافق(٢)

وقد غاير أبو تمام جميع الناس فى تفضيل التكرم على الكرم ، فقال :

قد بلونا «أبا سعيد» حديثاً وبلونا أبا سعيد قديما

فوردناه سائحاً وقليباً ورعيناه بارضاً وجميما(٣)

فعلمنا أن ليس إلا بِشق النفس صار الكريم يدعى كريماً

وهو مغاير لقوله على الطريقة المألوفة :

لا يتعب النائل المبذولُ همته وكيف يتعب عينَ الناظر النظر

وهو كقول بعض العصريين :

ومطبوع الندى يسخو بما يسخو ولا يدرى

ومن قول ابن الرومى فى تفضيل القلم على السيف :

إن يخدم القلمَ السيفُ الذى خضعت له الرقاب ودانت خوفته الأمم

فالموت ـ والموت لاشىء يعادله ـ مازال يتبع مايجرى به القلم

كذا قضى الله للأقلام مذ بُريت أن السيوف لها مذ أرهفت خدم

وقال أيضاً :

لعمرك ما السيف سيف الكمى بأخوف من قلم الكاتب

له شاهد إن تأملته ظهرت على سره الغائب

---

(١) المقامة الدينارية .

(٢) تباله : هلاكا . والمماذق : الذى يشوب الود بالكدر .

(٣) البارض : أول ما يظهر من نبات الأرض . والجميم : النبات الكثير، أوهو مانهض وانتشر منه .

أداة المنية فى جانبيه ... فمن مثله رهبةُ الراهب
ألم تر فى صدره كالسنان ... وفى الرِّدف كالمرهَف القاضب

وقال محمد بن يحيى الصولى من قصيدة وجه بها إلى أبى على محمد بن على:

فى كفه صارم لانت مضاربه ... يسوسنا رغباً إن شاء أو رهبا
السيف والرمح خدام له أبدا ... لايبلغان له جِـدّاً ولا لعبا
تجرى دماء الأعادى بين أسطره ... ولا يُحس له صوت إذا ضربا
فما رأيت مداداً قبل ذاك دماً ... ولا رأيت حساماً قبل ذا قصَبا

وقال أبو تمام :

إذا ما امتطى الخمس اللِّطاف وأفرغت
عليه شِعاب الفكر وهى حوافل(١)
أطاعته أطراف القنا وتقوضت
لنجواه تقويض الخيام الجحافل

وقال آخر :

قوم إذا أخذوا الأقلام من غضب ... ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ... مالم ينالوا بحد المشرفيات

وقال البحترى يمدح ابن ثوابة :

معظم لم يزل تواضعه ... لآمليه يزيد فى عظمه
ما السيف عضبا يضىء رونقه ... أمضى على النائبات من قلمه

وقال آخر :

إذا افتخر الأبطال يوماً بسيفهم ... وعدّوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلمَ الكتّاب فخراً ورفعة ... مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

وقال أبو تمام يغاير ذلك :

(١) الخمس: اللطاف كناية عن الأصابع. والشعاب بالكسر: ماعظم من سواقى الأودية واحده :شعبة ، وحوافل: مليئة .

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حدّه الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب[1]

وقال المتنبى :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى ... المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بها أبداً قبل الكتاب بنا ... فإنما نحن للأسياف كالخدم

وقال مهيار يمدح أبا القاسم بن المسلمة وزير القائم العباسى :

بيض القراطيس كالبيض الرقاق له ... وفى اليراع غنى عن أسمر خطِل

وقال فى مدح آخر :

يطاول بالأقلام ماتبلغ القنا ... ويفعل أفعال الظبا بالمخاصر

وقال أيضاً :

إذا خاضت النقس أقلامه ... كفين الذوابلَ خوض الدماء

وقال : فى لفظه والخط مندوحة ... من صارم الحدين ذلاق

وقال المركيز منتروز[2] :

إذا كان غيرى يخاف القدَر ... وقلّت فعال عليها قدَر
فمجدك من ذا اليراع الأغر ... وصيتك من ذا الحسام الأغر

فسوى بينهما .

وقد قال فيه ابن أبى الإصبع :وهو تغاير المذهبين :

١ — إما فى المعنى الواحد ، بحيث يمدح إنسان شيئاً أو يذمه ، أو يذم مامدحه غيره وبالعكس .

٢ — وإما أن يفضل شيئاً على شىء ، ثم يعود فيجعل المفضول فاضلا والفاضل مفضولا .

من ذلك قوله تعالى : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استُضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسَل من ربه ،قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون . »

---

(١) الصفائح : السيوف العريضة ؟ واحدتها ؛ صفيحة .

(٢) السعادة والسلام للوردافرى — ٥٤ .

فغاير بعضهم بعضاً فى باب الطاعة والعصيان ، بعد التغاير فى مقالهم واعتقادهم فى نياتهم ، وهذا هو مايغاير الإنسان فيه غيره .

وأما ما يغاير فيه نفسه ، فمنه قول قريش عن القرآن : « ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » إنكاراً منهم لغرابة أسلوبه ، وما بهرهم من فصاحته ، وملزوم هذا الكلام إقرارهم بالعجز عنه .

ثم غايروا أنفسهم فى وقت آخر ، فقالوا : « قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » .

ولو كان القولان فى وقت واحد ، لكان ذلك تناقضاً وهو معيب ، ولم يعدّ من المحاسن .

لكنه لوقوعه فى زمنين مختلفين ، ووقتين متباينين لا يعد من العيوب ، واعتدوه من المحاسن ، ولذلك سمى تغايراً لا تناقضاً .

وذكر ابن أبى الأصبع نوعا من التغاير ، وهو تغاير المعنى لمغايرة اللفظ ومثّل له بقوله تعالى : « ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » فإن ذلك غير قوله — سبحانه — فى سورة الإسراء . « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيّاكم » .

وسبب هذه المغايرة : أن الخطاب فى الآية الأولى للفقراء بدليل قوله: « من إملاق » فاقتضت البلاغة تقديم وعده للآباء المملقين بما يغنيهم من الرزق ، وتكميل المعنى بوعد الأبناء بعد وعد الآباء ، لتسكين الأنفس .

وفى الآية الثانية ؛ كان الخطاب لأبناء بنى إسرائيل بدليل قوله — عز وجل — : « خشية إملاق » فإنه لايخشى الفقر إلا الغنى ، لأن الفقير فقره واقع ، فاقتضت البلاغة تقديم وعد الأبناء بالرزق ، ليشير هذا التقديم إلى أنه — سبحانه— هو الذى يرزق الأبناء ليزول توهم الأغنياء : أنهم بإنفاقهم

على الأبناء يصيرون إلى الفقر بعد الغنى ، ثم كمل الطمأنينة بوعدهم بالرزق بعد وعد أبنائهم[1].

وباب التحسين والتقبيح مدخل واسع ممهد لتهذيب الطباع ، وصقل العواطف ، وتصفية الأذواق ، وتربية النفوس على الفضيلة ، وقدعها عن الرذيلة ، وتحبيبها فى الخير ، وتبغيضها فى الشر ، وحثها على كل عمل صالح نافع ، وملئها بالحماسة والإقدام،وحب التضحية والفداء ، والوقوف فى وجه الظلم ، ومجابهة الموت بلا خوف ولا وجل .

انظر وقع هذا البيت على ضمير المرائى، الذى يأمر بالخير ولا يعمل به:

وغير تقى يأمر النـاس بالتقى ... طبيب يداوى الناس وهو مريض

أو قول أحمد بن يوسف :

وعامل بالفجور يأمر بالبر ... كهاد يقـــود بالظلم

أو كطبيب قد شفه سقم ... وهو يداوى من ذلك السقم

ياواعظ الناس غيرَ متعظ ... ثوبك طهرْ أوْلا فلا تلم

وقدِّر أثر هذا الشعر فى نفس غافل لاه ، لايجرى ذكر هاذم اللذات[2] على لسانه ، ولا يخطر له على بال — وهو مما نسب إلى ابن عباس — :

الموت باب وكلُّ الناس داخله ... ياليت شعرىَ بعد الباب ماالدار؟

الدار جنة عـدن إن عملت بما ... يرضى الإله وإن خالفت فالنار

وهل تكسر من شرة الجشع الحريص إلى جمع المال من الحلال والحرام وتحسم مادة تكالبه على زهرة الدنيا بأحسن من هذا القول؟:

انظر إلى لاعب الشِّطرنج يجمعها ... مغالياً ثم بعـــد الجمع يرميها

كالمرء يكدح للدنيـا ويجمعها ... حتى إذا مات خـلاها وما فيها

---

(١) بديع القرآن « مع التصرف » — ٨٢ .

(٢) الهادم القاطع ، كناية عن الموت .

وهل تكفُّ شهوة النهم الرغيب[1]، الحوتى الالتقام ، الفيلى الالتهام ، بأفضل من هذا الشعر ؟ :

يا آكلا ماالشتهاه وشاتم الطب والطبيب
ثمار ماقد غرست تجنى فانتظر السقم عن قريب
يجتمع الداء كل يوم أغذية السوء كالذنوب .

وهل كان الشاب المصرى يؤثر اللصوق بأرضه ، حتى ليكره التوظف فى غير مسقط رأسه ، ويعد غيره من بلاد مصر ديار غربة ، فضلا عن الهجرة إلى أكناف الأرض الواسعة ، كما يفعل الإنجليز أو اليونان أو أشقاؤه السوريون واللبنانيون ، لو أنه غذى فى صغره بمثل قول ابن منير الطرابلسى :

وإذا الكريم رأى الخمول نزيلَه فى منزل فالحزمُ أن يترحلا
كالبدر لما أن تضاءل جدّ فى طلب الكمال فحازه متنقلا
فارْق ترْق كالسيف سُلّ فبان فى متنيه ما أخفى القراب وأخملا

وهكذا يمكننا بتحسين الشىء أو تقبيحه ، أن نحمل النفوس على مانريد بتهييج مشاعرها ، وإلهاب عواطفها ، وبعث وجداناتها ، فتنطلق إلى الشأو المرسوم كالسهم المرسل لايلوى على شىء .

***

(١) الرغيب : واسع البطن .

الفصل الخامس

التوشيع

التوشيع فى اللغة[1]: إعلام الثوب: أى أن تجعل له علما . وبُردموشّع: ذو رقوم وطرائق .

وقيل : التوشيع : لفُّ القطن بعد ندفه ، أو أن يُدار باليد على الإبهام والخنصر ، فيدخل فى القصَبة .

وقال ابن دريد : التوشيع : رقم الثوب بعلَم ونحوه ، ووشّع القطن: لفه بعد الندف ، ووشع الغزل : لفه على القصب للنسيج ، ونسَج الثوب بالوشيع والوشائع : أى بهذا القصب الملفوف عليه .

وقيل الوشائع : كُبَب من ألوان الخيوط : كبة حمراء ، وأخرى صفراء ، الواحدة : وشيعة .

ويقول الفيومى : الوشيعة : الطريقة فى البرد .

وذهب العلوى إلى أن اشتقاق التوشيع : من توشيع الشجرة ، وهو : تفريع أصلها .

وزاد على ذلك أنه يقال له : التوسيع بالسين المهملة ، فاشتقاقه : من قولهم: وسع فى حفر البئر : إذا فسح فيه « بالتشديد » ومنه فسّح فى المجلس « بالتشديد » أيضاً : إذا وسع لمن يجلس فيه . وعرفه- على الاسم الأخير- بقوله: هو عبارة عن أن يأتى المتكلم بمثنى يفسره بمعطوف ومعطوف عليه. وذلك: من أجل أن التثنية أصلها العطف ، فيُوسّع الاسم المثنى بما يدل على معناه ، ويرشد إليه على جهه العطف[2].

---

(١) معجمات اللغة المختلفة .   (٢) الطراز ــ ٣ ــ ٨٩ .

وفى اصطلاح البلغاء : أن يأتى الشاعر أو الناثر فى حشو العجز من كلامه باسم مثنى ، ثم يأتى باسمين مفردين ، هما : عين ذلك المثنى ، يكون الآخر منهما قافية بيته، أو سجعة كلامه ، كأنهما تفسير لما ثنّاه[١] .

وأخصر من ذلك وأسهل وأبين : ماذكره المحبّى[٢]، وهو : أن يؤتى بمثنى مفسّر باسمين ، ثانيهما معطوف على الأول ، كقوله — صلى الله عليه وسلم — : « الخمر من هاتين الشجرتين : النخلة والعنب » .

وقد يفسر المثنى بمفرد مضاف إلى متعدد — كما ذكر العلوى — كقول البحترى :

ومتى تُساهمنا الوصالَ ودونَنا   يومان : يوم نوى ، ويوم صدود[٣]

وقد يؤتى بمثنيين ومثنيين ثم بأربع مفردات: اثنين للأولين ، واثنين للآخرين ؛ كالحديث : « أحلّت لنا ميتتان ودمان : السمك ، والجراد ، والكبد والطّحال » .

وقد يأتى المثنى مضافا، كقولهم: ابنا سمير : الليل والنهار ؛ لأنه يُسمَر فيهما ، وقيل الغداة والعشى ، وابنا الفواطم : الحسن والحسين .

والفواطم: فاطمة الزهراء أمهما ، وفاطمة بنت أسد أم « على » جدتهما، وفاطمة بنت عبد الله بن عِمران بن مخزوم جدة النبى لأبيه .

وأبنا قَيْلة : الأوس والخزرج ، وقيلة أمهم .

وابنا نزار : ربيعة ومضر . وابنا وائل : بكر وتغلب . وفعلا المدح : نعم وبئس ، وألحق بهما ساء وحبذا . وجناحا الدنيا : البصرة والكوفة . وملكا بابل : هاروت وماروت . وملكا الشعر : امرؤ القيس وأبو فراس الحمدانى . وقَرنا الحمار : الكذب والباطل ، لأن الحمار لاقرن له .

---

(١) حسن التوسل — ٧٤ — خزانة الأدب للحموى — ٢١١ — نهاية الأرب — ٧ — ١٤٨ — بتصرف قليل.

(٢) جنى الجنتين — ١٦ .

(٣) ساهمه الشيء : قاسمه إياه .

وقد يأتى المثنى مضافا إليه ، كقولهم : أبو العلمين : العَلم الأسود والعلم الأبيض . ويعنون: القطب ابن الرفاعى، فقد كان له علمان كذلك.

وحدّ الزمانين : الماضى والمستقبل . ويعنون بحدهما : الزمن الحاضر، لأنه يفصل بينهما . وذو الشرفين : شرف الأدب ، وشرف النسب . وذو القلمين : ديوان الخراج ، وديوان الجيش ، ويعنون به : على بن سعيد بن كَشنداجيق ، لأنه كان يتولاهما ، أو لأنه كان يكتب بالعربية والعجمية .

وذو الكفايتين: كفاية أمور الدولة، وكفاية أمور الجيوش،ويعنون به : أبا الفتح بن أبى الفضل العميد ، لأنه كفى ركن الدولة البويهى أمرهما . وذو النورين : السيدة رقية، والسيدة أم كلثوم بنتا الرسول — عليه الصلاة والسلام — وقد لقب عثمان — رضى الله عنه — بذلك ، لأنه تزوج بهما على التعاقب .

وقد يأتى بعد الاسمين المفسرين للمثنى : اسمان آخران مفسران لهما ، كقول بعض العصريين :

عيدان :عيد هدى ،وعيدسعود فطر الصبا ، وغُرة المولود

وقد ذهب عبد الرحيم بن شيث القرشى فى التوشيع مذهبا آخر،فقال : هو أن يستعمل الكاتب فى كلامه كلمة ، يقتضى لفظها بمجرده فى لغة العرب معنيين فصاعدا .

ثم يبنى بعدها فصلا ، ويأتى بعده بالفصل الذى تقتضيه تلك الكلمة، كقولك : إن فلانا يميل إلى الخير وإتيانه ، وعن الشر واستحسانه .

فلفظة « يميل » تحتمل أن يكون إلى الشىء وعنه[1].

وهو فى ذلك يخالف الجمهور مخالفة واسعة .

وإذا وقع المثنى فى أول الكلام ، أو آخره ، يحسن أن يسمى مطرّف التوشيع ؛ مثال الأول : قول ابن هانىء الأندلسى :

المدنفان من البرية كلها جسمى ، وطرف بابلىّ أحور[2]

---

(١) معالم الكتاب — ٦٨ — إلى ٨٥ (٢) بابلى: منسوب إلى بابل ،بلد السحر والخمر .

ومثال الثانى : قول ابن الرومى :

أجْـنت لك الوجدَ أغصانٌ وكثبان فيهن نوعان : تفاح ورمان[١]

وقول المتنبى :

إذا صرف النهار الضوء عنهم دجا ليلان : ليــل والغبار

وقول عبد المطلب :

من كل وضاح المحيا عمره يومان : يوم ندى ويوم طعان

ومثال ما يأتى فيه المثنى وسط الكلام قول شوقى :

بأيديهم نوران : ذكر وسنــة فما بالهم فى حالك الظلمات

وقول حافظ فى ملهى الأزبكية :

كم وارث غض الشباب رميته بغرام راقصة،وحب هَلوك[٢]

ألبسته الثوبين فى حاليهما تيه الغنى ، ودلة المفــلوك[٣]

وقد جمع محمود غنيم بين التوشيع وسط البيت وآخره فى قوله — يرثى المرحوم مصطفى عبد الرازق باشا :

طوى موتك اثنين: المروءةَ والندى وأبكى فريقين: الأحبةَ والعدا

واشتقاق التوشيع عند الحلبى والحموى والنويرى من الوشيعة ، وهى الطريقة الواحدة فى البرد المطلق .

فكأن الشاعر أهمل البيت إلا آخره ، فإنه أتى فيه بطريقة تعد من المحاسن[٤].

وهذا تعليل للتسمية غير مقبول ، وهو يخالف المفهوم من معنى التوشيع ،لأن التوشيع لا يختص بآخر الثوب ، إذ هو غزل من اللحمة[٥] ملفوف ، يجره الناسج بين طاقات السدى[٦] عند النِّساجة .

وقال ذو الرمة :

به ملعب من مُعصفات نسجنه كنسج اليمانى بُردَه بالوشائع[٧]

وقال آخر :

كنسج الحميرىّ برود عَصْب يرد على جوانبها الوشيعا[٨]

(١) يريد بالأغصان والكثبان : القدود والأعجاز ، وبالتفاح والرمان : الخدود والنهود .
(٢) الهلوك كصبور: الفاجرة المتساقطة على الرجال. (٣) المفلوك: الفقير البائس، تسمية فارسية .
(٤) حسن التوسل — ٧٤ — خزانة الأدب — ١١ . نهاية الأرب — ٧ — ١٤٨
(٥) لحمة الثوب بالفتح والضم: ماينسج عرضاً (٦) السدى بفتح السين: مامد طولا فى النسج.
(٧) العصب :ضرب من البرود. (٨) المعصفات: الرياح الشديدة .

ولهذا خطئوا أبا تمام فى قوله :

شهدت لقد أقوت مغانيكمو بعدى   ومحّت كما محّت وشائع من بُرد[١]

لأنه جعل الوشائع حواشى البرد ، أو شيئاً منها ، وليس الأمر كذلك[٢].

فالشاعر لم يهمل البيت إلا آخره — كما قالوا — وكذلك الموشّع « بكسر الشين المشددة » لم يهمل البرد إلا آخره .

وإنما سر التسمية : التشابه فى أن كليهما وشّى نسجه بالوشائع ، وهى هذه الرقوم الخاصة .

ويعد التوشيع من بدائع الحلى إذا وقع موقعه ، ورفد فيه الطبع القوى الصنعة المحكمة .

قال الثعالبي يمدح أبا الفضل الميكالى[٣] :

بحران : بحر فى البلاغة شابه   شعرُ الوليد، وحسن لفظ الأصمعى[٤]

وترسّل الصابى يزين علوه   خطٌّ ابن مقلة ذى المحل الأرفع

كالنّور أو كالسحر أو كالبدر أو   كالوشى فى برد عليه موشع

وليست التثنية شرطا فيه ، وإنما هو الغالب .

قال محمد بن وهيب[٥] :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها   شمس الضحا وأبو إسحاق والقمر

وقال ابن هانئ الأندلسى :

والمشرقات النيّرات ثلاثة :   الشمس والقمر المنير وجعفر

---

(١) أقوت : خلت . ومحت : بليت.

(٢) الموازنة بين الطائيين — ١٧١

(٣) مقدمة يتيمة الدهر — ١ — س .

(٤) الوليد : البحترى .

(٥) ديوان المعانى — ١ — ٢٨ . وأبو إسحاق : كنية المعتصم العباسى .

وقال غانم المالقى :

ثلاثة يجهل مقـــدارها الأمن والصحة والـقوت

وقال شاعر :

ثلاثة تذهب عنك الحزَن الماء والخضرة والوجه الحسن

وقال العسكرى :

لم يزل للورى ثلاث شموس وجهك المستضيء والقمـران

وفى المثل : أفسد الناس الأحامرة : الخمر واللحم والذهب والزعفران .

ومن أمثلته النثرية البالغة ذروة البلاغة : الأحاديث الشريفة : « يشيب ابن آدم وتشِب معه خصلتان : الحرص ، وطول الأمل » . « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال » .

« لايزال الكبير شابا فى اثنتين : حب المال ، وطول الأمل » .

« خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق »

ومن الحكم المأثورة : دار عدوك لأحد أمرين : لصداقة تؤمنك ، أو فرصة تمكنك .

الصبر : صبران : صبر عما تحب ، وصبر على ما تكره ، والرجل من جمع بينهما .

أمران لا ينفكان عن الكذب : كثرة المواعيد ، وشدة الاعتذار .

ليس فى ثلاث حيلة : فقر يخالطه كسل ، وخصومة يخامرها حسد ، ومرض يمازجه هرم .

ثلاثة تجب مداراتهم : المسلّط والمريض والمرأة .

ثلاثة يعذرون على سوء الخلق : المريض والمسافر والصائم .

وكان أبو عبد الله المحاسبي الزاهد يقول : فقدنا ثلاثة أشياء : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الأمانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء .

ومما جاء متتابعا فى الشعر : — ما قال فيه ابن رشيق : ومن جيد ماسمعته لمحدَث ، وأظنه لابن الرومى فى عبيد الله بن سليمان بن وهب ، ورأيت من

يرويه لأبى الحسين : أحمد بن محمد الكاتب[١] :

إذا أبو قاسم جادت لنا يده ... لم يُحمد الأجودان: البحر والمطر

وإن أضاءت لنا أنوار غرته ... تضاءل الأنوران: الشمس والقمر[٢]

وإن مضى رأيه أوحدُّ عزمته ... تأخر الماضيان: السيف والقدر

من لم يكن حذِراً من حدّ صولته ... لم يدر ما المزعجان: الخوف والحذر

ينال بالظن ما يعيا العيان به ... والشاهدان عليه : العين والأثر[٣]

وقد سطا عز الدين الموصلى فى بديعيته على البيت الأول ، فقال :

ومَن عطاياه روض وشّعته يد ... تُغنى عن الأجودين : البحر والديم

وقول ابن سارة الشنترينى الأندلسى فى الزهد[٤] :

يامن يُصيخ إلى داعى السقاة وقد ... نادى به الناعيان : الشيب والكبر

إن كنت لا تسمع الذكرى ففيم ثوَى ... فى رأسك الواعيان: السمع والبصر

ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل ... لم يهده الهاديان : العين والأثر

لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك ... الأعلى ولا النيران : الشمس والقمر

ليرحلن عن الدنيا ـــ وإن كرها ... فراقها ـــ الثاويان : البدو والحضر

وقول الشيخ حنيف الدين المرشدى[٥] :

أُمسى وأصبح من تذكاركم وصبا ... يرثى لىَ المشفقان : الأهل والولد

قد خدّد الدمع خدى من تذكركم ... واعتادنى المضنيان: الوجد والكمد[٦]

وغاب عن مقلتى نومى لبعدكم ... وخاننى المُسعدان : الصبر والجلد

(١) العمدة ـ ٢ ـ ١١٢ وفى الصناعتين ـ ٤١٢ نسبها العسكرى إلى أحمد بن أبى طاهر. وفى زهر الآداب ـ ٤ ـ ١١٢ نسبها الحصرى لأبى الحسن أحمد بن محمد الكاتب . وفى خزانة الأدب ـ ٢١١ نسبها الحموى إلى ابن الرومى وجاء البيت هكذا .

أبو سليمان إن جادت لنا يده . . .

(٢) فى بعض الروايات : النيران .

(٣) العين : ذات الشىء ، والحاضر من كل شىء . والأثر : بقية الشىء .

(٤) قلائد العقيان للفتح بن خاقان ـ ٢٧٨ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ـ ١ ـ ٤٧٣ .

(٥) سلافة العصر ـ ١٠٣ .

(٦) المسعد : المعين .

لا غَرْوَ للدمع أن تجرى غَواربه ... وتحته المظلمان : القلب والكبد
كأنما مهجتى شِلْو بمسبعة ... ينتابها الضاريان: الذئب والأسد(١)
لم يبق غير خفىِّ الروح فى جسدى ... فدى لك الباقيان : الروح والجسد

وليست هذه القطعة من الشعر الجيد ، ولكن أثبتناها لنضعها تحت مجهر النقد ، وقد وصف الحموى هذه الأبيات: بأنها عامرة بالمحاسن فى هذا البَاب. ثم استدرك فقال : غير أن أهل النقد الصحيح ماسكتوا عن تقصير فى البيت الأول حيث قال فيه :

« يرثى لى المشفقان : الأهل والولد »

فإن شفقة الأهل والولد معروفة ، والمشفق إذا رثى لشكوى أهله ، أو الولد إذا رثى لشكوى والده ، كان ذلك من تحصيل الحاصل .

والمراد هنا: أن يقول: رثى لى العدو ، ورق لى الصخر ، وأشباه ذلك(٢).

وهذا نقد حسن ، ولكن عيبه : أنه وقف عند هذا البيت وحده ، وكان يجب أن ينسحب على أبيات أخر ، فلامعنى لوصف « القلب » و « الكبد » بالظلام ، لأن هذا ضد المتعارف عندهم فى هذا الموطن ، فقلب العاشق يصور دائماً ، بأنه أبيض متوهج منير ، لامتلائه بالحب والعطف والحنان على غيره من القلوب ، لأنه جرب المحنة ، وخبر البلاء !

وهذا العباس بن الأحنف يقول :

يرقُّ قلبى لأهل العشق أنهمُ ... إذا رأونى وما ألقى يرقونا

ويقول المتنبي — وهو من المكثرين فى هذا المعنى — :

وعذلت أهل العشق حتى ذقته ... فعجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتهم وعرفت ذنبى أننى ... عيرتهم فلقيت منه مالقوا

ويقول :

لا تعذُل المشتاق فى أشواقه ... حتى يكون حشاك فى أحشائه

---

(١) الشلو بالكسر ، والشلا بالفتح : العضو ، والجسد من كل شىء . والمسبعة : الأرض الكثيرة السباع .

(٢) خزانة الأدب للحموى — ١ ٢١١ .

إن القتيل مضرّجا بدموعه   مثل القتيل مضرجا بدمائه

ويقول سعيد بن سلْم — وقد قيل له : إن ابنك شرع فى الرقيق من الشعر — دعوه ينظُف ويظرُف ويلطف [١] .

يريد لعله يتصف بالعشق ، فيصير إلى هذه الصفات .

وقد يبلغ من رقة المحب المخلص : أن يتمنى لمحبوبه المعافاة من الحب شفقة عليه ، ورحمة به مما يكابده هو ؛ فيقول البحترى :

أعيذكِ أن تُمنَىْ بشكوى صبابة   وإن أكسبتنامنك عطفا على الصب

ويقول شاعر عصرى [٢] :

وقى الله « ليلى » أن يُلِمّ بها الهوى   وإن سامحت تحت الهوى بوصال

إذا رحتُ من ليلى سقيما وعُوفيتْ   فلست أبالى السُّقم ، لست أبالى

كفانىَ من حبي لها وصبابتى   بها : أنها باتت عروس خيالى

ولهذا المعنى سمعنا الشاعر يقول :

ولقد ذكرتك والظلامُ كأنه   يوم النوى ، وفؤادُ من لم يعشق

فقلب التشبيه مبالغة .

وذلك ، لأنه لما كانت الاوقات التى تحدث فيها المكاره : توصف بالسواد ، فيقال : اسودّ النهار فى عينى ، وأظلمت الدنيا على ، جعل يوم النوى كأنه أعرف وأشهر بالسواد من الظلام ، فشبهه به ، ثم عطف عليه « فؤاد من لم يعشق » تظرفاً وإتماماً للصفة .

وقد جرت العادة: أن الإنسان الغزِل يدعى القسوة على من لم يعرف العشق ، والقلبُ القاسى يوصف بشدة السواد ، فصار هذا القلب عنده أصلا فى الكدرة والسواد ، فقاس عليه ، وعلى هذا قول العامة : ليل كقلب المنافق أو الكافر .

وكان فى الإمكان أن يبرأ من العيب لوقال : « الأبيضان : القلب

---

(١) تزيين الأسواق لداود الإنطاكى — ١١ — زهر الآداب — ٣ — ٨٩ .

(٢) أغاريد السحر — ٣٢٥ .

والكبد » على هذا المعنى المتقدم ، وقد جاء فى ذلك : قول ابن أبى مرة المكى — كما رواه ثعلب — :

إن وصفونى فناحل الجسد أو فتشونى فأبيض الكبد

أو لو قال : الأكرمان : فقد جاء وصفهما بذلك . أو « الذائبان » أو «المدنفان» أو حتى «الأشيبان» على معنى شيبهما من شدة الوجد ، وبرح الصبابة ، وقد جاء هذا فى قول أبى تمام :

شاب رأسى وما رأيت مشيب الرأس إلا من فضل شيب الفؤاد

وكذاك القلوب فى كل بؤس ونعيم طلائعُ الأجساد

كما جاء فى قول المتنبى[1] :

إن لم يشب فلقد شابت له كبد شيبا إذا خضبته سلوةٌ نصَلا[2]

وفى قول ابن زيدون[3] :

فشبت وما للشيب وَخط بمفرقى ولكن لشيب الهم فى كبدى وَخط[4]

ولا عبرة بمآخذ النقاد على هذه الاستعارات[5] ، فقد أخطئوا من حيث أصاب الشعراء ، فالقلب يشيب ، والكبد تهرم ، وهما يوصفان بالرقة والغلظ ، والنقاد كثيراً ما يدق عليهم تصور إحساس الشعراء ، وإدراك ما يدركونه من المعانى العاطفية .

وقال : « يتنابها الضاريان : الذئب والأسد » .

والضراوة ليست قصرا على هذين الوحشين ، فالضوارى كثيرة العدد ، وقد يقال : إن الأسد لابد منه لأنه قافية البيت ، وسيد الوحوش ، فذكره يفيد المبالغة ، ولكن لماذا خص الذئب بالذكر ، وهو ليس أضرى من النمر

(١) ديوان المتنبى شرح البازجى — ١٢ .
(٢) نصل : ذهب خضابه ؛ يريد : أن شيب كبده إذا خضبته سلوة لم يثبت خضابها ، لأنه سرعان مايعود إليه الشوق .
(٣) من قصيدة يخاطب بها ولادة ، ويستعطف ابن جهور — قلائد العقيان — ٨٢ .
(٤) وخط الشيب : انتشاره .
(٥) من مآخذ القاضى الجرجانى على أبى تمام .

والفهد مثلا !! ثم ما هذه المهجة التى يبلغ من عظمها أن يجتمع عليها الذئب والأسد !!

ومادة الانتياب تفيد الرجوع مرة بعد أخرى ، ومن عادة الأسد — كما يقال — ألا يرجع إلى فريسة أكل منها ، كما أنه لا يأكل من فريسة غيره مهما نال منه الطوى ، ولو كانت مهجة هذا الشاعر المضحك !!

فهذا الوصف لغو وسخف ومبالغة بلغت حد الإحالة ! ولكن انظر كيف تهش النفس للوصف وتسيغه ، لأنه لا يجافى الطبيعة ، ولا ينبو عن الواقع فى قول أبى مرة المكى :

كأن قلبى إذا ذكرتكمو   فريسة بين ساعدىْ أسد

وقول عروة بن حِزام :

كأن قطاة عُلّقت بجناحها   على كبدى من شدة الخفقان

وقول المجنون :

كأن القلب حين يقال يُغدَى   بليلى العامرية أو يُراح
قطاة عزّها شَرَك فباتت   تجاذبه وقد علق الجناح(١)

وقول بعض العصريين (٢) :

مرابع غزلان تعفّت ولم تكن   سوى متعة الأرواح والسمع والبصر
نديمى بها «ليلى» وريقتها الطّلا   ورَوحى وريحانى الأحاديث والسَّمر
كأن فؤادى يُسعر الجمر فوقه   إذا عادت الذكرى ، ويُوخز بالإبَر

هكذا القلب أو الكبد حين تعودهما ذكرى الأحباب ، وهكذا . هما حين يوصفان بالخفوق أو بالالتياع .

وبيت الشاعر الأخير :

لم يبق غير خفى الروح فى جسدى .. ..

أقبح أبياته ، وأجمعها لضروب من المثالب !

فوصفه الروح بالخفاء : حشو وفضول لا داعى له ؛ فالروح لا تكون

---

(١) عزها : غلبها .
(٢) ألحان الأصيل — ٢٩٧ .

إلا خفيّة ، ولا ترى إلا بآثارها كالكهربى ، والله ــ سبحانه ــ يقول : «يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » .

وإذا كانت هذه الروح الخفية باقية فى جسده ــ كما صرح ــ فما الذى يشكوه ؟! وماذا يريد وراء ذلك ؟! أليس هذا يساوى قوله : إنه حى يسعى ويضطرب كسائر الناس الذين عافاهم الله من محنة الغرام .

وقد نسلم له بالعشق مع بقاء روحه التى تشبه روح القطاط ، فليس من الضرورى أن يموت الصب ــ وإن برّح به الهوى ــ ولكن ما معنى بقاء جسده فى قوله :

فدى لك الباقيان : « الروح والجسد »

أما كفاه أن تبقى له روحه حتى يضم لها بقاء جسده ! وكيف يتسق هذا لمن يزعم أنه محب ولهان ، وأقل ما يذكره المحبوب فى هذا المقام : نحول الجسد بل فناؤه ؟!

وذلك كقول المجنون(١) :

ألا إنما أبقيت يا أم مالك   صدًى أينما تذهب به الريح يذهب (٢)

وقول بشار :

إن فى بردىّ جسما ناحلا   لو توكأت عليـــه لانهدم

وقول نصر :

ضنيت حتى صرت لو زُجّ بى   فى مقلة النائم لم ينتبـــه

وقول ابن العميد ــ وقد أخذه من سابقه ــ :

لو أن ما أبقيت من جسدى قذى   فى العين لم يمنع من الإغضاء

وقول ابن عبد ربه :

لم يبق من جثمانه   إلا حُشاشة مبتئس
قد رق حتى ما يُرى   قد ذاب حتى ما يُحَس

(١) الأغانى ــ ٢ ــ ٢٠ .
(٢) أم مالك : كنية ليلى العامرية .
(٣) يتيمة الدهر ــ ١ ــ ١٠٢ .

وقول المتنبي — وهو ممن أكثروا فى هذا المعنى وغالوا فيه — :

روح تردد فى مثل الخلال إذا أطارت الريحُ عنه الثوبَ لم يَبِن(١)
كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وقوله :

وشكيتى فقدُ السَّقام لأنه قد كان لما كان لى أعضاء

وقوله :

حُلْتِ دون المزار فاليومَ لوزر ت لحال النحول دون العناق

وقوله :

دون التعانق ناحلين كشكلتىْ نصب أدقَّهما وضمَّ الشاكل(٢)

وقوله :

ولو قلم ألقيتُ فى شقّ رأسه من السقم ماغيرت من خط كاتب

فهذا الشاعر حينما يقرر : أن جسده باق ، ولا يتلطف بأن يصفه : أنه سقيم أو نحيل — ولوادعاه — ينادى على نفسه : بأنه خلو من تباريح الصبابة ولواعج الغرام، وهو فى هذا يخالف مذاهب العشاق قديماً وحديثاً !! .

وقد رأينا بعض المغرمين — حينما رأى جسمه صحيحاً معافى بخلاف ما جرت به العادة — اخترع لذلك علة طريفة ، تبرئه من جناية السلو ، وتدرأ عنه سهام اللوم ، فقال :

وقائلة :ما بال جسمـك لا يُرى سقيما وأجسام المحبين تسقَم
فقلت لها : قلبي لجسمىَ لم يبُح بحبى ، لجسمى بالهوى ليس يعلم

فلم يبق بعد ذلك ، إلا أن تكون هذه الأبيات المتقدمة خالية من المحاسن ، لا كما رآها « الحوى » عامرة بالمحاسن !! .

---

(١) تردد . يجوز أن يكون فعلا ماضياً على أن الروح مذكر وهو الأكثر ؛ أو فعلا مضارعا على تأنيثها والأصل : تتردد فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

(٢) يصف نحوله ونحول محبوبته من الشوق ؛ فيشبههما بفتحتين دقق الكاتب رسمهما وقرب إحداهما من الأخرى .

ومن نظم ابن أبي الإصبع فى التوشيع قوله (١) :

بى محنتان مُلام فى هوى بهما يرثى لىَ القاسيان : الحب والحجر
لولا الشقيقان من أمنيّة وأُسا أودى بىَ المرديان:الشوق والفكر(٢)

وقد قال عنهما : وما بشعر قلته هنا من بأس (٣) .

وهذا يشعر باستحسانه لها ! .

ويقول الحموى :رأيت فى حاشية على هذين البيتين بخط رفيع : رحم الله الشيخ ! لوقال : «الشوق والسهر » لكان أتم وأحسن .

ولا مرية فى صواب هذا الرأى ، ولكن فات هذا الناقد : أن الشعر كله لا يصلح بهذا الترقيع ، لأنه فاسد من الأساس ، فهو ركيك النسج ، واهن التركيب ، متكلف الألفاظ ، غامض المعنى ، خال من البهجة والرُّواء ، وأحسن مايقال فيه : إنه نظم عالم فقيه لا أديب ذوّاقة ، ترى : ما هما «المحنتان مثلا ؟ولم لم يقل : بى غادتان على نحو ماقال ابن عبد ربه :

أطلاب ذحلى ليس بى غير شادن بعينيه سحر فاطلبوا عنده ذحلى(٤)

وفى بعض الروايات : لى محنتان (٥) . والتركيب به أشد ضعفا .

ولا تكاد تحس رابطة بين المصراعين فى البيت الأول .

ثم ما هذا الخلط بين الحب والحبيب فى القسوة؟فالحبيب هو الذى يصح وصفه بها ، وأما الحب فيكفى أن يذكر ، فنتمثل فيه كل معانى الرحمة والعطف والشفقة ، وحسبنا أنه « الحب ».

ثم أى علاقة بين الحب الرقيق العذب ، وبين الحجر الخشن الغليظ فنقرنه به !.

---

(١) خزانة الأدب للحموى ــ ٢١١

(٢) الأسا : جمع أسوة بالضم والكسر فيهما ؛ والمراد بها : التأسى والصبر . وفى نهاية الأرب ــ ٧ ــ ١٤٩ : الشقيقان .

(٣) فى نهاية الأرب ــ ٧ ــ ١٤٩ : وما بما قلته فى هذا الباب من بأس .

(٤) الذحل كتحل : الثأر .

(٥) حسن التوسل للحلبى.

ثم من قال : إن الأمنية شقيقة الأسوة والصبر ؟ وأى جامع بينهما ؟ !
إن الأمنية : شقيقها الأمل والرجاء وما إلى ذلك .

ثم إن الشوق قد يردى المشوق ، ولكن من قال : إن الفكر يرديه ، ألا يصح أن يكون تفكره فى أشياء لذيذة سارة كاللقاء والوصال ، وإذن فالفكر على إطلاقه لا يتسق وصفه بأنه يردى ، وإنما يجب تقييده حتى يدل على المراد .

ومن ينعم النظر فى «التوشيع» يرى أنه : شعبة من الإطناب؛ فالغرض المعنوى منه : الإيضاح بعد الإبهام ، وأن أكثر أمثاله جاءت فى النثر ، وأنه — حينما يجىء منثورا يحسن دائما ، لأنه يقع موقعه الطبيعى لسهولة إيراده على هذا الوجه دون تعسف فى الصيغة ، وتصيد للمعانى الغامضة ، وجلب للروابط المفككة ؛ لأنه إما أن يأتى فى صورة حكم تسلم بها العقول ؛ كقوله — عليه الصلاة والسلام — : « صنفان من أمتى إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس : الأمراء والفقهاء » وقوله : « أهلك الرجال الأحمران : الخمر واللحم[1] » وقوله : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله[2] » . وقول على — كرم الله وجه — : شتان بين عملين : عمل تذهب لذته ، وتبقى تبعته ، وعمل تذهب مئونته ويبقى أجره[3] .

أو يكون كلمات واردة على صيغة التثنية حقيقة أو تغليباً ، تلقاها الناس خلفاً عن سلف ، وتعارفوها ، واستفاضت شهرتها لديهم .

فمن المثنى الحقيقى : الأمرّان : الفقر والهرم ، أو العرى والجوع . الكريمان : الحج والجهاد . الأجودان : البحر والمطر ، وكذلك الأغزران . الأصغران : القلب واللسان ، الأعزّان : الأهل والولد . الأعميان : السيل

(١) ديوان الصبابة — ٦٢ .
(٢) فتح المبدى — ٤٩ — ٥٢ ط الحلبى .
(٣) نهج البلاغة ٢١٥ — ٢١٦ .

والحريق . الحياتان : البقاء فى الدنيا ، والثناء الحسن بعد الموت . الأكرمان : الدين والعرض ، والقلب والكبد . البازيان : الأعشى وجرير . البحران : البحر الملح والبحر العذب ، أو بحر فارس وبحر الروم. الحرمان : مكة والمدينة . الحجران : الذهب والفضة ، وكذلك . الحبيبان . الحكمان : أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص . الحكيمان : أبو تمام والمتنبي . الثقلان : الإنس والجن . الأصفران : الزعفران والذهب ، أو الورس (١) والزبيب . السبطان : الحسن والحسين ، وكذلك الشهيدان ، والريحانان . الصادان : الصاحب والصابى . الميتتان : الحوت والجراد . الكريمتان : العينان . الكنزان : ملك الشام وفارس. القبلتان : الكعبة والمسجد الأقصى . المسجدان : مسجد مكة والمدينة . العذابان : السفر والبناء . المصران : البصرة والكوفة . الرمانان : الحلو والحامض . السكرتان : حب العيش وحب الجهل . الكاتبان : ملك الحسنات وملك السيئات . الرافدان : دجلة والفرات . السماكان : السماك الرامح والسماك الأعزل (٢) . الأطيبان : الأكل والنكاح ، أو النوم والنكاح ، أو التمر واللبن ، وقيل غير ذلك . الأعذبان : الطعام والنكاح. الأبيضان : اللبن والماء ، أو الشحم والبياض ، أو الخبز والماء ، أو الملح والخبز ، أو الماء والقمر ، وقيل غير ذلك . الأشهبان : عامان أبيضان ليس بينهما خضرة من النبات . الخافقان : المشرق والمغرب (٣) .

والمثنى الجارى على التغليب ، معدود من المجاز — كما صرح به ابن شريف الحسينى فى شرح الفوائد الضيائية — لأن اللفظ فيه غير مستعمل فى الموضوع .

ويغلَّب أحد المتجاورين والمتشابهين على الآخر : بأن يجعل الآخر مسمى باسمه ادعاء ، ثم يثنى ذلك الاسم قصدا إليهما جميعاً .

---

(١) الورس: نبات أصفر يشبه السمسم .

(٢) السماكان : نجمان نيران ، أو هما رجلا الأسد .

(٣) لأن الليل والنهار يخفقان فيهما .

ويجب تغليب الأخف إلا إذا كان الأثقل مذكرا .

وشرط ابن الحاجب أن يغلّب الأدنى على الأعلى ، كالقمرين ؛ فالقمر دون الشمس ، والعمرين ؛ فأبو بكر أفضل من عمر(١) .

وعكس الطيبي ، فشرط تغليب الأعلى .

وخالفهما السيوطي في شرح عقود الجمان، فقال : والذي نختاره خلاف قولهما ، بل يكون التغليب للأفضل وللأخف ولغير ذلك .

ويقول المبرد(٢) : تقول العرب : القمران ؛ تعني الشمس والقمر ، تفعل ذلك في الشيئين، إذا جريا في باب واحد : أي لمعنى غلب في الشيئين، كالنور في القمرين ، والنسل في الأبوين ؛ قال الفرزدق :

أخذنا بأطراف السماء عليكم ... لنا قمراها والنجوم الطوالع

يريد : الشمس والقمر ، لأنهما قد اجتمعا في قولك : النيران ، وغلب الاسم المذكر .

وقالوا : العمران لأبي بكر وعمر ؛ لأن عمر : اسم مفرد ؛ فآثروا الخفة هنا مع أفضلية أبي بكر ؛ قال جرير :

وما لتغلب إن عدوا مساعيهم ... نجم يضيء ولا شمس ولا قمر

ما كان يرضى رسول الله فعلهم ... والقمران : أبو بكر ولا عمر

وروى : والطيبان .

ثم يقول المبرد :ومن قال:العمران :عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز لم يصب ؛ لأن أهل الجمل نادوا بعلي بن أبي طالب — رضي الله عنه — : أعطنا سنة العمرين .

ومع ذلك روى أن قتادة : سئل عن عتق أمهات الأولاد، فقال : قضى العمران فما بينهما من الخلفاء بعتقهن : يريد عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز .

ومن أمثلة المثنى الجاري على التغليب : الأبوان : الأب والأم .

---

(١) هذا هو المشهور والأرجح ، ولا مانع أن يراد بالعمرين : عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز .

(٢) الكامل للمبرد ، ورغبة الآمل للمرصفي — ٢ — ١٣١

الأخوان : الأخ والأخت . الأبيضان : الشحم والشباب؛ لأن الشباب لا لون له . الأخضران : البحر والليل، غلب الليل؛ لأن البحر ليس بأخضر فى الحقيقة . الأصيلان : الغداة والعشى ، غلب العشى . الباكران: الصبح والمساء . البصرتان : البصرة والكوفة ، لأن البصرة أقدم ، الحيرتان : الحيرة والكوفة، لأن الحيرة أقدم . الرجبان: رجب وشعبان. الصفران : صفر والمحرم . العشاءان : المغرب والعشاء . المروتان : الصفا والمروة . المكتان : مكة والمدينة (١) .

وأما الشعر فقد وقع فيه فلتات ، والمطبوع منه لايجاوز المرة الواحدة ينفح بها الإلهام من غير طلب لها ؛ كقول الشاعر :

شيئان لو بكت الدماءَ عليهما   عيناى حتى تؤذِنا بذهاب
لم تبلغا المعشـــار من حقيهما   : فقد الشباب وفرقة الأحباب

فهذا كلام متسق النظم ، مطرد التعبير ، يشرّق بماء الطبع السمح ، تسوده نغمة حزينة هادئة تبعث الشجا ؛ لصدورها عن عاطفة صادقة ، فليس آلم للمرء ولا أشد عليه من فقد شبابه وفرقة أحبابه ! !

وسواء أكان الأحباب بمعنى الحبائب المعشوقات ، أو الخلطاء الأصفياء، فالمعنى واحد ، والرزءان متكافئان ! !

بل إن بعضهم يرى فراق الصديق أنكى من فراق الحبيب ، كما يقول بعض الشعراء :

فراق أخ يعطى المودة حقها   أضر وأنكى من فراق حبيب (٢)

ففقد الشباب جماع المصائب كما يقول ابن الرومى :

أرى المرء مذ يلقى التراب بوجهه   إلى أن يُوارَى فيه رهنَ المعاطب
وإن لم يُصب إلا بشرخ شبابه   لكان قد استوفى جميع المصائب

---

(١) انظر جنى الجنتين للمحبى ، وأدب الكاتب لابن قتيبة .
(٢) الأوراق للصولى — ١ — ١٦٣ .

ثم أتى المتنبي ، فبكاه قبل فقده ضنا به ، وحرصاً عليه فقال :

ولقد بكيت على الشباب ولِمَّتى مسودة ولماء وجهى رونق
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفنى أشرَق

أما فراق الأحبة ، فهو عندهم أخو الموت ، وفى ذلك يقول الأبيرد ابن المعذّر الرياحى — يرثى أخاه بُرَيدا — :

وكنت أرى هجراً فراقك ساعة ألا ، لا بل الموت التفرق والهجر

وقد أخذه أبو تمام فقال :

المـوت عنـدى والفرا ق كلاهما مالا يطاق(١)

وجعله المتنبى علة الموت فقال :

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

وحذا التّهامى حذوه فقال :

حازك البين حين أصبحت بدراً إن للبدر فى التنقل عذرا
فارحلى إن أردت أو فأقيمى أعظم الله للهوى فىّ أجرا
لا تقولى : لقاؤنا بعد عشر لست ممن يعيش بعدك عشرا

بل كثيراً ما نجدهم يقرنون فراق الشباب بفراق الحبيب أو الصديق ، لتلاقيهما فى فداحة الخطب !

يقول الأصمعى : أحسن أنماط الشعر : المراثى، والبكاء على الشباب !!(٢)

ويقول كثير عزة : ذهب الشباب فما أطرب ، وتولت « عزة » فما أنسب ، ومات « ابن أبي ليلى » فما أرغب (٣) .

ويقول الشبلى الزاهد :

مضت الشبيبة والحبيبة فانبرى دمعان فى الأجفـان يزدحمان
ما أنصفتنى الحادثات رميننى بمودعـين وليس لى قلبان

---

(١) الموازنة — ٩٨ — .
(٢) العقد الفريد — ٢ — ٤٧
(٣) ابن أبي ليلى : عمر بن عبد العزيز — رحمه الله — .

ويقول ابن نباته :

فقدت الهوى لما فقدت شبيبتى وأوجع مفقود : هوى وشباب

ويقول شوقى فى رثائه لإسماعيل صبرى :

ذهب الشباب فلم يكن رزئى به فوق المصاب بصفوة الألاف

والتوشيع فى الشعر السابق :

شيئان لو بكت الدماء عليهما . . . . .

لم يأت حسنه من دقة الصياغة فقط ، ولكن لصحة المعنى ، وصدق العاطفة ، وقوة الرابطة بين الاسمين المفسرين لمثناه : « فقد الشباب وفرقة الأحباب » .

وإنك لواجد هذا الحسن فى قول ابن المعتز :

سقتنىَ فى ليل شبيه بشعرها شبيهة خديها بغير رقيب

فأمسيت فى ليلين بالشعر والدجى وشمسين من خمرٍ وخد حبيب

فالشعر والدجى : ليلان بسوادهما ، وهذا الجامع حسن اقترانهما .

والخمر وخد الحبيب : شمسان بحمرتهما وتوهجهما ، فليس فى الجمع بينهما بعد ولا استكراه .

وزاد فى جمال الصورة وفتنتها التقاء الأضداد : ليلان وشمسان ! وكيف يجتمع الليل والشمس ؟ !

ألم يقل إمام العبد لمن سأله عن السبب فى عدم زواجه .

ياخليلى وأنت أى خليل لا تلم راهباً بغير دليل

أنا ليل وكل حسناء شمس فالتقائى بها من المستحيل

وقد سبقه فى ذلك سعيد الكاتب التُسْتَرى فقال :

قلت : زورى فأرسلت أنا آتيك بسُحْره

قلت : فالليل كان أخفى وأدنى مسره

فأجابت بحجة زادت القلب حسره

أنا شمس وإنما تطلع الشمس بكره

ولكن خلابة البيان، وسحر الافتنان، الذى يصور المحال ممكنا، والبعيد قريبا، ويؤلف بين المتنافرين، ويؤاخى بين المتعاديين ؟؟

ولا بأس — إذن أن نرى شمسا ساطعة، وليلا دامسا فى تصوير الشعر، بالرغم من نواميس الطبيعة ! ألم يقل المتنبى :

رأت وجه من أهوى بليل عواذلى   فقلن نرى شمسا وما طلع الفجر

وكرر هذا المعنى، فقال :

غصن على نَقَوَىْ فلاة نابت   شمس النهار تُقِلُّ ليلا مظلما(١)

لم تجمع الأضدادُ فى متشابه   إلا لتجعلنى لغرمى مَغنما(٢)

ومما أعجب به العلوى، ووصفه بحسن النظم، ورقة الجلد، والدقة وحسن الانتظام والفصاحة، قول بعض المتأخرين :

يامن له الأطيبان : المجد والكرم   ومن له الماضيان : السيف والقلم

ومن خلائقُه كالروض ضاحكة   فطبعه الأحسنان : الجود والشيم

أنت الجواد وأنت البدر لا كذب   يمحى بك الأسودان: الظُّلم والظلم

هنّاك ربك ما أولاك من نعم   لا مسّك المؤذيان : السقم والألم

وعادك الشهر أعواما مكررة   ما عظّم الأشرفان : البيت والحرم

وفى رأينا : أن الأبيات لا تستحق هذا الثناء المفرط، ففيها ثغرات تستوجب المؤاخذة :

لحسنٌ قوله : الماضيان : السيف والقلم ؛ فكلاهما يوصف بالنفاذ والمضاء، وكلاهما بعيد الأثر فى قيام الممالك وسقوطها، وكلاهما يخشى بأسه

---

(١) أى هى : غصن، وهى : شمس ؛ فهما خبران لمبتدأين محذوفين . والنقوان بفتح النون والقاف : مثنى نقا، وهو الكثيب من الرمل . وتقل : تحمل.

(٢) أراد بالأضداد : ماذكره فى البيت السابق من الأشياء التى شبهها بها، وبالمتشابه : شخصها الذى تشابهت أعضاؤه فى حسن الخلق وتناسبه : أى لم تجمع هذه الأوصاف المتضادة فى هذا الشخص المتشابه المحاسن، إلا لتجعلنى غنيمة لما يصيبنى من الغرم فى حبها .

ويرهب حده ، وتهاب صولته ، وكلاهما يسوّد صاحبه ، ويرفعه إلى أعلى الدرجات ، ويبلغه أقصى الغايات .

هذا إلى أنهما فى الأذهان مقترنان ، وإلفان متآلفان ، وصنوان لا يفترقان ، حتى جرت العادة من القديم أن تعقد بينهما المناظرات والمفاخرات ، والموازنات ، كما فعل ابن الوردى(١) ، والقلقشندى(٢) وابن نُباتة(٣) ، فضلا عما صاغه الشعراء فى تفضيل أحدهما على الآخر ، وهو جملة وافرة فى الشعر العربى .

وجميل قوله : الأسودان : الظلم والظلم .

فكلاهما : أسود ، فالظلام أسود حقيقة ، والظلم أسود مجازا ، وكلاهما شنيع بغيض مخوف ، يملأ النفس وحشة ورهبة وفزعا !

وبينهما جناس جميل خفيف غير متكلف ولا مجلوب : جناس فى الصورة الظاهرة والباطنة : فى اللفظ والمعنى .

وقد قويت بينهما الرابطة ، حتى لقد ذكرا مقترنين فى الآثار والشعر .

ففى الحديث : « الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وقد أخذه أبو تمام فقال :

جلا ظلمات الظلم عن وجه أمة   أضاء لها من كوكب الحق آفله

وأخذه آخر فقال :

والظلم مشتق من الظلمه

ونظر إليه البوصيرى فى قوله :

ظلمت سُنّة من أحيا الظلام إلى   أن اشتكت قدماه الضرّ من ورم

وأما ماعدا ذلك فلبس بشىء ، فهو معيب منتقد .

فالمجد والكرم لا يوصف أحدهما بأنه : طيب ، ولم يقل ذلك شاعر

---

(١) ديوانه — ١٥٨ .

(٢) صبح الأعشى — ١٤ — ٣٣١ .

(٣) خزانة الأدب للحموى — باب التغاير — ١٠٣ الخ .

ولا ناثر ، وإنما يقال مثلا : مجدأثيل ؛ ومؤثل ، وتليد وقديم ، ومثله الكرم إن أريد به الأصالةوالشرف ، فإن أريد به السخاء والجود ، وصف بأنه : واسع وغامر وما إلى ذلك .

والجود والشيم ليس يجمعهما قران، وإنما يقرن الجود بالشجاعة ،وهما خلق الفتوة العربية .

يقول مسلم بن الوليد — وهو أصل كل معنى يشبهه — :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها — والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ويقول أبو تمام :

وإذا رأيت أبا يزيد فى ندى — ووغى ، ومُبدى غارةٍ ومعيدا
أيقنت أن من السماح شجاعة — تدمَى ؛ وأن من الشجاعة جودا

ويقول المتنبي :

هو الشجاع يعد البخل من جُبُن — وهو الجواد يعد الجبن من بَخل

ويقول أيضا :

فقلت إن الفتى شجاعته — تريه فى الشح صورة الفرَق[1]

ويقول مهيار :

سخا بهمُ أن السخاء شجاعة — وشجّعهم أن الشجاعة جود

ويقول مهيار أيضاً :

وإذا الخلال الصالحات تكاملت — فهى الشجاعة أوأخوها الجود

ويقول البديهى :

وإذا اختبرت علمت غير مدافَع — أن السماح سجيــة الأبطـال

(١) الفرق : الفزع .

ويقول صَرّدُر فى مدح القائم بأمر الله العباسى :

ضمير جلاهُ صيقل الحلم والتقى وكف حباها الله بالجود والباس

وهكذا قلّ أن نرى مدحا بالشجاعة إلا مقرونا بذكر الكرم ، ولا مدحا بالكرم إلا مقرونا بذكر الشجاعة ؛ لأن الشجاعة جود ، والجود شجاعة .

على أن الجود يندرج تحت حسن الشيم التى هى الطبائع ، فذكره معها فضول ؛ لأنه ليس أولى من غيره كالحلم والعقل والتقى مثلا ، ولو قال: الأحسنان : البأس والكرم ؛ لا نتفى عنه اللوم .

وأنت الجواد وأنت البدر ... « البيت » : بين المصراعين بعض تخالف ، فالبدر يمحى به الظلام ؛ ولكن الجواد لا يمحى به الظلم ؛ ولكن يمحى به الفقر مثلا ، ولو قال : أنت الضياء وأنت العدل لبرئ من اللوم .

والسقم والألم فى غاية القبح ؛ لأن السقم قد يمكن وصفه — على ضعف — بأنه مما يؤذى ، لأنه مؤثر على كل حال ، ولكن كيف يوصف الألم بذلك ، وهو أثر للسقم أو لغيره .

وكان يمكن أن يقول : الأقبحان : الفقر والهرم .

والأشرفان : « البيت والحرم » مما ينتقد عليه ؛ ماذا يريد بالحرم ؟ هل هو ما حول الكعبة ؟ أيريد مكة والمدينة ، فهما يسميان الحرمين ، وحرمى الله ؟

والمتبادر إلى الذهن : أنه يريد ما حول البيت العتيق ، وهو مع شرفه لا يسامى البيت نفسه .

ولو أنه ذكر مع البيت المعظم ، الروضة النبوية ، التى هى روضة من

رياض الجنة كما جاء فى الأثر[١] ، أو القبر الشريف الذى هو أفضل مكان ضم أفضل جسد[٢] !! لأتى بشىء حسن مختار .

وإنك لتحس الحسن يترقرق فى قول شوقى[٣] :

والناس صنفان موتى : فى حياتهم   وآخرون ببطن الأرض أحياء
تأبى المواهب ، فالأحياء بينهمو   لا يستوون ، ولا الأموات أكفاء

فالتوشيع فى البيت الأول ، أتى عفو الخاطر ، وفيض القريحة ، ومساوقة البديهة ، حاملا إليك حقيقة ناصعة لا يمترى فيها اثنان ، ولا يُزرى به : أن المعنى مطروق أو مسبوق ، فانتظامه فى سلك القافية ، ألقى عليه أشعة زاهية من الجِدّة والطرافة ، فصار أحقّ به .

وقد وقع لبعض العصريين طرف من ذلك : يقول من قصيدة عنوانها شباب العروبة (٤) :

عهد الشباب رطيب الظل وارفه   فبادرا َفوْته فالظل متنقل
أيامه ولياليه منورّة   فيها الجمال ، وفيها البشر والأمل
مضى حثيث الخطا المندركيف مضى   ماضٍ لو رجعت أيامنا الأوَل
ونحن من بعده أنضاء معركة   سلاحها الأنكدان : الشيب والعلل

وقوله من قصيدة أخرى عنوانها : جناية الأسماء : بطّن فيها الهزل بالجد(٥) :

قالوا الحظوظ له عن وجهها سفرت   وتوجته بتاج السبق والغلب

---

(١) فى الحديث : « بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .
(٢) قال القاضى عياض : ولا خلاف : أن موضع قبر النبى — صلى الله عليه وسلم — أفضل بقاع الأرض .
(٣) من قصيدة له فى ذكرى شكسبير الشوقيات — ٢ — ٥ .
(٤) أعاريد السحر — ١١١ .
(٥) ألحان الأصيل — ١١٤ .

وأن جيبي كبطني راح منتفخا يكاد ينشقّ عن « أوراقه » القشُب
وأن لى الدار كالأهرام شامخة لهفى على جحر ضبٍّ بينهم خرِب
لله آباؤهم ! ! هل نال ذو جدة ما نال بالأجوفين: الشعر والخطب (١)
أستغفر الله لى بيتان ما جُهِلا بيت القريض، وبيت المجد والحسب
هذا شرود على الأيام مغترب وذا مقيم يناغى النجم عن كثب

فأنت لا تشك أن التوشيع فى هاتين المقطوعتين غير مقصود ولا مستجلب ، وأن سياق المعنى هو الذى استدعاه ، فلبى طائعاً .

فالحديث عن ربيع الشباب المونق المَريع الطلق النضر ، أفضى إلى ذكر الشيب والمرض ، وهما الثمرة المرة التى نقطفها كارهين فى خريف العمر الذى ينسخ ربيعه « فما أحلى الشباب لو كان دائماً !!

كما أن الشيب والمرض هما الرحى الثقيلة التى تطحننا بها الأيام فى هذه السن العالية ، من حيث لا نملك لها قوة ولا دفعا !!

والأجوفان : الشعر والخطب : ترديد لما قرّ فى أذهان الشعراء والادباء — إن حقا وإن باطلا — عن « حرفة الأدب » وما تجر على أهلها من الشقوة والحرمان فى كل عصر ومصر !!

مافيه « لو » ولا « ليت » فتنقصه وإنما أدركته حرفة الأدب (٢)

وبيت القريض وبيت المجد ، لا يخفى ما بينهما من الرحم الواشجة، والصلة الوثيقة، فللمجد بيت ، وللقريض بيت لا يقل عنه سناً وسناء !!

شاعر المجد خدنُه شاعر اللفظ كلانا رب المعانى الدقاق

هكذا يقول المتنبى الشاعر ، لأبى العشائر الحمدانى الماجد ، إلا أن المجد شرف موروث ، والشعر شرف مكتسب ، والشرف كل الشرف فى اجتماعهما .

---

(١) الجدة كزنة : الغنى
(٢) من رثاء ابن بسام لابن المعتز ـ وفيات الأعيان ـ ٢ ـ ٤٦٢ .

وخير الشعر أشرفه رجالا . . . .

كما يقول الفرزدق

ولعلك تستحسن معى التوشيع فى الأبيات التالية ، لهذه الأسباب التى ذكرناها .

تستحسنه فى قول الخنساء ترثى أخاها صخراً :

يا صخر ورّاد ماء قد تناذرَه   أهل المياه وما فى ورده عار (١)

مشى السَّبنْتى إلى هيجاء معضلة   له سلاحان : أنياب وأظفار (٢)

وما عجول على بَوّ تحن له   لها حنينان : إعلان وإسرار (٣)

وتستحسنه فى قول عكرمة بن الشّغْب يرثى ابنه شغبا :

فارقت شغْباً وقد قوّست من كبر   لبئست الخلتان : الثُّكل والكبر

وقول بعض الشعراء :

فصبرا على ذل ربيعَ بن مالك   وكلّ ذليل خير عادته الصبر

تحالفكم فقر قـديم وذلة   وبئس الحليفان : المذلة والفقر

وقد عده العسكرى أهجى ما قالته العرب (٤)

وقول آخر :

ولا يُقيم على ضيم يُراد به   إلا الأذلان : عَير الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برُمّته   وذا يُشَجّ فلا يَرثى له أحـد

وقول شوقى :

فاجعل صَبوحك فى البكور سليلةَ   للمنجبَين : الكرم والتفاح

---

(١) تناذره : خوف بعضهم به بعضا .

(٢) السبنتى والسبندى : الجرىء ، وأصله فى النمر والأسد .

(٣) العجول : الواله التى فقدت ولدها . والبو : جلد الناقة ، وجلد الحوار بضم الحاء يحشى تبنا ، ويقرب من أم الفصيل فتعطف عليه وتدر اللبن.

(٤) ديوان المعانى ــ ١ ــ ١٩٢ .

وقوله أيضاً :

وإن للمجد آفات إذا جُمعت وجدتهن اثنتين : الحقد والغضبا

وقول الأسمر :

تجرى القوافى بها فى كل ناحية يمدُّها الرافدان: القلبُ والكبد(١)

وقول محمود غنيم :

تلك المبادئ - وهى شتَّى - جُمِّعت فى مبدأين : الحق والإنصاف(٢)

ويستبين مما تقدم من الأمثلة : أن الموصوف بالجودة من هذا النوع ، لا يمكن أن يأتى إلا لمعاً قليلة ، وأن المكرر كله — مما قصد لذاته — تبدو عليه سمة التكلف واضحة ، وإن حسن حيناً لصياغته المحكمة الدقيقة .

وإليك جزء قصيدة من هذا النمط لأبى عبد الله محمد بن حامد فى الصاحب ابن عباد ، تربى على ثلاثين بيتا(٣) !!

ويكفى أن يبلغ توشيعها هذا القدر ؛ ليقال : إن ناظمها ركب متن الشطط :

ليهنك الأهنيان : الملك والعُمُر ماسايرالأسيران : الشعروالسمر

وطال عمـر سناك المستضاء به ما عُمِّرالأبقيان : الكتب والسير

يَفدى الورى كلهم «كافى الكفاة» فقد صفا به الأفضلان: العدل والنظر(٤)

له مكارمُ لا تحصَى محاسنُها أو يُحسب الأكثران: الرمل والشجر

لكيده النصر من دون الحسام وإن تمرّد الأشجعان : الترك والخزر

ما سار موكبه إلا ويخدمه .. فى ظله الأسنيان : الفتح والظفر

---

(١) ديوان الأسمر — ٢٧١ .

(٢) صرخة فى واد — ١٦٦ .

(٣) يتيمة الدهر — ٤ — ٢٣٥ .

(٤) كافى الكفاة : لقب الصاحب بن عباد . والنظر : الحكم بين القوم .

وإن أمَّر على طِرس أنامـــله   أغضى له الأبهجان : الوشى والزَهر
دامت تقبلها صِيد الملوك كما   يُقبَّـل الأكرمان: الركن والحجر

ومع وصفنا لصاحب هذه القصيدة بالغلو ، فمن الإنصاف ألا ننكر عليه قدرته على اختراع ألوان جديدة من التوشيع لم يسبق إليها .

ومن الإنصاف أيضاً : أن نعترف : بأنها حوت شِيات من الحسن فى المواضع التى قويت فيها الرابطة بين المثنى وتفسيره من ناحية ، وبين الاسمين المفسرين له من ناحية أخرى كقوله : « الأسيران : الشعر والسمر » .

و « الأبقيان : الكتب والسير » و « الأكرمان : الركن والحجر » .

والتوشيع الأخير أفضل الجميع وأطبعها وأكثرها خطوراً بالبال ؛ للاتفاق على كرامة الركن والحجر ؛ ولاستدعاء أحدهما للآخر ؛ حين يذكر أو يمر بالذهن .

ولكنك تشعر بالضعف والتهافت فى قوله : « الأكثران : الرمل والشجر ؛ لأن الشجر — وإن كان كثيرا — لا يسامى الرمل فى الكثرة .

وقد جرت العادة أن يقولوا : الرمل والحصى ، والنجم والحصى ، والقطر والرمل والتراب .

وقد قال ابن أبى ربيعة :

ثم قالوا تحبها قلت بَهراً   عدد الرمل والحصى والتراب[1]

---

(١) البهر الغلبة : أى حباً غلبنى . وقال ابن الأعرابى : البهر : الخيبة والفخر ، وأنشد بيت عمر السابق . وقيل معناه : جما ، وقيل : عجبا بفتح الجيم وقال المبرد : يجوز — أن كل ماقاله ابن الأعرابى فى وجوه البهر — أن يكون معنى لما قال عمر . وأحسنها : العجب . شرح ديباجة القاموس — ١ — ٣٧٨ .

وقال المتنبي :

فأقرب من تحديدها رَدُّ فائت وأيسر من إحصائها : القطر والرمل

وكذلك نشعر به في : «العدل والنظر» و «الترك والخزر» و «الفتح والظفر» .

فالنظر وإن كان في المعنى قريبا من العدل ؛ لأن معناه الحكم بين القوم إلا أنه ليس مأنوساً للعامة ، وهو حائل اللون ، كابي الشعاع ، بجوار العدل الوضاء المستنير ، وأقرب المعاني انجذاباً إلى العدل : كلمة الحق والإنصاف والصدق ، وكثيراً مايقال : حق وعدل ، وحق وصدق ، وعدل وإنصاف .

والخزر : ليس إلا جيلا من الترك ، وإن غلبت عليهم هذه التسمية فهو من عطف الخاص على العام .

والفتح والظفر بمعنى واحد ؛ لأن معنى الفتح : النصر .

وأغرق منه في التكلف قول تاج الدين الكندي :

دع المنجم يكبو في ضلالته أن ادعى علم ما يجري به الفلك

تفرَّد لله بالعلم القديم فلا الانسان يَشرَكه فيه ولا الملك

أعد للرزق من إشراكه شرَكا فبئست العُدتان الشرك والشرك

فليس المنجم مشركا وإن ضل وكذب ، وليس كل شرَك مذموما ، فهناك أشراك جائزة الإستعمال في صيد السمك والجرذان وغيرها .

وهو قد يستعمل في الغزل مجازاً ، فيكون سائغاً عذباً لطيف الموقع ، كقول الحصري[1] :

نصبت عيناي له شركا في النوم فعزَّ تصيده

---

(١) مقدمة زهر الآداب ــ ١ ــ ٦ وانظر معارضات الشعراء للحصري جمع الأستاذ محيي الدين رضا .

وقال شوقى :

كم مدّ لطيفك من شرك ... وتأدّب لا يتصيده

وقد انتقد المرحوم الدكتور زكى مبارك قول معين الدين بن الخطيب :

أشكو إلى الله من نارين : واحدة ... فى وجنتيه ، وأخرى منه فى كبدى

ومن سقامين : سقم قد أحل دمى ... من الجفون ! وسقم حل فى جسدى

ومن نمومين : دمعى حين أذكره ... يذيع سرّى ، وواش منه بالرّصد

ومن ضعيفين : صبرى حين يهجرنى ... وودّه ، ويراه الناس طوع يدى

فقال فى البيتين الأولين :

وهذا شعر منتقد ، فإنه إذا صح أن يشكو المحب إلى الله سقمه ووجده أملا فى الراحة من بلاء الحب ، فما الذى يريد بشكوى السقم فى جفن محبوبه والنار فى خديه .

ثم قال : وقد أجاد أو قارب فى البيتين الأخيرين ، فإنه لا بأس من شكوى الواشى ، والود الضعيف .

وختم نقده بقوله : والشعر ضعيف البنية ، مهلهل النسج ، خال من لوعة المحب الصادق ، لهذا لا يلوح عليه صدق الأداء[1] .

ولسنا مع المرحوم الدكتور فى كل ماقال ، فشكوى المحب من سقم جفون حبيبه ، ومن نار خده : أمر متعارف ، فسقم الجفون — من غير سقم — : يضفى عليه سقما حقيقيا ، كما يقول المتنبى :

برّحت يا مرض الجفون بممرض ... مرض الطبيب له وعيد العوّد[2]

ونار الخدود : تشب النار فى الجوانح ، وتطوح بالقلوب والعقول كما يقول المتنبى أيضاً :

---

(١) مدامع العشاق ــ ٤٠

(٢) الممرض : يريد نفسه . والمعنى : أن فتور هذه الجفون ، أناخ عليه بالمرض ، حتى مرض طبيبه وعواده إشفاقا عليه .

المنهبات عقولنا وقلوبنا وجناتهن الناهبات الناهبا(١)

ويقول الصنوبرى(١)

لا النوم أدرى به ولا الأرق يدرى بهذين من به رمق
إن دموعى من طول ما استبقت كلت فما تستطيع تستبق
ولى مليك لم تبد صورته مذكان الا وصلت له الحدق
نويت تقبيل نار وجنته وخفت أدنو منها فأحترق

ومن هنا يظهر لنا : أن التوشيع يقوم على أسس وطيدة من جوامع تداعى المعانى .

فالأبيضان : الماء واللبن ، والأصفران : الذهب والزعفران ، أو الخمر واللحم؛ تدخل فى جامع التشابه،لوجود التماثل بين صورتى كل منهما فى العقل، بحيث تستدعى حضور إحداهما فى الذهن حضور الأخرى .

ودجلة والفرات ، والقلب والكبد ، والركن والحجر ، تجمعهما رابطة المكان .

والشيب والمرض ، والأكل والنكاح ، والغداة والعشى « العصران» والليل والنهار « الجديدان » تجمعهما رابطة الزمان .

والبحر والمطر ، والشوق والسهر ، والفاتنان ، الجمال والدلال ، تجمع بينهما رابطة السبب بالمسبب ، ولهذا نسمع الشاعر يقول فى الأول :

كالبحر يمطره السحاب وما له فضل عليه لأنه من مائه

والفرزدق يقول فى الثانى :

يقولون طال الليل ـ والليل لم يطل ـ ولكن من يبكى من الشوق يسهر

---

(١) يريد : المنهبات وجناتهن عقولنا وقلوبنا ، فوجنات:مفعول أول ، وعقول : مفعول ثان ؛ أى هؤلاء الحسان اللاتى جعلن عقولنا وقلوبنا ؟ نهبا لخدودهن والناهبات : نعت للوجنات، أى الموصوفة بأنها تنهب الناهب ؛ وهو الرجل الشجاع .

ويقول عبد المطلب فى الثالث[١] :

على النيل من سِيف الجزيرِ جُوذَر هفاتاتها ،والحسنُ بالتيه يأمر[٢]

وهذه الروابط الثلاث تدخل فى جامع الاقتران فى الذهن ، ويقصد بها هنا : وجود المعنيين فى العقل فى آن واحد ، أو لحاق أحدهما الآخر على الفور فيه[٣] .

وقد تجتمع عدة روابط فى توشيع واحد، فالسماكان : الرامح والأعزل يجمعهما التشابه ، فكلاهما نجم منير ، ويجمعهما التباين ، فهذا ذو رمح ، وذاك أعزل ، ثم بينهما رابطة الزمان والمكان ، فهما يطلعان ليلا فى صفحة السماء .

وعلى ذلك يمكن أن نقول : إن التوشيع ترتفع قيمته ، ويزداد حسنه بقدر ما فيه من قوة الترابط أو قوة التشابه .

---

(١) النجوم الزاهرة — ٣ — ٢٢٨
(٢) ديوان عبد المطلب — ١١٠ .
(٣) السيف بكسر السين : الساحل .
(٤) انظر ما كتب عن تداعى المعانى فى كتاب علم النفس للأستاذين : الجارم ومصطفى أمين — ١٥٧ :

الفصل السادس

الاطراد

الاطراد فى اللغة بتشديد الطاء : مصدر اطرد الأمر والماء والنهر : تبع بعضه بعضا ، وجرى من غير توقف .

وعند البلغاء : أن يأتى الشاعر باسم الممدوح أو غيره ، وأسماء آبائه على ترتيب الولادة فى بيت واحد من غير تكلف[1] .

وعند ابن أبى الإصبع : أن يطرد للمتكلم أسماء لآباء ممدوحه ، منسوب بعضها إلى بعض ، مرتبة على حكم ترتيبها فى الميلاد[2] .

وغالى صفى الدين الحلى فى شرح « بديعيته[3] » فاشترط على الشاعر أن يأتى باسم الممدوح ولقبه وكنيته ، وصفته اللائقة به ، واسم من أمكنه من أبيه وجده وقبيلته ، ليزداد الممدوح تعريفاً .

ولا بد من ذلك عنده أن يقع فى بيت واحد ، مع الخلو من التكلف والتعسف ، والفصل بألفاظ أجنبية عنه .

وأورد على ذلك قول بعضهم[4] :

مؤيد الدين أبو جعفر　　محمد بن العلقمى الوزير

قال ابن طباطبا العلوى : وهذا بيت حسن ، جمع فيه بين لقبه ، وكنيته، واسمه ، واسم أبيه ،وصنعته[5] .

---

(١) معاهد التنصيص — ٢ — ٦٧ .

(٢) بديع القرآن — ١٠٩

(٣) خزانة الأدب للحموى — ٢٠٠ .

(٤) هو كمال الدين بن البوقى يمدح مؤيد الدين العلقمى من قصيدة .

(٥) الفخرى — ٢٩٩ .

ويقول النويرى فى تعريفه : هو أن يطرد الشاعر أسماء متتالية ، يزيد الممدوح بها تعريفاً ، لأنها لا تكون إلا أسماء آبائه ، تأتى منسوقة غير منقطعة ، من غير ظهور كلفة على النظم ، كاطراد الماء وانسجامه[١] .

ومع أن خلو الكلام من التكلف دعامة أساسية فى استحقاقه صفة البلاغة ، إلا أن النص عليه هنا واجب حتم ، حتى يتم التطابق بين الاسم والمسمى ، لأن الاطراد يفيد السهولة والسلاسة والجريان والتدفق والتتابع والولاء ، فيجب إذن أن يكون الكلام موسوماً بهذه السمات ، ليستأهل أن يقال فيه : إنه مطرد إطراد الماء فى تدفقه وإنسيابه .

فمتى وقع بناء البيت متعاظلا معقداً ، أو جانبته السهولة والدماثة ، أو شابه التكلف والاستكراه ، خرج عن نطاق الاطراد ، وأصبح عاطلا من هذه الحلية .

ومن شواهده الشعرية القديمة : قول دريد بن الصِّمة — يرثى أخاه عبد الله — :

قتلنا بعبد الله خير لداته ذؤابَ بن أسماء بن زيد بن قارِب [٢]

وقد روى : أن سبرةَ بن عياض الجشمى أنشد عبد الملك بن مروان قصيدة دريد التى منها هذا البيت .

فلما وصل إليه ، قال كالمتعجب : لولا القافية لبلغ به آدم[٣] ، أو قال : كاد يبلغ به آدم[٤].

والحق : أن هذا البيت من فرائد هذا النوع ، وأن من حقه علينا أن نطرب له ، وإن كان المقام مقام رثاء .

---

(١) نهاية الأرب ـ ٧ ـ ١٥٥ .

(٢) فى رواية : أبأنا بعبد الله خير لداته . . . أى أخذنا بثأره .

(٣) العمدة ـ ٢ ـ ٦٧

(٤) معاهد التنصيص ـ ٢ ـ ٦٧

(٥) وقيل قائله : داود بن ربيعة الأسدى . معاهد التنصيص ـ ٢ ـ ٦٧ وفى إعجاز القرآن للباقلانى ـ ١٦٧ : أنه لأبى دواد الأسدى :

فقد كان الشاعر الراثى موفقا إلى أبعد مدى ، حين أتى بأربعة أسماء فى شطر بيت على هذا النسق العجيب البالغ الإحكام ، دون أن نلمح أى ضيم شاب بنيته ، ولا سيما إذا أحضرنا فى أذهاننا : أن هذا الشاعر كان يرثى أخاه الأثير لديه ، الكريم عليه ؛ فله من حزنه الممض ، وجواه الساعر ، ولهفته العميقة ، ما يشغله عن مراعاة التحبير والتنميق ، هذا إلى أنه شاعر جاهلى يجرى على عرق أصيل من الطبيعة السمحة المؤاتية ، البعيدة عن نوازع التصنع ، فلا يمكن أن يقال فى مثله وفى موقفه : إنه كانت تعنيه الزينة وتستهويه الحلية ، فلم يبق إلا أن يقال فى البيت : إنه نفحة من نفحات الإلهام .

ومثله قول ربيعة بن قُعَين يرثى ذؤابا ابنه :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم ... بعُتيبة بن الحارث بن شهاب[1]

بأحبِّهم فقْدا إلى أعدائه ... وأشدهم فقْدا على الأحباب

والشاهد فى البيت الأول .

ويقول الباقلانى : قد بنى قافيته على « الباء » لأجل ذلك الاسم ، فتم له ما أراد فى رفق ويسر[2] .

وقول الأعشى :

أقيس بنَ مسعود بن قيس بنِ خالد ... وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل[3]

وقد قال فيه ابن رشيق : ومن حسن الصنعة : أن تطرد الأسماء من غير كلفة ، ولا حشو فارغ فإنها — إذا اطردت — دلت على قوة الشاعر ، وقلة كلفته ، ومبالاته بالشعر ، وذلك نحو القول المتقدم .

---

(١) الثل : الهدم ، وثل الله عرشهم : هدم ملكهم ، ويقال : للقوم — ذهب عزهم واختل حالهم — : ثل عرشهم .

(٢) إعجاز القرآن — ١٦٧ .

(٣) فى بعض الروايات : ترجو بقاءك ، وائل ، وفى بعضها : حباءك بكسر الحاء ، وهو العطاء .

ثم يقول فيه : فأتى كالماء اطرادا وقله كلفة ،وبيّن النسب حتى أخرجه عن مواضع الشبه(١) :

وقال أبو تمام فى قالب بيت الأعشى — وإن نقص عنه اسما واحدا — :

بنصر بن منصور بن بسّامٍ انفرى   لنا شظف الأيام عن عيشة رغد(٢)

وقول الحارث بن دوس الإيادى :

وشباب حسن أوجُهُهم   من إياد بن نزار بن مَعَد

فأطرد ثلاثة أسماء لا كلفة فيها .

وقول ابن معايا الشاعر — يمدح إدريس بن حمّود ملك الأندلس(٣) — :

وكأن الشمس لما أشرقت   فانثنت منها عيونُ الناظرين
وجهُ إدريسَ بن يحيى بنِ علىٍّ   بن حمودٍ أميرِ المؤمنين

وقول المتنبى :

يا غُصُن الدولة مَن ركنها
أبوه والقلب أبو لبه

يمدح غصن الدولة بتفضيله على أبيه ركن الدولة ويضرب لهما مثالا بالقلب واللب ؛ فالقلب مصدر اللب ولكن اللب هو الأفضل .

---

(١) العمدة ٢ — ٦٦ — ٦٧ .

(٢) انفرى بوزن اشترى : انكشف .

(٣) كان إدريس فى حال الإنشاد وراء الحجاب على عادة خلفائهم فى ذلك ، فلما بلغ الشاعر إلى قوله :

انظرونا نقتبس من نوركم   إنه من نور رب العالمين

أمر برفع الحجاب حتى نظر إليه .

وقول شرف الدين بن راجح الحلى من قصيدة — يمدح بها السلطان الكامل الأيوبى — وكان فى حضرته وفد من الصليبيين — :

أعُبّاد عيسى ؛ إن عيسى وحزبه   وموسى جميعا يخدمون محمدا

يريد بعيسى الثانى : الملك عيسى المعظم الأيوبى ، وبموسى : الملك موسى الأشرف الأيوبى ، وهما أخوا السلطان الكامل .

ويقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة : بلغنى وقت الإنشاد : أنه أشار عند قوله : « عيسى » إلى الملك المعظم ، وعند قوله : « موسى » إلى الملك الأشرف ، وعند قوله : « محمد » إلى السلطان الكامل .

وهذا من أحسن الاتفاق(١) .

ولا مرية فى أن البيت حسن ؛ فهو محكم النسج ، قوى الرصف ، جميل النغمة ، والأسماء فيه لم تذكر عبثا ، ولم تأت فضلة ، بل يقتضيها المقام .

وزاد فى رونقه : هذه التورية البديعة الواقعة موقعها فى ثلاثة أسماء من أشهر أسماء الرسل الكرام : موسى وعيسى ومحمد .

وقول الشطر نجى الأهوازى فى مدح الصاحب بن عباد من قصيدة :

إلى ابن عبادٍ أبى القاسم الصا   حب إسماعيل كافى الكفاة

ويقول الصاحب فى ذلك : كنت والله أشتهى أن يجتمع كنيتى واسمى ولقبى ، واسم أبى فى بيت(٢) .

---

(١) مطالع البدور — ١ — ٢٧٧ .

(٢) معجم الأدباء — ٦ — ٢٠٣ — ٢٠٤ .

ولا شك أن الشاعر وفق فى ذلك كل التوفيق ، وحقق له هذه الأمنية العزيزة .

وقول أبى القاسم الأليمانى — يمدح ابن عيسى الدامغانى من قصيدة — :

إلى الشيخ الجليل أبى علىٍّ محمدٍ بن عيسى الدامغانى

وقد ذكر الثعالبى[1] : أنه لم يذكر : أن أحداً من الصدور وسع دعاءه، وتربيته ، وكنيته ، واسمه ، واسم أبيه ، وبلده ، بيت واحد سواه .

وعندى أنه يكدر صفوه ، تنوين محمد لضرورة الشعر ، وهى ضرورة قبيحة .

ومما جاء معيباً قول أبى تمام — يمدح عبد الملك بن صالح العباسى — :

عبد المليك بن صالح بن علىٍّ قسيم النبى فى نسبه

فهذا سهل العنان ، خفيف اللسان — كما يقول ابن رشيق — إلا أن الياء فى المليك جاءت ضرورة وتكلفا .

وقول أمية فى القاضى منصور بن محمد الأزدى :

قالت تفتش عن أولى المجد من فى الأنام لطالب الرِّفد؟
فأجبت قاضينا وسيدنا منصورٌ بن محمد الأزدى

وقد جاء فيه بالتنوين ضرورة .

وقول بعض المتأخرين فى ابن أبى الإصبع (٣) :

---

(١) يتيمة الدهر ـ ٤ ـ ١٣٤ .

(٢) العمدة ـ ٢ ـ ٦٧

(٣) خزانة الأدب الحموى ـ ٢٠٠

عبدالعظيم الزكى إبن أبى الإصبع   رب القريض والخطب

وقد اشتمل على اسم الممدوح ، واسم أبيه ، والصفة اللائقة به ، ولكن عابه بقطع همزة الوصل .

وقول بعضهم :

من يكن رام حاجة بعدت عنه   وأعيت عليه كل العياء

فلها أحمد المرجى بن يحيى بن   معاذ بن مسلم بن رجاء (١)

وفيه يقول ابن رشيق : فجاء كلامه نسقا واحدا ، إلا أنه قد شغل البيت ، وفصل بين الكلام بقوله : « المرجى » غير أن مجانسة رجاء ، هونت من خطيئته ، وغفرت ذنبه .

ويقول ابن أبى الإصبع : لقد أربى هذا الشاعر فى هذا النوع على من تقدمه ، ولو سلم بيته من الفصل بلفظة « المرجى » لكان غاية لا تدرك ، وعقيلة لا تملك ! .

وإذن عيب البيت هنا فى نظر الناقدين : أنه تخولف فيه شروط الاطراد وهو الفصل بأجنبى بين اسم الممدوح واسم أبيه ، فهو عيب من حيث الصنعة التى بينوا قواعدها ، واشترطوا المحافظة عليها ، وإلا فهو من جهة الصياغة والفن البلاغى لا عيب فيه .

وقال أبو تمام يمدح مالك بن طوق التغلبى :

عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتا   ب بن سعد بن زهير بن جشم ، سهم كم لا يسهم (٢)

يخاطب بذلك عمرو بن غنم التغلبيين — وهم بنو عم مالك بن طوق — فانتظم له ما أراد من الأسماء إلا أنه ظاهر التكلف غير مطرد .

---

(١) هذه رواية الحموى ، ورواية ابن رشيق : سلم بن رجاء .

(٢) لايسهم : لا يغلب .

ويرى النويرى : أن اطراد الأسماء فى عجز البيت أحسن من اطرادها فى صدره ؛ وهو لذلك يفضل بيت دزيد بن الصمة المتقدم :

قتلنـــا بعبد الله خـــير لداته ذؤابَ بن أسماء بن زيد بن قارب

على بيت الأعشى :

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وأنت الذى ترجو حِباءك وائل

وقد يطول هذا النوع حتى يمل ويصير ممجوجاً ، كقول ابن دريد — وقد جمع ثمانية أسماء فى بيت واحد — :

فنعم أخو الجُلّى ومُستَنبَط الندى
وملجأ محـــزون ، ومَفزَع لاهث

عياد بن عمرو بن الحُلَيس بن عامر بن
زيد بن مذكور بن سعد بن حارث

وفيه يقول شهاب الدين العلوى الحضرمى : وهذا لاتكون الإجادة فيه إلا مقرونة بتوفيق[1].

والحق : أن التكلف فى هذا ظاهر ، والبيت ثقيل ، ولا يزيد فى قيمته على نظم الضوابط ، ومصطلحات العلوم .

والتوفيق قد جانب صاحبه بالرغم من هذا الاتفاق — على خلاف ما يرى ابن شهاب — لأن التوفيق لا يمكن أن يصاحب بيتاً يجمع بين ثمانية أسماء متلاصقة ، وإن وجـــد توفيق — على زعمه — فهو القدرة على رصف هذه الأعلام الكثيرة فى سلك واحد ؛ وليس فى مثل هذا عَبقة من الهبة ، ولا ومضة من الوحى ! .

---

(١) إقامة الحجة على التقى بن حجة — ٢٨ — العمدة —٦٧ .

وكقول أبى تمام :

مَناسب تُحسَب من ضوئها منازلا للقمر الطالع[١]
كالدلو والحوت وأشراطه والبطن والنجم إلى التالع[٢]
نوح بن عمرو بن حوىّ بن عمرو بن حوى ابن الفتى مانع

فأحكم التصنيع وقابل ستة بستة ، لولا أنه نغّص بذكر الفتى فى سادس جد، فإنه بارد، وركيك ، إذ قديوهم أن أباهؤلاء كلهم : فتى : أى صغير السن وإن كنا نعلم : أنه لم يرد فتاء السن ، ولكن الفتوة[٣] .

وقول السِّراج الورّاق:

فله الجمال غدًا بغير مُنازع ولىَ الجوى فيه بغير قسيم .
وكذا العلا لمحمد بن محمد بن علىٍّ بن محمد بن سليم

وفيه على طوله : عيب آخر وهو تنوين « على» .

ومما حسن مع طوله : قول الحارث الدؤلى — يمدح عاصم بن عمرو بن عثمان بن عفان — فذكر نسبه كاملا[٤] .

إليك ابنَ عثمان بن عفان عاصم بن عمرو سرت عيس ٌ فطال سراها

فالبيت قد حوى أربعة أسماء ، ولكنه لم يذكرها متتابعة ، بل قال : عثمان بن عفان ، ثم قال : عاصم بن عمرو ، فخف وقعها على السمع .

وقد خلا من الضرورات التى تقع فى مثله ، وهو — إلى ذلك — لا يخلو من نفحة الطبع ، وفيه إيقاع وتنغيم لا يخفى ، وقد أتى فيه ناظمه على حاجته

---

(١) فى معاهد التنصيص : تحسب من سردها . والمناسب : الأنساب .

(٢) الدلو والحوت : برجان فى السماء . والأشراط : من منازل القمر . والبطن : يريد بطن الحمل بفتح الحاء ، وهو من منازل القمر أيضاً ، ويسمى: البطين بالتصغير ، والنجم :الثريا وهو من المنازل . والتالع : الدبران بفتح الدال والباء : كوكب أحمر من المنازل . كأنه تلع جيده : أى مده .

(٣) العمدة — ٢ — ٦٧ — ٦٨ — معاهد التنصيص — ٦٧ .

(٤) معجم الأدباء — ٦ — ٢٥٤ .

من ذكر المطايا ، وطول سراها إلى الممدوح ، فبلغ غايته من الاستمناح مع التعفف والتصون عن المسألة ، والقصد فى الكلام .

ويلاحظ أن كثيراً من أمثلة هذا النوع ، اختيرت فيها القوافى الموافقة للأسماء ابتداء ، وبخاصة فى الأبيات المفردة والمقطّعات :

وذلك كقول ابن أبى الإصبع :

أجلُّ ملاذٍ إلى العلياء منسوبِ   محمد بن أبى بكر بن أيوب

وقول يعقوب بن أحمد النيسابورى فى أبى القاسم على بن موسى الموسوى :

يقول صديقى : ألا دُلّنى   على برمك الجود ، أو حاتم
فقلت — وأقسمت — : ربُّ العلا   علىُّ بن موسى أبـو القاسم

وقول الباخرْزى من قصيدة — يمدح بها أبا الحسن محمد بن الحسين ابن طلحة — :

أبو الحسن السيد الأريحى   محمدُ بن الحسين بن طلحهْ

والقصد إلى القافية هنا واضح لأنها ثقيلة وعسيرة ، ولكنه ركب متن التعسف فى ذلك ، لأجل اسم الممدوح ! .

وقد يفرض الاسم نفسه فرضاً على القافية ، كقول شاعر فى الحكم بن المنذر بن الجارود [1] :

يا حكم بنَ المنذر بن الجارودْ   سرادق العز عليك ممدودْ

فيأتى سهواً رَهواً ، خفيفاً لطيفاً ، متعيناً فى مكانه ، وهل كان فى إمكان الشاعر أن يصنع غير ما صنع مادام يريد أن يدعو ممدوحه ؟ !

وكقول مطران [2] فى رثاء المغفور له : الأستاذ عبد القادر حمزة :

---

(١) بدائع البدائه — ٢ — ٦٨ .

(٢) ديوانه — ٤ — ٢٨٧ .

راعَ الكنانة رزءُ عبدالقادر وجرى القضاء بأى حكم قاهر

وقال العقاد فيه أيضاً(١) :

جلّ المصاب بفقد عبد القادر ويح البيان على المبين الساحر

فقد توافى الشاعران الكبيران على هذا المطلع المحزن مصادفة مع اختلاف يسير ، مع أنهما من غير شك قصدا إلى المجيء بالاسم ، وبنيا القافية عليه ، فكان بناء مطبوعاً .

وقد تخبط القافية خبط عشواء كالمنايا فى رأى زهير بن أبى سلمى، فتصيب الاسم مصادفة ، فلا يعدم حظه من الحسن والجمال ، شأن كثير مما يقع لنا اتفاقاً .

وذلك كقول إسحاق الموصلى فى وصف الخمر :

وصافية تغشَى العيون رقيقة سليلة عام فى الدِّنان وعام(٢)

أدرنا بها الكأس الرَّوية بيننا من الراح حتى انزاح كل ظلام(٣)

فما بان قرن الشمس حتى كأننا من العىِّ نحكى « أحمد بن هشام »(٤)

فقال له ابن هشام : لم هجوتنى مع الصداقة بيننا ؟

فقال : لأنك قعدت على طريق القافية (٥)

والحق أنه ليس يعاب على الشاعر ، أن يختار قافية معينة لغرض يريد

---

(١) ديوان أعاصير مغرب ١٢٦ .

(٢) سليلة عام : بنت عام .

(٣) فى بعض الروايات : موهنا بدلا من بيننا . والموهن : نحو نصف الليل . وكذلك ورد : انجاب بدل انزاح .

(٤) فى رواية : ذر قرن الشمس : أى طلع ، وقرن الشمس : ناحيتها ، أو أعلاها ، أو أول شعاعها .

(٥) ثمار القلوب — ٥٢٩ .

أن يسلكه فى نظمه : من سوق خبر ، أو ذكر عدد أو اسم ، أو إشارة إلى حادثة .

فهذا مما يدخل فى مقاصد الشعراء ، وهو من باب التلاؤم بين الأسلوب والغرض .

ولكن ينبغى — كما يقول العسكرى — أن تأخذ فى طريق تسهل عليك حكايته فيها ، وتركب قافية تطيعك فى استيفائك له ، كما فعل النابغة فى قوله[١] .

واحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت ... إلى حمام سِراع وارد الثمد[٢]
قالت ألا ليتما هــذا الحمام لنا ... إلى حمــامتنا أو نصفه فقَد[٣]
فكملت مائة فيها حمــامتها ... وأسرعت حِسْبة فى ذلك العدد
فحَسَبوه فألفــوْه كما حسَبت ... تسعا وتسعين لم تنقُص ولم تزِد

فهذا أجود مايذكر فى الباب ، وأصعب مارامه شاعر ، لأنه عمد إلى حساب دقيق ؛ فأورده مشروحاً ملخصاً ، وحكاه حكاية صادقة ، ولما احتاج إلى أن يذكر العدد والزيادة والثمد ، بنى الكلام على قافية فاصلة « الدال » فسهل عليه طريقه ، واطرد سبيله .

ومثل ذلك ما أتاه البحترى فى القصيدة التى أولها[٤] :

هاج الخيال لنا ذكرى إذا طافا ... وافى يخادعنا والصبحُ قد وافى

---

(١) الصناعتين — ١٤١ — ١٤٢ — شعراء النصرانية — ٢ — ٦١٥ .

(٢) فى الحيوان للجاحظ — ٣ — ٦٧ « ساسى » شراع بالشين ؛ وشراع بكسر الشين : جمع شرع كعنب ، وشرع : جمع شرعة بفتح الشين والراء ، وشرع بكسر الشين وفتحها مع إسكان الراء ، وهو مثل الشيء . أى حمام سواء ومتماثل ، وفتاة الحى : زرقاء اليمامة المشهورة . والثمد بسكون الميم ويحرك : وككتاب : الماء القليل لامادة له ، أو مايظهر فى الشتاء ويذهب مع الصيف .

(٣) أو نصفه: أو : بمعنى الواو أى ونصفه ، لابمعنى الشك .

(٤) يمدح بها الطائى . وأولها فى ديوانه :
يهدى الخيال لنا ذكرى إذا طافا .

وكان قد احتاج إلى ذكرى الآلاف ، والإسعاف ، والأضعاف ، والإسراف والأنصاف ، فجعل القصيدة «فائية» فاستوى له مراده ، وقرب عليه مرامه فى قوله :

قضيتَ عنى ابن بِسطام صنيعته	عندى ، وضاعفت ما أولاه أضعافا
وكان معروفه قَصْداً إلىّ ، وما	جازيته عنه تبذيرا وإسرافا
مثون عيشنا تولّيت الثواب بها	حتى انثنت لأبى العباس آلافا(١)
قد كان يكفيه مما قدمت يده	ربّما يزيد على الآحاد أنصافا

وكما يحدث ذلك قصداً قد يحدث عفواً ، كقول « شوقى » من قصيدة يرثى بها الشهيد « عمر المختار » البطل الليبى :

إفريقيا مهدُ الأسود ولحدها	ضجّتْ عليك أراجلا ونساء
والجاهلية من وراء قبورهم	يبكون «زيد الخيل» و«الفلحاء»(٢)

فالفلحاء هو : عنترة بن شداد العبسى ، ومجىء الكلمة هنا من عمل الإلهام وحده ؛ لأن « شوقى » لم يقصد بناء القافية على الهمزة من إجلها ، ولكن لم يكن له بد من أن يختم البيت باسم مهموز على وزن « فعلاء » وأن يكون مسماه فارسا جاهلياً مشهوراً ، ليتم البيت بعامة — وهو فى مقام التحدث عن الفروسية — وليلائم «زيد الخيل» بخاصة — وهو أحد الفرسان الأنجاد — فاستوى له غرضه بكلمة « الفلحاء » على أفضل وجه وأتمه .

وقد وقع مثل ذلك لشاعر عصرى فى قصيدة له ، عنوانها : « معاهدة غير ذات موضوع »(٣) .

---

(١) العين بفتح العين : النقد ، وما ضرب من الدنانير وما لم يضرب .

(٢) زيد الخيل : فارس مشهور ، وقد سماه الرسول الكريم : زيد الخير . والفلحاء كعلياء : عنترة الفوارس ؛ قيل له ذلك لفلحة كانت به ، وإنما ذهبوا إلى تأنيث الشفة ، والأفلح: مشقوق الشفة السفلى ، والأعلم : مشقوق العليا . وفيات الأعيان — ٢ — ٢٤٦ .

(٣) أغاريد السحر — ١٧٠ .

فقد بناها على حرف الراء من غير قصد، ثم إنساق فيها إلى ذم المعاهدة المصرية، التى عقدت فى بعض العهود السابقة الملكية، فقال :

قالوا معاهدة فقلت سلاسل   يلهو بحُلو رنينها المأسورُ
حذّرت قومى السمّ فى أضعافها   لو كان ينفع قومىَ التحذير

ثم إذا هو يقول :

قدَر مُتاح لم يُلقّ « جَذيمة »   فيه الصواب ولا أطيع « قَصيرُ »[1]

فأتى باسمين تاريخيين مناسبين للغرض، وأوقع أحدهما قافية بدون تكلف .

على أنه يجب أن يلاحظ أن يكون الاسم رشيق البنية، حلو الجرس، يوحى إلى سامعه بمعانى الجمال أو الجلال .

وكثير من الأسماء يحمل هذه المزية .

وقد ذكروا : أنه لا يستحسن ذكر أسماء النساء فى الغزل إلا ما كان خفيفاً على اللسان، كأميمة وسعاد .

وقد عابوا على الأخطل تغزله « بقَذور » لما فيها من الثقل فى المنطق، مع أن معنى قذور : المتنحية عن الرجال، والمتنزهة عن الأقذار .

وعيب على البحترى قوله :

إن للبين مِنّة لا تؤدّى   ويدا فى تُماضر بيضاء[2]

كما عابوا على جرير قوله :

وتقول « بوزَعُ » قد دَببت على العصا
هلا هزئت بغيرنا يا بوزَع

(١) يشير إلى قصة الزباء وجذيمة الأبرش المشهورة .
(٢) الحق أن تماضر ليس بثقيل، وقد سميت به بعض الفتيات فى عصرنا .

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك قال له : أفسدت شعرك ببوزع[١] .

ويقول ابن رشيق : وأما قول السيد الحميرى :

ولقد تكون بها أوانس كالدمى   هند وعَبدة والرباب وبَوْزع

فإنه ثقيل من أجل بوزع ، وقد أنكر هذه اللفظة عبد الملك على جرير ، فما ظنك بالسيد الحميرى(٢) .

وتقع الأسماء الجميلة العذبة للشعراء كثيراً ، فى عصور الحضارة : لوفرة هذه الأسماء وانفساح الاختيار فيها .

وذلك أنه فى عصور الحضارة رقت الأسماء — كما يقول ابن حزم — ووجد أمثال هذه الأسماء اللينة الحلوة كصبح ، وغزلان ، ودعجاء ، وطروب (٣) .

كما وجد أمثال الذلفاء والرباب ولميس ، وحسن الورد(٤) .

وعصرنا يعج بأمثال هذه الأسماء الرقيقة الوديعة ، كآمال ونوال ومهجة وإيناس ، وكوثر ، وإحسان ، وسلوى ، ومها ، ونجلاء ، وسُها ، ولواحظ وغصن البان ، وتغريد إلخ . .

وللشعراء — كما يقول ابن رشيق(٥) — أسماء تخف على ألسنتهم ، وتحلو فى أفواههم ، كثيرا ما يأتون بها زورا : نحو ليلى ، وهند ، وسلمى ودعد ، ولبنى ، وعفراء ، وأروَى ، وريى ، وفاطمة ، ومية ، وعلوة ، وعائشة ، والرباب ، وجمل ، وزينب ، ونُعم ، وأشباههن .

---

(١) سر الفصاحة — ٦٤ وبوزع كجوهر .

(٢) العمدة — ٢ — ٩٨ .

(٣) مقدمة طوق الحمامة — ق

(٤) الذخيرة — ١ — ١٠٤ — ٢٧٣ -٢- — ٣٦٥ .

(٥) العمدة — ٢ — ٩٨ .

ولذلك قال مالك بن زغبة الباهلى — أنشده الأصمعى — :

وما كان طِبىٌّ حبّها غير أنه يقام بسلمى للقوافى صُدورها(١)

وأما «عزة» و «بثينة» ، فقد حماهما «كثير» و «جميل» حتى كأنما حرما على الشعراء .

وربما أتى الشعراء بالأسماء الكثيرة فى القصيدة ، إقامة للوزن وتحلية للنسيب كما قال جرير :

أجَدَّ رواحُ القوم بل لات روّحو نعم كل من يُعنَى «بجُمل» مُبَرَّح(٢)

ثم يقول بعد بيت :

إذا سايرت أسماءُ يوما ظعينةً فأسماء من تلك الظعينة أملح(٣)

وكلما كانت اللفظة أحلى ، كان ذكرها فى الشعر أشهر ، اللهم إلا أن يكون الشاعر لم يزور الاسم ، وإنما قصد الحقيقة لإقامة الوزن ، فحينئذ لاملامة عليه ، مالم يجد فى الكنية مندوحة .

وقد كشف الجاحظ عن سر دقيق فى حب العرب لتكنية البنات فقال : (٤) وربما كان اسم الجارية غُلَيِّم وصُبَيّة وما أشبه ذلك ، فإذا صارت كهلة جزلة ، وعجوزا شهلة(٥) ، وحملت اللحم ، وتراكب عليها الشحم ، وصار بنوها رجالا ، وبناتها نساء ، فما أقبح حينئذ أن يقال لها : ياغليم ، كيف أصبحت ؟ وياصبية ، كيف أمسيت ؟

ثم يقول : ولأمر ما ، كنّت العرب البنات ، فقالوا : فعلت أم الفضل وقالت : أم عمرو ، وذهبت أم نعم ، حتى دعاهم ذلك إلى التقدم(٦) فى تلك الكنى .

---

(١) طبى بكسر الطاء : عادتى وشأنى وشهوتى .

(٢) المبرح بتشديد الراء المفتوحة : من اشتد عليه الأذى .

(٣) الظعينة : فى الأصل : المرأة ما دامت فى الهودج ، ثم أطلق عليها مطلقا .

(٤) البيان والتبيين ـ ١ ـ ١٣٤ .

(٥) الشهلة : العجوز ، والنصف العاقلة ، خاص بالنساء .

(٦) التقدم : الإكثار

وعلى كل لا يعاب على الشاعر أن يذكر الاسم — مادام ذلك صحيحا — وإنما يكره الثقل فى الأسماء المستعارة(١) .

ويجب كذلك ألا يقع الاسم حشوا ؛ كما وقع فى قول أبى تمام :

يقول أناس فى حُبَيْنَاء عاينوا عِمارةَ رحلى من طريف وتالد(٢)

فليست هناك فائدة فى ذكر حبيناء ، وليس أبو تمام مضطرا لذلك(٣) .

ولعل أقبح أمثلة هذا النوع وأنكرها ، وأبعدها من سمات البلاغة : قول المتنبى فى مدح سيف الدولة :

فأنت حسام الملك والله ضارب وأنت لواء الدين والله عاقد

وأنت أبو الهَيْجا بنُ حمدانَ يابنَه تشابه مولود كريم ووالد(٤)

وحَمدانُ حَمدونٌ وحَمدونُ حارث وحارثُ لقمانٌ ، ولقمانُ راشد(٥)

أولئك : أنيابُ الخلافة كلها وسائرُ أملاك البلاد : الزوائد(٦)

ومن الغريب أن الخفاجى لا يرى هذا التكرار قبيحا ، لأن المعنى المقصود لا يتم إلا به ، وقد اتفق أن ذكر أجداد الممدوح على نسق واحد من غير حشو ولا تكلف ، لأن أبا الهيجاء هو عبد الله بن حمدان بن حمدون ابن الحارث ابن لقمان بن راشد ، ولو ورد هذا الكلام نثرا لم يزد على هذه الصفة ، فلما عرض فى هذا التكرار معنى لا يتم إلا به ، سهل الأمر فيه . وكان البيت مرضيا غير مكروه(٧) .

---

(١) الطراز — ١ — ١ ٢٨ .

(٢) الرحل : المسكن ، وما تستصحبه من الأثاث.

(٣) سر الفصاحة — ٦٥ .

(٤) الهيجا والهيجاء : الحرب تمد وتقصر ، وأبو الهيجاء : كنية عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، يريد أنت أبو الهيجا يا بن أبى الهيجا .

(٥) هؤلاء أسماء آباء سيف الدولة : أى كل واحد هو أبوه فى صفاته .

(٦) أى هم للخلافة بمثابة الأنياب للسبع فى الحماية والمنعة ، وغيرهم لا فائدة منهم .

(٧) سر الفصاحة — ٩٥ .

وعندى أن هذا أقبح القبح ! وليس هنالك عذر واضح للمتنبي فى ارتكابه. إلا التفاصح بنظم مالا يسوغ نظمه .

ولا أرى معنى يفوت بعدم ذكر هذه الأسماء على هذا النسق الغريب المنكر ، فسيف الدولة ، ليس بخامل النسب ، ولا آباؤه نكرات فى العرب حتى ينوه بهم على هذه الصورة السمجة ! ومثل ذلك يذكره المؤرخ حين يترجم ، لا الشاعر حين يمدح ، وما للشعر وهذه الحقائق الجافة ، التى لا تختلف عن سرد الأعداد ، والتى تذهب بغضارته ومائه ، وتلحقه بمسائل الحساب والهندسة ! .

وقد وسمه ابن رشيق بالتعسف[1] ، وعدّ من التقصير فى المعنى : أنه جاء به فى بيتين .

ثم تهكم عليه ما شاء : بأنه جعلهم أنياب الخلافة وهم سبعة بالممدوح، والأنياب فى المتعارف : أربعة إلا أن تكون الخلافة تمساح نيل ، أو كلب بحر ، فإن أنياب كل واحد منهما ثمانية ؛ اللهم إلا أن يريد أن كل واحد منهم ناب الخلافة فى زمانه خاصة ، فإنه يصح .

والحق : أن « أنياب » كريهة أينما وقعت ، ولا تعد من الألفاظ الشعرية فى مغدى ولا مراح ، وكان للمتنبي مندوحة عنها بقوله : أركان الخلافة أو آساد الخلافة وما إلى ذلك .

وإذا قبحت (أنياب) فى المدح ، فهى فى الغزل والنسيب أقبح ، وقد وقعت فى كلام كثير من الشعراء ، كقول ابن ميّادة[2] :

كأن على أنيابها المسك شابه ... بُعَيْد الكرى من آخر الليل عابق[3]

---

(١) العمدة — ٢ — ٦٨ .

(٢) نهاية الأرب — ٢ — ٥٦ .

(٣) فى رواية : كأن على أنيابها الخمر شجه ... بماء الندى فى آخر الليل عابق

وما ذقته إلا بعينى تفرُّسا   كما شِيم فى أعلى السحابة بارق

وكقول جميل(١) .

خليليّ عوجا اليوم حتى تسلِّما   على عذبة الأنياب طيبة النَّشر

وقول ابن أبى ربيعة(٢) .

ألا حبذّا حبذا حبذا   حبيب تحملت منه الأذى
وياحبذا بَرْد أنيابه   إذا أظلم الليل واجلوّ ذا(٣)

وقد ذكر ابن رشيق فى الشعر المتقدم مزية للمتبنى على غيره ، وهى : أنه جعل كل ابن : هو أبوه فى الخلافة إلى أن بلغ « راشدا » ولم يقصد إلى ذلك أحد من أصحابه .

وإنما مقت شعره هذا بتكريره كل اسم مرتين فى بيت واحد ، وهى أربعة أسماء(٤) .

وكما يجىء الاطراد فى الجد ، كذلك يجىء فى الهزل ، ويكون فى العادة خفيفا لطيفا، ومن أشهر ذلك قول ابن مهديّ الكسروى فى ضرطة سليمان بن وهب(٥) :

إن وهب بن سليما   ن بن وهب بن سعيدِ
حل الضرطة للرّى   على ظهر البريد(٦)

---

(١) تزيين الأسواق — ٣٥

(٢) الكامل للمبرد — ٨ — ٢٧٨.

(٣) اجلوذ : امتد. وشجه : مزجه.

(٤) العمدة — ٢ — ٦٨

(٥) كانت هذه الضرطة بحضرة عبيدالله بن خاقان ، وقد تناولها كثير من الشعراء بالقول — معجم الأدباء — ٥ — ٩٢ — ٩٦ وانظر ثمار القلوب للثعالبى.

(٦) الرى بفتح الراء : مدينة. والنسبة إليها رازى .

في مهمّات أمــور منه بالركض الشديد(١)

ومما جاء من الاطراد في القرآن الكريم . قوله — تعالى — حكاية عن يوسف الصديق — عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام : « واتّبعت ملة آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوب » .

وقوله — عز وجل — حكاية عن أولاد يعقوب — عليه السلام — : « قالوا : نعبُد إلهك وإله آبائك إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق » .

وذهب العلوى : إلى أن ذكر الأمهات والجدات ، ليس ممدوحا عند البلغاء وأهل العلم بالمدائح الشعرية : لمــا فيه من الركة وإنزال قدر الممدوح .

ثم يقول : وقد عيب على أبي نواس في مدحه لمحمد الأمين ، ذكره لأمه في مدحه ، حيث قال :

أصبحت يابن زبيدةَ بنة جعفر أملا لعـقد حباله استحكام

فإن هذا مما يعد في القبح في مثل هذا المقام .

وكذا قوله :

وليس كجدتيه أم موسى إذا نُسبت ولا كالخيزُران

وإنما كان هذا مكروها ، لأن شرف الإنسان ، إنما يكون بالرجال لا من جهة النساء(٢)

وهو كلام ظاهر البطلان ، فليس ذكر النساء في المدح مذموماً على إطلاقه ، فقد مدح كثير من الملوك والأشراف بأمهاتهم ، وهذا حسان بن ثابت يقول في آل جفنة الغساسنة :

---

(١) معاهد التنصيص — ٢ — ٦٩

(٢) الطراز — ٣ — ٩٤

أولاد جفنة حول قبر أبيهمُ ... قبر ابن مارية الكريم المفضل[١]

وهى مارية ذات القرط الذى ضرب به المثل ، فقيل : قرط مارية .

ويقول جرير فى مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز :

فما كعب ابن مامةَ وابن أروَى ... بأجودَ منك ياعمر الجوادا

وفى رواية : وابن سعدى .

وكثير من الخاصة نسبوا إلى أمهاتهم ؛ منهم المنذر بن الأسود اللخمى، وأمه : ماء السماء[٢] ؛ سميت بذلك لحسنها .

وأولاد إلياس بن مضر ينسبون إلى أمهم خِندف كزبرج ، وهى ليلى بنت حُلوان .

وكثيرمن الناس ينسب إلى تُجيب بوزن تقيم ، وهى امرأة ينسب إليها أولادها ؛ وهم حى يمنى عظيم .

وسلول : فخذ من قيس ، وهم بنو مرة بن صعصعة ، وسلول : أمهم .

ويقال للأوس والخزرج : ابنا قيلة بفتح القاف وإسكان الياء ؛ وهى أمهما وبها يفاخران .

وحسان بن ثابت يعرف بابن الفريعة بجهينة ، وهى أمه .

وطلحة بن عبيد الله يعرف با بن الحضرمية .

ومحمد بن على بن أبى طالب ، يعرف بمحمد بن الحنفية .

ونسب كثير من الشعراء العشاق إلى محبوباتهم ، حتى غلب ذلك عليهم .

---

(١) يريد « بقبر أبيهم » : أنهم ملوك مقيمون لاينتجعون غيرهم ، ولا يرحلون عن بلادهم

(٢) مروج الذهب ــ ١ ــ ٢٩٣ .

وتنوسى آباؤهم ، بجميل بثينة ، وكثير عزة ، وقيس ليلى ، وقيس لبنى .

وجرى الفخر كثيراً بالنساء ؛ فقال الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — : «أنا ابن الفواطم من قريش ،والعواتك من سُليم[1] .»

ومن فخر عبد الله بن الزبير على معاوية : ... وإن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق،وأمك هند آكلة الأكباد ... وعمتي خديجة ذات الخطر والحسب ، وعمتك أم جميل حمالة الحطب ... وجدتي صفية ، وجدتك حمامة ... و خالتي عائشة أم المؤمنين ، و خالتك أشقى الأشقين[2].

ولما أخبر علي بقتل الزبير — رضي الله عنهما — في وقعة الجمل ، قال : بشروا قاتل ابن صفية بالنار .

وصفية أم الزبير : بنت عبد المطلب بن هاشم .

ويذكرون : أن معاوية أعطى الحسن بن علي أعطيات جزيلة في بعض زيارته له ، فقال له — وهو يقدمها — : خذها وأنا ابن هند!

فقال له الحسن : رددتها عليك وأنا ابن فاطمة !

والشواهد على ذلك كثيرة .

فليس شرف الإنسان يكون من جهة الرجال فقط ، بل يكون من جهة النساء أيضاً ، بل لعله من جهة النساء أكثر وأهم.

وقد لقبوا من أبوه أشرف من أمه بالهجين .

---

(١) الفواطم : واحدة قرشية ، وقيسيتان ، ويمانيتان،وأزدية،وخزاعية ، والعواتك : ثلاث من سليم،والبواقي من غير سليم .

(٢) العقد الفريد — ١—٣٢ .

وكانت بنو أمية لاتولى الخلافه إلا عربياً أباً وأما ، لحرم منها لذلك « مسلمة بن عبد الملك» وكان يلقب بفتى العرب فروسة ونجدة وهمة وكرما.

وحينما انتصر العباسيون على الأمويين ، وتهيأ الملأ لمبايعة أول خليفة منهم ، قال أبو مسلم الخراسانى :أيكم ابن الحارثية ؟

فبايع لعبد الله السفاح ؛ لأن أمه كانت عربية من بنى الحارث بن كعب من اليمن ، ولم يبايع للمنصور مع أنه كان أكبر سناً منه .

ومثل هذا حدث للأمين مع المأمون ؛ مع أن المأمون أسن وأرشد؛ لأن الأمين : ابن زبيدة العباسية بنت عم الرشيد .

و«الأمين» بخاصة كثيراً ما كان يضاف إلى أمه، ولما بايع الرشيد له بولاية العهد قال سَلم الخاسر :

قل للمنازل بالكثيب الأعفر ‏ ‏ ‏ سُقيت بغادية السحاب الممطر

قد بايع الثقلان مهدىّ الهدى ‏ ‏ ‏ لمحمد بن زبيدة بنة جعفر

لحشت زبيدة فاه دراً ، باعه بعشرين ألف دينار[1] .

ولو كان الأمين رأى فى مثل هذا المدح هُجنة ، لرده ووبخ الشاعر عليه كما كان يحدث من الخلفاء والأمراء فى مثل هذه المواقف ، وقد كانوا عرباً يفهمون الشعر ويتذوقونه ، ويفرقون بين غثه وسمينه .

ولو أُخذ هذا على أبى نواس لرجع عنه ، ولكننا نعرف أنه مدح بذكر النساء كثيراً ، وهذا يدل على أن ممدوحيه ، ونقاد عصره رضوا هذا المدح .

ولو نظرنا فى المدح بالنساء ، نجد أن قوام الأمر فى ذلك أن يكنّ مشهورات ذوات ذكر سائر ، وصفات حميدة متعارفة ، وأقدار خطيرة ؛

---

(١) وفيات الأعيان — ١ — ٣٠٤ .

مثل فاطمة الزهراء ، وأسماء ذات النطاقين ، وهند بنت عتبة ، وصفية بنت عبد المطلب ، وزبيدة بنت جعفر العباسية ، وأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان الأموية ، لأنهن معروفات للخاص والعام ، فليس فى ذكر أسمائهن عيب ، هذا إلى أنهن يشرفن من ينتسب إليهن ، وبعضهن كن ملكات أو شبه ملكات وإن لم يلقبن بذلك ، فهن يقاسمن أزواجهن أبهة الملك ، وسناء الخلافة ، بل بعضهن كان نفوذها يحجب نفوذ زوجها ، كالخيزران زوج المهدى ، وأم الهادى والرشيد ، وقبيحة[1] زوج المتوكل ! وأم ولده المعتز .

ولا أدرى كيف يكون شرف الإنسان من قبل أبيه فقط ، وهو يهجى بأمه كما يهجى بأبيه ؟

---

(١) سميت بذلك ، لأنها كانت أجمل أهل زمانها من باب تسمية الأضداد .

الفصل السابع

التوءم

هذا الباب مما استنبطه أبو إسحاق[1]، وسماه التشريع، وفسره بأن قال: هو أن يبنى الشاعر البيت من الشعر، والناثر الفصل من النثر على قافيتين، إذا اقتصر على الأولى كان للشعر وزن غير وزنه، إذا أتى بعد الأولى بالقافية الثانية.

ولا يختلف الوزن إلا من جهة الضروب، وإلا فالشعر لابد أن يكون من بحر واحد، والقافيتان يجوز تماثلهما، ويجوز اختلافهما، وكذلك يكون الحكم فى الفصل من النثر، فإنه إذا اقتصر فيه على السجعة الأولى كان الكلام تاما مفيداً، وإن ألحقت بها السجعة الثانية، كان فى التمام والإفادة على حاله، مع زيادة معنى مازاد من اللفظ[2].

وعرفه غيره: بأنه بناء البيت على قافيتين، يصح المعنى بالوقف على كل واحد منهما (٣).

فإذا أسقط من أجزاء البيت جزء أو جزءان، صار ذلك البيت من وزن آخر غير الأول.

ولا عيب فى هذا التعريف، إلا أنه غير جامع، لأنه لا يعم ما بنى على أكثر من ذلك، فكان الأحسن أن يقال: هو بناء البيت على قافيتين أو أكثر، ليشمل مازاد على قافيتين (٤).

---

(١) هو أبو إسحاق الإجدابى: إبراهيم بن إسماعيل الطرابلسى.

(٢) بديع القرآن لابن أبى الإصبع.

(٣) الإيضاح ـ ٢٨١ ـ إتمام الدراية ـ ١٦٩.

(٤) التجريد ـ ٤ ـ ٤٤٩.

وقد روى عن بعض الشعراء : أنه كان ينظم القصيدة على ثلاثة أبحر من الشعر ، ثم يُنشد كل واحدة منها على حياله مخالفا للآخر .

واقترح عليه بعض أصحابه أن يصنع مثل ذلك . فصنعه وأجاد فيه[1] .

ولكن لعل الخطيب — وهو صاحب هذا التعريف — رأى ما بنى على أكثر من قافيتين ضربا من التكلف ، فلم يدخله فى حسابه ، ولذلك لم يمثل له .

وللتوءم أسماء كثيرة ؛ منها : التشريع .

وقد اعترض على هذه التسمية ابن السبكى ، فقال : إنها عبارة لا يناسب ذكرها ، فإن التشريع قد اشتهر باستعماله فيما يتعلق بالشرع المعظم ، فكان من اللائق اجتنابها[2] .

وهذا القول غلو فى التزمت ، وإقحام للدين فى مسائل لا تمس جوهره من قرب أو بعد .

وغريب أن يصدر من صاحب « عروس الأفراح » ، فقد عهدناه من أوسع المتأخرين أفقاً فى تصور البلاغة ، وأكثرهم إدراكا لحقائقها .

وقد سماه ابن الأثير : « التوشيح » .

وبنى تعريفه على هذه التسمية ، فقال : هو أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على بحرين مختلفين ؛ فإذا وقف من البيت على القافية الأولى ، كان شعراً مستقيما من بحر على عروض .

وإذا أضاف إلى ذلك ما بنى عليه شعره من القافية الأخرى ، كان أيضاً شعراً مستقيما من بحر على عروض ، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح[3] .

---

(١) الطراز — ٣ — ٧٢ .
(٢) التجريد — ٤ — ٤٤٧ .
(٣) المثل السائر — ٣١٠ .

وجرى العلوى فى طريق ابن الأثير — كما هى عادته — فسماه: «التوشيح» أيضاً ، ثم علل التسمية بقوله : اعلم أن هذا النوع إنما لقب بالتوشيح ؛ لأن معناه أن يبنى الشاعر قصيدته على بحرين من البحور الشعرية ، فإذا وقف على القافية الأولى ، فهو شعر كامل مستقيم ، وإذا وقف على الثانية كان بحراً آخر ، وكان أيضاً شعراً مستقيما من بحر آخر ؛ فلما كان ما يضاف إلى القافية الأولى زائداً على الثانية سمى :توشيحاً ، لأن الوشاح :ما يكون من الحلى على الكشح زائداً عليه .

ثم أردف قائلا : ويقال له : التشريع أيضاً ، لأن ما هذا حاله من الشعر ، فإن النفس تشرع إلى تمام القافية وكمالها[1] .

وسماه بعض البلغاء : « التوشيح وذا القافيتين معاً » .

وعلى هذا الأخير اقتصر الوطواط[2] ، وهو أنسب الأسماء[3] ؛ لأنه اسم يدل على مسماه ، ويعرب عن حقيقته ، ويغنى عن تعريفه .

واختار ابن أبى الإصبع : اسم « التوءم » .

وأراد بذلك مطابقته للمسمى ، لأن التوءم فى اللغة : المولود مع غيره فى بطن : من الاثنين فصاعدا ذكراً أو أنثى .

وهنا قافيتان أو أكثر ، كل واحدة توءم لغيرها[4] .

وكذلك سماه السيوطى: التوءم[5] .

---

(١) الطراز — ٣ — ٧٠ .
(٢) حدائق السحر — ١٥٧ .
(٣) التجريد على السعد — ٤ — ١٤٧ .
(٤) خزانة الأدب للحموى — ١٤٩ .
(٥) الإتقان — ٢ — ١٦٨ .

مثاله من القسم الأول — وهو ما بنى على قافيتين — قول الحريرى فى المقامة الثالثة والثلاثين من أبيات فى ذم الدنيا :

يا خاطبَ الدنيا الدنية إنها شركُ الردى ، وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت فى يومها أبكت غدا ، تبًّا لها من دار[1]
وإذا أظل سحابها لم يُنتقع منه صدًى ؛ لجهامه الغرّار[2]
غاراتها ما تنقضى ، وأسيرها لا يُفتدى ، بجلائل الأخطار

فهذه الأبيات من الضرب الثانى من البحر الكامل ؛ لأنه مقطوع .

والقطع : إسقاط ساكن الوتد المجموع ، وهو حرفان يليهما ساكن ، وتسكين المتحرك الثانى ؛ كأن تسقط نون « متفاعلن » وتسكن « اللام » فتصير « متْفاعلْ » نحو : أكدارى .

وإن وقفت على « الردى . وغدا » إلى آخره ، صار البيت من الضرب الثامن من الكامل أيضاً ؛ لأنه مجزوء .

وتفاعيله حينئذ أربعة ؛ ومصراعه على الياء الأولى من « الدنية » . ويكون الشعر هكذا :

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى
دار متى ما أضحكت فى يومها أبكت غداً
وإذا أظل سحابها لم ينتقع منه صدى
غاراتها ما تنقضى وأسيرها لا يُفتدَى

ولمؤيد الدين الطغرائى من قصيدة عدتها خمسة عشر بيتا — يمدح بها الوزير نظام الملك —[3] .

(١) تبالها : أى هلاكا . وفى رواية : بعدا لها .
(٢) لم ينتقع : لم يرو ولم يسكن . والجهام كسلام : السحاب لاماء فيه .
(٣) النجوم الزاهرة — ٥ — ٢٢٠ .

يأيها المــولى الذى اصطنع الورى ، شرقا وغربا
والمستعان على الزما ن إذا اعترى ، وأجدّ جدبا(١)
أقسمت بالبُزْل النوا فخ فى البَرَى ، قُودا وقُبّا(٢)

. . . .

والقافية الأولى : كلمة « الورى » و « اعترى » و « البرى » .

والثانية « غرباً » وجدبا » و « قبا » وهكذا .

كأن يقول :

يأيها المولى الذى اص طنع الورى
والمستعان على الزما ن إذا اعترى
أقسمت بالبزل النوا فخ فى البَرَى

والقصيدة كلها على هذا المنوال .

وقد كان الطغرائى معاصراً للحريرى ، ولا يدرى منهما من السابق فى ذلك :

ولأبى الحسين بن سعد الكاتب قصيدة(٣) من هذا النوع :

وقَيْنة وصلتها بطاهر مُسوَّد ، تِرب العلا نجيب(٤)
إذا غوت أرشدتها بخاطر مُسدَّد وهاجس مصيب(٥)
وبلدة قطعتها بضامر خفَيْدد ، عَيرانةٍ رَكوب(٦)

---

(١) اعتراه : غشيه . وأجد : أحدث .

(٢) البزل : جمع بازل ، وهو البعير والناقة يدخلان فى السنة التاسعة . والبرى بالفتح : التراب . والقود : بضم القاف : طوال الأعناق، جميع أقود كأسود . والقب بوزن حمر : الضمر البطون جمع أقب .

(٣) معجم الأدباء — ٣ — ٤٤ .

(٤) الترب بالكسر : من ولد معك .

(٥) الهاجس : مايخطر بالبال .

(٦) الخفيدد: السريع. والعيرانة: السريعة فى نشاط . والركوب بالفتح: الذلول .

وليـــلة سهرتهـــا لزائر ومُسْعد ، مُواصل حبيب
وقهوة باكرتها لفاجر ذى عَتَد ، فى دينه ، وَروب(١)
سَوْرَتُها كسرتُها بماطر مبرَّد ، مِن جمَّة القليب(٢)
وحرب خصم بخْشُها بكاثر ذى عَدَد فى قومه مَهيب(٣)
مُعَوَّدا ، بل سفْتها بباتر مهند ، يفرى الطُّلَى رسوب(٤)
وكم حظوظ نلتها من قادر مُمَجَّد ، بصنعه الغريب
كافيه إذ شكرتُها فى سامر ومَشْهد للملك الرقيب

ويمكن الاكتفاء بالقافية الأولى « خفيدد » و « مسعد » و «مسود» و « مسدد » « وذى عتد » إلى آخر القصيدة .

بل إن ياقوتا يقول : إنها على أربع قواف ؛ كلما أفردت قافية ، كان شعراً برأسه إلى آخر الأبيات(٥) .

فنقول :

وبلدة قطعتها بضامر خفيْدد
وليلة سهرتها لزائر ومُسْعد
وقينةوصلتها بطاهر مسوَّد
وقهوة باكرتها لفاجر ذى عتد

---

(٥) ذى عتد : شديد . والوروب بوزن : غفور المخادع .
(٦) السورة بفتح السين : الحدة . والجمة بالضم : معظم الماء ، والقليب : البئر .
(٧) بخشها : أطفأتها ؛ مضمن معنى أباخ المتعدى ، والكاثر : ذو الكثرة فى الرجال والمال .
(٨) معودا : حال حذف معموله : أى معودا ذلك ، وسافه : ضربه بسيفه . ويفرى : يشق . والطلى كعلا : الأعناق ، جمع طلية بالضم .
(٩) معجم الأدباء ـ ٣ ـ ٤٤ .

وكذا قول صفى الدين الحلى - وهو من البسيط — :

فلو رأيت مصابى عندما رحلوا رثيت لى من عذابى يوم بينهم

ومنه يخرج هذا البيت من مجزوء المجتث :

فلو رأيت مصابى رثيت لى من عذابى

والحسن فيه أظهر من أصله ، فقد خلا من الحشو والفضول الذى شان الأصل ، « فمصابى » تنوب عن «عذابى » و « عند ما رحلوا » تنوب عن « يوم بينهم » :

هذا إلى التصريع الجميل الخفيف الروح الذى جاء من غير تكلف .

ولا شك أن من الاتفاق الغريب : أن يستنبط بيت من بيت ، فيأتى أحسن من سابقه .

وقول ابن جابر الأندلسى :

من لى بآنسة ينام لحاظها من غير نوم ، بل تتيه وتفتن
قالت : ألست تخاف حين تزورنى سطوات قومى ، كم تبوح وتعلن
فأجبتها فى نيل وصلك لم أكن لأخاف لومى ، فهو عندى هين

وهو يأتى كما يلى :

من لى بآنسة ينا م لحاظها من غير نوم
قالت ألست تخاف حي ن تزورنى سطوات قومى
فأجبتها فى نيل وصـ لك لم أكن لأخاف لومى

وقول أبى جعفر الغرناطى :

يا راحلا يبغى زيارة « طيبة » نلت المنى بزيارة الأخيار[1]

---

(١) طيبة بفتح الطاء : المدينة المنورة كطابة وطيبة بتشديد الياء المكسورة ، والمطيبة بتشديد الياء المفتوحة

حيّ «العتيق» إذا وصلت وصف لنا وادى «منى» ياطيّب الأخبار[١]
وإذا وقفت لدى «المعرّف» داعياً زال العنا وظفرت بالأوطار[٢]

ويمكن أن نقول :

يا راحلا يبغى زيا رة طيبة نلت المنى
حى العقيق إذا وصلـ ت ،وصف لنا وادى منى
وإذا وقفت لدى المعرّ ف داعياً زال العنا

ومن الحسن الجيد : قول بعضهم :

أسلمْ ودمت على الحوادث مارسا ركنا ثبير ، أو هضابُ حراء[٣]
ونل المراد ممكناً منه على رغم الدهور ، وفزْ بطول بقاء

ويمكن أن نقول :

اسلم ودمت علىْ الحوا دث ،ارساً ركنا ثبير
ونل المراد ممكناً منه على مر الدهور

وليس هذا النوع — كما يتوهم — من اختراع المحدثين ، فقد جاء فى شعر العرب .

قال ابن سلام[٤] : سمعت سلمة بن عياش يقول : تذاكرنا جريراً والفرزدق ، والأخطل ، فقال قائل : من مثل الأخطل ؟ ! إن كان فى كل بيت له بيتان ، إذ يقول :

---

(١) العقيق : واد بظاهر المدينة ، ومنى : موضع بمكة مذكر مصروف.
(٢) المعرف بتشديد الراء المفتوحة : الموقف بعرفات .
(٣) ثبير : جبل بمكة .
(٤) طبقات الشعراء ـ ١٨٥ ـ ١٨٦ .

ولقد علمت إذا الرياح تروَّحت هَدَجَ الرئال، تَكبُّهن شمالا(١)
أنا نعجِّل بالعبيط لضيفنا قبل العيال، ونقتل الأبطالا(٢)

وفى بعض الروايات :

ألفيتنا نَقرى العبيط لضيفنا .

ولو شاء لقال :

ولقد علمت إذا الريا ح تروَّحت هدَج الرئال(٣)
أنا نعجِّل با لعبيـ ـط لضيفنا قبل العيال

فلكل منهما قافيتان .

والبيتان فى الأصل من الضرب التام المقطوع من « الكامل » « على تمام أجزائه » .

وبالاقتصار على « الرئال » و « العيال » يصيران إلى الضرب المجزوء المرفل من «الكامل » أيضاً(٤) .فى كل بيت فى حال التمام قافيتان مقدرتان

---

(١) تروحتهم : أى صادفتهم وقت الرواح : والرئال كسباع : جمع رأل كرأى: صغار نعام . والهدج : بفتح الهاء والدال : المشى فى ارتعاش ؛ وهو مشى النعام .

(٢) العبيط : السمين الفتى المذبوح على غير علة .

(٣) فى خزانة الأدب للحموى — ١٤٩ .

وإذا الرياح مع العشى تناوحت هوج الرمال بكثبهن شمالا
ألفيتنا نقرى العبيط لضيفنا قبل القتال ، ونقتل الأبطالا

وفى معاهد التنصيص — ١٠٣ :

وإذا الرياح مع العشى تناوحت هوج الرئال تكبهن شمالا

والتحريف ظاهر فى الروايتين .

(٤) الترفيل : أن يزاد فى البحر الكامل سبب على « متفاعلن » فيصير: «متفاعلاتن» والسبب : حرف متحرك وحرف ساكن .

على تساوى القافيتين فى حال الاقتصار فى الردف ، وتماثلهما فى الروى وإن اختلف المجرى فيهما .

وأنت لا تشك فى أن الأخطل لم يتكلفه ، ولم يفكر فيه ، بل وقع فى شعره من غير قصد ، ولعله لم يفطن إليه بعد وقوعه .

وهذا واضح فى نسج الشعر ، وانسيابه سمحاً سهلا متدفقاً ، كأنه أعناق السيل .

وواضح أيضا فى أن الفرع لا يقل عن أصله فى حسن السبك ، ورونق الديباجة ، حتى ليظن أنه نظم مستقلا .

ولم يشترط الوطواط : أن يتزن الباقى من الشعر ويصير على وزن آخر بعد حذف ما يحذف منه ، بل اشترط فقط : أن تكون للقصيدة أو المقطوعة قافيتان متجاورتان ، مثل قول مسعود بن سعيد :

يا ليلة أظلمت علينا لبلاء قارِيَّة الدُّجنَّه(١)

قد ركضت فى الدجى علينا دُهما خُدارية الأعنَّه(٢)

فبت أقتاسها فكانت حبلى نهارية الأجنَّه(٣)

ففى هذه القطعة نجد القافية الأولى : « قاريه » و «خداريه» و نهاريه والقافية الثانية : «دجنه» و أعنه » و أجنه ».

ولا شك أن هذا الضرب أقل تكلفاً من سابقه ، وأسهل نظما .

---

(١) القارية : منسوبة إلى القار . والدجنه بتشديد النون وتخفف : الظلمة .

(٢) الدهم : السود . والخدارية بالضم : العقاب ؛ شبهها فى السواد بالخيل الدهم ، وفى السرعة بالعقاب

(٣) حدائق السحر ١٥٧ .

ومثال ما بنى على أكثر من قافيتين : قول الحريرى — وهو من أول الكامل — :

جودى على المستهتر الصبّ الجوى وتعطّفى بوصاله وترحّمى (١)
ذا المبتلَى المتفكر القلب، الشجى ثم اكشفى عن حاله لاتظلمى (٢)

قال الفنرى : وهذه الأبيات على قواف عدة .

الأولى : رائية فى «المستهتر» و «المتفكر» .

والثانية : «بائية» فى الصب و «القلب» .

والثالثة : يائية فى «الجوى» و «الشجى» وعلى هذا القياس(٣) .

وتفصيل ذلك : أنه يمكن أن يقال من منهوك الرجز :

جودى على المستهتر ذا المبتلى المتفكر

ومن مشطور الرجز الأجدّ :

جودى على المستهتر الصب الجوى ذا المبتلى المتفكر القلب الشجى

ومن مشطور الرجز :

جودى على المستهتر الصب الجوى ذا المبتلَى المتفكر القلب الشجى(٤)

ومن مجزوء الرجز :

جودى على المستهتر الصب الجوى وتعطفى

ذا المبتلى المتفكر القلب الشجى ثم اكشفى

---

(١) الجوى بكسر الواو على وزن فعيل : من يحس الجوى بفتح الواو ، وهو الحرقة من عشق أو حزن والمستهتر بالشئ بالفتح : المولع به لا يبالى بما قيل فيه .

(٢) الشجى بالتخفيف وفى الشعر بالتثقيل: الحزين.

(٣) التجريد : — ٤ — ٤٤٩ .

(٤) التقرير للأنبابى — ٤ـ٤٤٩ ـ بغية الإيضاح ـ ٤ـ٩٦ .

ويمكن أن تكون هائية فى « وصااه » و « حاله » :

جودى على المستهتر الصب الجوى وتعطفى بوصاله

ذا المبتلَى المتفكر القلب الشجى ثم اكشفى عن حاله

وقول ابن جابر الأندلسى :

يرنو بطرف فاتر . مهما رنا فهو المنى . لا أنتهى عن حبه

يهفو بغصن ناضر . حلو الجنى يشفى الضنى. لاصبر لى عن قربه

لو كان يوما زائرى . زال العنا يحلو لنا . فى الحب أن نُسمى به

أنزلته فى ناظرى . لما دنا قد سرّنا . إذ لم يَحُلْ عن صبه

فهذه الأبيات من « الضرب الأول من الرجز التام » .

ويصير من مجزوء الرجز :

يرنو بطرف فاتر مهما رنا فهو المنى

يهفو بغصن ناضر حلو الجنى يشفى الضنى

لو كان يوما زائرى زال العنا يحلو لنا

أنزلته فى ناظرى لما دنا قد سرّنا

ومن مشطور الرجز :

يرنو بطرف فاتر مهما رنا يهفو بغصن ناضر حلو الجنى

لوكان يوما زائرى زال العنا أنزلته فى ناظرى لما دنا

ومن منهوك الرجز :

يرنو بطرف فاتر فهو المنى لا أنتهى عن حبه

يهفو بغصن ناضر يشفى الضنى لاصبر لى عن قربه

لو كان يوما زائرى يحلو لنا فى الحب أن نُسَمَّى به

أنزلته فى ناظرى قد سرنا إذ لم يَحُلْ عن صَبِّه

ومن ذلك قول الأرَّجانى :

صب مقيم سائر فؤادُه   طوعَ الهوى مع الخليط المنجد(١)
غائب قلبٍ حاضر وداده   لمن نأوا فى عهدهم والمعهد(٢)
له جوى مُخامر يعتاده   إذا اشتكى طيف الكرى فى العُوَّد(٣)
اصبره مُكابِد إيقادُه   حشو الهوى بعد الحسان الخُرَّد(٤)
ودمعهُ مكاثر أسداده   خوف النوى يقول: «لُهُمَّ» ابعد(٥)

والأمثلة على ذلك كثيرة ، وقد اكتفينا بما لعله لا يبلغ غاية الثقل.

ويعد بحر الرجز أوسع البحور فى هذا النوع ، لأنه يستعمل تاما ومجزوءا ومشطوراً ومنهوكاً ، فيمكن أن يعمل للبيت منه أربع قواف .

فإذا ما أسقطت ما بعد القافية الأولى ، صار البيت منهوكاً .

وإذا ما أسقطت ما بعد الثانية ، صار مشطوراً .

وإذا ما أسقطت ما بعد الثالثة ، صار مجزوءا .

وإذا لم تسقط شيئا كان تاماً(٦) .

هذا وقد قدمنا : « أن التشريع » يسمى : « التوشيح » عند بعض البلغاء .

---

(١) الخليط : الشريك . والمنجد : من أتى نجدا أو خرج إليه .
(٢) المعهد : المنزل الذى لا يزال القوم يرجعون إليه إذا بعدوا عنه ، والموضع الذى كنت تعهد به شيئا .
(٣) المخامر : المخالط والعود : جمع عائد ، وهو زائر المريض .
(٤) الخرد : جمع خريدة ، وهى البكر لم تمس ، أو الخفرة الطويلة السكوت ، الخافضة الصوت ، المستترة.
(٥) لهم : أصلها : اللهم .
(٦) خزانة الأدب للحموى — ١٥٠ .

ونحب أن نبين هنا : أن التوشيح أطلقه بعضهم على نوع آخر من البديع .

فالتوشيح عند قدامة[1] : أن يكون أول البيت شاهدا بقافيته ، ومعناها متعلقا به ؛ حتى إن الذى يعرف قافية القصيدة التى منها البيت — إذا سمع أول البيت — عرف آخره ، وبانت له قافيته ، كقول الراعى النميرى :

وإن وزن الحصى فوزنت قومى وجدت حصى ضريبتهم رزينا[2]

فإذا سمع الإنسان أول هذا البيت ، استخرج منه لفظ قافيته ؛ لأنه يعلم : أن قوله « وزن الحصى » سيأتى بعده « رزين » لعلتين :

أحدهما : أن القافية فى القصيدة توجبه .

والأخرى أن نظام المعنى يقتضيه ، لأن الذى يفاخر برجاحة الحصى يلزمه أن يقول فى حصاه : إنه « رزين » .

وقول نُصيب :

فقد أيقنت أن ستزول ليلى وتحجب عنك إن نفع اليقين

فمن تأمل هذا البيت ، وجد أوله يشهد بقافيته .

وهو بهذا المعنى عند العسكرى والحلبى والحموى ، إلا أنه يشمل النظم والنثر معا .

ويزيد العسكرى على ذلك : أن تسميته توشيحا ، بعيدة عن معناه ، وأن الأقرب أن يسمى « تبيينا »[3].

وفسر النويرى معناه بقوله :هو أن يكون معنى الكلام يدل على لفظ

---

(١) نقد الشعر — ٩٩ .

(٢) الضريبة : السجية والطبيعة ، يصفهم برجاحة الحلم والوقار والثبات ؛ والحصى : العقول والآراء جمع حصاة ، وهو حصى كغنى بالتشديد : وافر العقل .

(٣) الصناعتين — ٣٧٢ — حسن التوسل — ٦٨ — خزانة الأدب — ١٦٢ .

آخره ؛ فيتنزل المعنى منزلة الوشاح ، ويتنزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليها الوشاح[1].

والتوشيح عند الوطواط[2] ، يختلف عن ذلك كثيراً ؛ فهو عنده: أن يورد الشاعر فى أول الأبيات ، أو وسطها حروفاً أو كلمات ، بحيث إذا جمعت بعينها أو مع تصحيفها ، خرج لنا منها بيت أو مثل «بفتح الثاء» أو اسم ، أو لقب من الألقاب .

قيمة التشريع :

حينما ننظر فى هذا النوع البديعى ، نرى أن قيمته لفظية محضة ؛ وهى هذه الموسيقية المزدوجة المتحدرة إلى أسماعنا من قافيتين أو أكثر : إحداهما: داخلة ، والأخرى : خارجة .

أما المعنى فيه ، فقلّ أن يناصره اللفظ ؛ لأن الشاعر يستهلك خاطره كله فى تسوية هذه الصنعة الشاقة المضنية ، التى تشبه عملا هندسياً دقيقاً ، يحتاج إلى حساب وتقدير ، وقياس ووزن ، لا يترك مكاناً للتفكير فى غيره .

ولسنا نقلل من قيمة التنغيم ، وعمق أثره فى النفس ، متى وصل إلينا صافياً عذباً مهذباً متقنا ، ولكنه فيما نحن بسبيله ، لا يرتقى أبداً إلى هذه المرتبة إلا فى الأقل النادر ، لأنه ينبعث من هياكل كلمات خاوية لا روح فيها ولا خصب ولا حياة !! كلمات ركبتها المعاظلة ، وضامها التعسف ، وشاعت فيها الغثاثة ، وتقطعت بينها الأسباب والأرحام ، وضُم بعضها

---

(١) نهاية الأرب — ٧ — ١٣٧ .

(٢) حدائق السحر — ١٦٠ .

إلى بعض قسراً واجتلاباً ؛ بلا توافق فى صيغة ، ولا تناسب فى بنية . ولا تلاؤم فى معنى .

فالشأن كله إذن : صنعة لا طبع ، وتعمُّل لا هبة ، وتلفيق لا بلاغة .

أما ما وراء ذلك مما يقوم به الكلام ، ويقاس به قدره ، فليس له أدنى حظ من الرعاية .

فعمل الشاعر هنا ، مردُّه : إلى المهارة اللفظية ، والقدرة على الرصف والاحتيال على البناء ، وبقدر نصيبه منها ، يكون إحسانه فيه إحساناً مجرداً من سمة الإلهام ، وومضة الوحى ، ورشح العاطفة ، وفيض الطبع ، إذ لا يتصور العقل : أن هذا النظم ـ الدقيق المسلك ، البالغ الكلفة ، الكثير التعقيد ، الذى يبنى بناء ، ويرصف رصفا ، ويفكر فى آخره قبل أوله ويختار لاحقه قبل سابقه ـ مما تسمح به النفس ، وتندى به القريحة من غير قصد ، إلا على الندرة فى البيت .

ولا خلاف : أن الضرب الأول منه — وهو ما بنى على قافيتين — أيسر صنعة ،وأخف مئونة ، وأدنى إلى القبول من الضرب الثانى .

والضرب الثانى — على ثقله إلى حدما فى أقل صوره — يزداد ثقلا بازدياد قوافيه .

وآية ذلك : أننا فى كل ما أوردناه منه ـ وهو المصفى المختار ـ لا نجد ديباجة أنيقة ، ولا خيالا بديعا ، ولا معنى دقيقا ، ولا صورة ناصعة ، تستوقف النظر،وتسترقُّ السمع .

هذا إذا قرأناه تاما ، فأما حين نمزقه إلى قوافيه الداخلية ، ونحيله

إلى ضروب أخرى من الأوزان : فإن سلوكه تَهى ، وروابطه تهن ، وعراه تنفصم ، ويشيع فيه التفكك والانحلال ، فلا ترى إلا مبعثرة هنا وهناك ، لا يمت بعضها إلى بعض بنسب ولا سبب .

وقد غلا بعض الشعراء فى ذلك ، وركب رأسه فيه ، حتى انتهى إلى ما يصح أن يسمى شعوذة ، لا يرضاها لنفسه الفنان الأصيل .

فمن ذلك ما نظمه « الرئيس بن عاصم » فى مـــدح السلطان « أبى الحجاج[1] » .

وهى قصيدة طويلة غريبة تتمخض فتلد بنتين ، وكل بنت تلد موشحة ؛ فتصبح القصيدة أماً لبنتين ، وجدة لحفيدتين !! .

وسنذكر فيما يلى نموذجاً لهذه القصيدة الولود غير الودود ، ونشير بالأقواس المفردة إلى إحدى البنتين ، وبالأقواس المــزدوجة إلى البنت الأخرى[2] :

أمَا والهوى « ماكنت » مذبان عهدُه
أهيم بـلقيا مَن (تناءَر) ودُّه
رعى الله من « لو أنصف » الصبّ فى الهوى
لما فاض منه (الدمع) مذبان صده
ولو جاد من بعد « المِطال » بزوْرة
لما شبّ أشــواقى وقلبىَ زَنده
كما خان صبرى يوم أصبح « واصلى
« لظى » زاد ماءً من (جفونىَ) وَقْده

---

(١) زهر الرياض فى أخبار القاضى عياس ـ ١ ـ ١٤٦ « تحقيق الميمنى .

(٢) كان العلماء يتواصون بوضع كلمات إحدى البنتين بين قوسين مزدوجين « » مكتوبة بخط أحمر ، وكلمات الأخرى بين هلالين ( ) مكتوبة بخط أخضر

كذاك أسال الدمع (كالدر) مدمعى
من « الوجد » فاستولى على الجفن مسهده
حكى لؤلؤا (من سلكه) متناثراً
و « إلا ليّ » قد تتابع عدّه
ذخرت (الثمينَ) القدر منه بمقلتى
وما زلت من خوف « النّكال » أعدّه
ولا عجب (مذ أعوزَ) القرب أن غدا
« وكالقمر الزاهى » سناه وبعده
أيلتحق بالشقا أو (الوصل) من يغـو
ر « فى نوره » بدر السماء وجنده
وصيّر جسمى للصبابة (والتلا
قى) مثل قلبى إذ تمكن وجده
أقطع أنفاسى « عليه كـ » آبة
ولله (من بدر) لغيرى سعده
فمن شعره « الليل البهيم » ومن سنا
مقبّله لـ (حسن) نور يمدّه

فالبيت الأولى الخارجة من الأقواس المفردة هى :

تناثر الدمع من جفونى كالدر من سلكه الثمين
مذ أعوزَ الوصل والتلاقى من بدر حسن بلاقرين

والموشحة المتولدة هى :

تناثر الدمع كالدر مذ أعوز الوصل من بدر

وتصير باختصار هكذا :

تنـاثر الدمع   مذ أعوز الوصل

والبنت الأخرى الخارجة من الأقواس المزدوجة :

ما كنت لو أنصفَ بعد المِطال   أصلى لظى الوجد الأليم النَّكال
كالقمــــر الزاهى فى نوره   عليه كالليل البهيم الدلال .

وموشحتها هى :

ما كنت لو أنصف   أصلى لظى الوجد الأليم
كالقمر الزاهى   عليه كالليـــل البهيم

ويمكن أن تختصر هكذا :

ما كنت لو أنصف   كالقمر الزاهى

ولا نستطيع أن نقول شيئاً فى هذا أكثر من أنه سخف وهراء ، يسوده الخلل فى النظم ، والتعسف فى التركيب ، والاستغلاق فى المعنى ، فالأم وبنتاها وحفيدتاها جميعا ، قرار للقبح والدمامة ، وثقل الروح ، وجمود النسيم ، ولو كن من الإنس لبغض الرجال فى بنات حواء !

ومن هذا العبث أيضاً ، قصيدة سائرة ذات أوزان ، للشاعر الخلاطى البعلبكى ، وهى :

داء ثوى . بفؤاد شفّه سقم   لمحنتى . من دواعى الهم والكمد
بأضلعى . لهب تذكو شرارته   من الضنى . فى محل الروح من جسدى
يوم النوى . طال فى قلبى به ألم   وحرقتى . وبلائى فيه بالرَّصد
توجُّعى . من جوى شبت حرارته   مع العنا قد رثى لى فيه ذو الحسد
أصل الهوى . مُـلبسى وجدا به عدَم   لمهجتى . من رشأ بالحسن منفرد
تتبعى . وجه من تزهو نضارته   لما جنى . مورثى وجدا إلى الأبد

ويقول الصفدى : إن هذه القصيدة ، تقرأ على ستين وثلاثمائة وجه.[١]

وطريقة ذلك : أن يؤخذ الشطر الأول من كل بيت كما هو، أو مع تغيير فى بعض كلماته ؛ ثم يوضع مع ما يناسبه معنى ، من الشطور الثوانى فى القصيدة كلها ؛ فتخرج من ذلك صور كثيرة للبيت الواحد .

وإذا كان الأصل على هذه الصفة من هلهلة النسج ، وسوء التركيب ، وتعقد اللفظ والمعنى ، والفراغ التام من صور البيان الأنيق ، فما الظن بما يتفرع عنه من هذه التوائم الكثيرة المولودة خداجا[٢] ، مع ما تحمله من لؤم العرق !!.

ولبعض الأندلسيين خطبة تخرج منها قصيدة كاملة[٣] .

وأغرب من ذلك ، بيت للشيخ نجيب الدين العاملى فى مدح الإمام (على) ذكروا : أنه يشتمل على أربعين ألف بيت ، وثلاثمائة وعشرين بيتاً[٤] فى حساب طويل معقد ، وهو :

على . رضىّ . بهىّ . ولى صفىّ . وفىّ . سخىّ . على

وقد أشار ابن الأثير إلى شىء من هذا الهذر ، فقال : لقد رأيت رجلا أديباً من أهل المغرب ، وقد تغلغل فى شىء عجيب ؛ وذاك: أنه شجّر شجرة ، ونظمها شعراً ، كل بيت من ذلك الشعر ، يقرأ على ضروب من الأساليب اتباعاً لمُشَعّب تلك الشجرة وأغصانها .

فتارة يُقرأ كذا ، وتارة يقرأ كذا ، وتارة يكون جزء منه هنا ، وتارة ههنا ، وتارة يقرأ مقلوبا .

---

(١) أزهار الرياض ـ ١ ـ ٣١٠ .

(٢) الخداج : ولادة الناقص .

(٣) سلافة العصر — ٣١٣ .

(٤) المثل السائر ـ ٣٠٨ .

وكل ذلك الشعر — وإن كان له معنى يفهم — فإنه ضرب من الهذيان ، والأولى به وبأمثاله أن يلحق بالشعبذة والمعالجة والمصارعة ، لا بدرجة الفصاحة والبلاغة .

ويتصل بالتشريع : نوع يسمى : « المتلون » ذكره الوطواط .

وهو أن يقول الشاعر : بيتاً من الشعر تمكن قراءته على وزنين ، أو أكثر من أوزان الشعر .

ويختلف عن التشريع : بأنه ليست له قافية داخلية يمكن الاقتصار عليها .

وذلك كقول الشاعر :

إنما الدنيا فِداء داره   وبنو الدنيا فِداء أُسرته

فإذا قرأت لفظة « فدا » مقصورة فى كلا المصراعين ، كان هذا البيت من « المديد » .

وكان تقطيعه هكذا :

فاعلاتن فاعلن فاعلن . . . :

أما إذا قرأت « فداء » ممدودة ؟ فإن البيت يكون من بحر الرمل ، ويكون تقطيعه هكذا :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن .

وكذلك يتصل بالتشريع : المربع فى الفارسية « جهارسو » .

وهو الذى له أربع نواح .

وهو : أن يقول الشاعر أربعة أبيات ، أو أربعة مصاريع ، بحيث إذا قرئت طولا أو عرضاً كانت واحدة .

وذلك مثل قول الوطواط :

فؤادى . سباه . غزال . ربيب
سباه . بقدّ . كغصن . رطيب
غزال . كغصن . جَناه . عجيب
ربيب . رطيب . عجيب . حبيب

ومن ذلك قطعة للصفى الحلى ، تقرأ من أعلى إلى أسفل أربع مرات وهى :

ليت شعرى —	لك علم	من سقامى —	يا شفائى
لك علم —	من زفيرى	ونحولى —	وضنائى
من سقامى —	ونحولى	داونى إذ —	أنت دائى
يا شفائى —	وضنائى	أنت دائى —	ودوائى

ولا يخفى ما فيه من التكلف ، وإخضاع المعنى للصياغة المحضة .

وقد ذهب قوم : إلى أن التشريع خاص بالشعر — كما تقدم — وذهب آخرون كابن الأثير والحموى والعلوى ، إلى أنه يقع فى النثر أيضا[١] .

وذلك ببناء كل فقرة منه على سجعتين ، لو اقتصر على الأولى منهما ، كان الكلام تاماً مفيداً ، وإن ألحقت به السجعة الثانية ، كان فى التمام والإفادة على حاله ، مع زيادة معنى ما زاد من اللفظ ، ولكن حسنه لا يظهر إلا فى النظم ، لأن الانتقال فيه ، من وزن إلى آخر .

---

(١) المثل السائر — ٣١٠ — خزانة الأدب — ١٥٠ — الطراز — ٣ — ٧٢ .

وأما النثر ، فليس فيه هذا الانتقال : لمجيئه — إذ ذاك مسجوعاً على كل حال — فلا يكون إلا هذا النوع المعروف بالترصيع .

وقد نبه العلوى : بأنه إنما يقع ممن كان يتعاطى التمكن من صناعة النظم ، عظيم البراعة فى ذلك ، مقتدراً على كثير من الأساليب(١) .

ويرى ابن أبى الإصبع(٢) : أن معظم سورة الرحمن جاءت من هذا الباب ؛ كقوله — تعالى — : « يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ، فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان . يُرسل عليكما شُواظ من نار ونحاسٌ فلا تنتصران . فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

وهكذا إلى آخر السورة ، فإن الكلام لو اقتصر فيه على أولى الفاصلتين دون الثانية — لو كان التنزيل كذلك — لكان الكلام مفيدا وبتكميل الكلام بالفاصلة الثانية ، يفيد معنى زائداً على معنى الكلام الذى خرج مخرج تجاهل العارف ، للاستفهام فيه عما هو معلوم ، لقصد التوبيخ بعد تعديد النعم ، والتحذير من حلول النقم ، فكانت الفاصلة الأولى فى غاية التمكن ، والثانية متضمنة إيغالا حسنا ، جاء مقترناً بتجاهل العارف .

وقس على ذلك ما تلحظه من سور الكتاب العزيز .

وقد اعترض عليه السيوطى(٣) : بأن التمثيل غير مطابق ، وأن الأولى

---

(١) الطراز ـ ٣ ـ ٧١ .

(٢) بديع القرآن ـ ١٨٥ .

(٣) الإتقان — ٢ — ١٧٦ .

أن يمثل بالآيات التى فى إثباتها مايصح أن يكون فاصلة ، كقوله تعالى : ـ « لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما » .

ولا تستريح النفس إلى عد هذه الأمثلة من التشريع ، فالصواب أنه لا يقع فى النثر ، وهذا واضح بأدنى تأمل .

——*

الفصل الثامن

التكرار

التكرار أو التكرير : دلالة اللفظ على المعنى مردّداً ، لتأكيد غرض من أغراض الكلام ، أو للمبالغة فيه ، وذلك :

(ا) كالغزل فى قول امرىء القيس :

ديار لسلمى عافيات بذى الخال ... ألحّ عليها كلُّ أسحمَ هطّال[1]

وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا ... بوادى الخزامى أو على رأس أوعال

وتحسب سلمى لا تزال ترى طَلاً ... من الوحش أو بيضا بميثاء مِحلال[2]

ليالىَ سلمى إذ تريك منضّــدا ... وجيدا كجيد الرئم ليس بمعطال[3]

وزعم عبد الكريم[4] وغيره : أنه لم يتخلص أحد تخلصه ، ولا سلم سلامته فى هذا الباب[5] .

وقول قيس بن ذريح صاحب لُبنى :

ألا ليت « لبنى » لم تكن لىَ خُلةً ... ولم تلقنى « لبنى » ، ولم أدر ماهيا[6]

---

(١) الأسحم : السحاب .

(٢) الطلا بفتح الطاء : ولد الظبية ساعة يولد . والميثاء : الأرض اللينة . والمحلال : التى يحل بها كثيراً .

(٣) فى بعض الروايات : منصباً وزن منضدا ،أى ثغرا مستويا ليس بمختلف: وفى رواية أخرى مقصبا: أى شعرا ذا ذوائب ، والقصبة بفتح القاف وسكون الصاد: الخصلة من الشعر.

(٤) عبد الكريم : عبد الكريم النهشلى .

(٥) العمدة لابن رشيق ـــ ٢ ـــ ٥٩ .

(٦) الخلة بضم الخاء : الخليلة .

وقول ابن المعتز :

لسانى لسرى كتومٌ كتوم ودمعى بحبِّى نموم نموم
ولى مالك شفَّنى حبُّه بديع الجمال وسيم وسيم
له مقلتا شادن أحور ولفظ سحور رخيم رخيم
فدمعى عليه سجوم سجوم وجسمى عليه سقيم سقيم

وقول القاضى الفاضل :

ماذا تقول اللَّواحى - ضلَّ سعيهمو - وما تقول الأعادى حين ألقاه[1]
هل غير أنىَ أهواه - وقد صدقوا - نعم نعم أنا أهواه وأهواه

وقول بعضهم :

يقلن - وقد قيل إنى هجعتُ - عسى أن يُلِمَّ بروحى الخيال
حقيق حقيق وجدتَ السُّلوَّ؟ فقلت : لعنّ مُحال محال

(ب)وكالتنويه به ، والإشارة إليه بالذكر ، ويشمل ذلك :

١ — المدح كقول الخنساء فى أخيها صخر :

وإن صخراً لمولانا وسيدنا وإن صخراً - إذا نشتو - لنحَّارُ
أغرُّ أبلجُ تأتمّ الهداةُ به كأنه علَمٌ فى رأسه نار

فتكرير اسم الممدوح هنا تنويه به ، وإشادة بذكره ، وتفخيم له فى القلوب والأسماع .

وقول كثير عزة فى عمر بن عبد العزيز — مشيراً إلى خلافته — :

فأربحْ بها من صَفقة لمبايع وأعْظِم بها ،أعظم بها، ثم أعظمِ

---

(١) اللواحى : اللوائم .

وقول أبي تمام(١) — يرثى غالباً الصُّغْدى :

بلشتْ منهم بلؤلؤة الغواص حسنا ودمية المحراب
بالصريح الصريح ، والأروع الأر وع منهم ، وباللباب اللباب(٢)

وقول أبي الأسد الدِّينَوري(٣) :

ولائمة لامتك(٤) يا فيض فى الندى فقلت لها : هل يقدح اللوم فى البحر
أرادت لتثنى الفيض عن عادة الندى ومنذا الذى يثنى السحاب عن القطر
كأن وفود الفيض يوم تحمّلوا إلى الفيض لاقوا عنده ليلة القدر
مواقعُ جود الفيض فى كل بلدة مواقعُ ماء المزن فى البلد القفر

ومما أنشده الفراء :

وكائنْ وكم عندى لهم من صنيعة أيادىَ ثنَّوها على وأوجبوا

ومن أمثلته فى القرآن الكريم : « والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم » .

وهذا مثال لما جاء منه بالمفردات .

وأما ما جاء منه بالمركبات ، فقوله — تعالى — : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طَعِموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا » .

٢ — الهجاء على سبيل التشهير وشدة التوضيع بالمهجو ، كقول ذى الرمة :

---

(١) ديوانه — ٣٥٣ .

(٢) الصريح : الخالص

(٣) ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى - ١ — ٣٠ — ٦٣ .

تسمى أمرأ القيس بن سعد إذا اعتزت
وتأبى السِّبال الصُّهب والآُنف الحمر(١)

ولكنما أصل امرىء القيس معشر
يحل لهم لحم الخنازير والخمر

نصاب امرىء القيس العبيد ، وأرضهم
تمرُّ المساحى لا فلاة ولا مصر(٢)

تخلى إلى الفقر امرؤ القيس إنه
سواء على الضيف امرؤ القيس والفقر

تحب امرؤ القيس القرى أن تناله
وتأبى مقاريها إذا طلع الفجر(٣)

هل الناس إلا ياامرأ القيس غادر
ووافٍ ، وما فيكم وفاء ولا غدر

وكذلك صنع جرير فى قصيدته التى سماها : «الدمَّاغة(٤)» فى هجاء الراعى النميرى ، فإنه كرر «بنى نمير» فى كثير من أبياتها .

ومن أبياتها المشهورة :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

---

(١) السبال بكسر السين : جمع سبلة كورقة ، ومن معانيها : مقدم اللحية ؛ والصهب : جمع أصهب وصهباء من الصهبة ، وهى حمرة أو شقرة فى الشعر ، وليست من ألوان العرب ، على أن البكرى فى معجمه ص ٧٤٥ روى للنابغة فى الفخر :

فإما تنكرى نسبى فإنى من الصهب السبال بنى ضباب

(٢) النصاب : الأصل . والمساحى : مايقشر بها الطين ويجرف ، جمع مسحاة بالكسر .

(٣) المقارى : القدور والقصاع : جمع مقراة بالكسر .

(٤) كان يسميها الدماغة والدامغة ؛ لتشبيهها لها بالشجة التى تصل إلى الدماغ ، وسمتها العرب الفاضحة .

٣ — الازدراء والتهكم والتنقيص ، كقول حماد عجرد فى ابن نوح – وكان يتعرب — :

يابن نوح يا أخا الحِلْس ويا بن القَتَبِ[1]
ومن نشا والده بين الربا والكُثُب
يا عربى يا عربىُّ يا عربىُّ يا عربى

٤ — التقريع والتوبيخ ، كقول بعضهم :

إلى كم وكم أشياء منكم تريبنى أغمِّض عنها لست عنها بذى عمَى

٥ — التعظيم للمحكى عنه كالذى أنشده سيبويه ، من قصيدة لعدى بن زيد ، أو لابنه سوادة[2] :

لا أرى الموتَ يسبق الموت شىء نغَّص الموت ذا الغنى والفقيرا

٦ — الوعيد والتهديد ، كقول الأعشى ليزيد بن مُسْهر الشيبانى :

أبا ثابت لا تعلقنْك رماحنا أبا ثابت أقصر وعرضك سالمْ
وذرْنا وقوما إن هم عمَدوا لنا أبا ثابت واقعُد فإنك طاعم[3]

ومثاله من القرآن الكريم : «الحاقَّة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة » « القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة » .

وهذا مثال ما جاء بالمفردات منه .

ومثال المركب قوله — تعالى — : « كلاَّ سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » .

---

(١) الحلس بالكسر : كساء على ظهر البعير تحت البردعة . والقتب : الرحل .
(٢) خزانة الأدب للبغدادى — ١ — ٣٤٣ .
(٣) الطاعم : الآكل ؛ يريد : أنه ساقط لايهمه إلا الأكل .

٧ — التوجع فى الرثاء والتأبين ؛ كقول مُتَمِّم بن نُوَيْرة يرثى أخاه مالكا(١) :

وقالوا أتبكى كلّ قبر رأيته　　لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت لهم : إن الأسى يبعث الأسى　　ذرونى فهذا كله قبر مالك

وقول ابنة عم النعمان بن بشير الأنصارى الصحابى ترثى زوجها :

وحدثنى أصحابه أن مالكا　　أقام ونادى صحبه برحيل
وحدثنى أصحابه أن مالكا　　ضروب بنصل السيف غير نكول
وحدثنى أصحابه أن مالكا　　خفيف على الحدثان غير ثقيل
وحدثنى أصحابه أن مالكا　　جواد بما فى الرحل غير بخيل(٢)
وحدثنى أصحابه أن مالكا　　صروم كماضى الشفرتين صقيل(٣)

وقول المهلهل بن ربيعة — يرثى أخاه كليباً من قصيدة مطلعها — :

أليلتنا بذى حُسُم أنيرى　　إذا أنت انقضيت فلا تحورى

إلى أن يقول :

وهمّام بن مرة قد تركنا　　عليه القشعمان من النسور(٤)
على أن ليس عِدلا من كليب　　إذا طرد اليتيم عن الجزور (٥)

وقد كرر : «على أن ليس عدلا من كليب» فى هذه القصيدة أكثر من عشرين مرة (٦) .

---

(١) قتله خالد فى حروب الردة

(٢) الرحل : المنزل .

(٣) الصروم : الماضى الشجاع .

(٤) القشعمان : مبتدأ مؤخر لقوله : عليه ، ويروى بالنصب : على أنه مفعول به لتركنا.

(٥) العدل بفتح العين وكسرها : المثل بالكسر والنظير . والجزور : البعير، أو : مايذبح من الشاء .

(٦) الصناعتين — ١٨٥ .

وباب الرثاء أولى ما تكرر فيه الكلام، لمكان الفجيعة، وشده القرحة التى يجدها المتفجع، وهو كثير حيث التمس من الشعر وجد.

وقد قيل لبعضهم: متى يحتاج إلى الإكثار!

فقال: إذا عظم الخطب!!

٨ — الاستغاثة — وتدخل فى باب المدح — كقول المهلهل بن الفرخ:

بنى مسمع لولا الإله وأنتمو بنى مسمع لم ينكر الناس منكرا

٩ — التفخيم، كقول امرىء القيس:

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا[1]
عشية جاوزنا حماة وشيزرا أخو الجهد لا يلوى على من تعذرا

وقال ابن الزيات فى الحسن بن سهل:

إلى الأمير الحسن استجدتها أىّ مزار ومناخ ومحل
أىّ مزار ومناخ ومحل لخائف ومستريش ذى أمل[2]

١٠ — التعجب، كالذى رواه القالى عن أبى بكر بن الأنبارى عن أبيه:

لما تبدت من الأستار قلت لها سبحانَ سبحانَ ربى خالق الصور
ما كنت أحسب شمساغير واحدة حتى رأيت لها أختا من البشر
كأنها هى إلا أن يفضلها حسنُ الدلال، وطرف فاتر النظر

١١ — الاستبعاد، كقوله — تعالى: «هيهاتَ هيهاتَ لما توعدون.».

(١) حماة: مدينة بالشام. وشيزر كعيدر: بلد قرب حماة.
(٢) المستريش: يريد طالب الغنى.

١٢ — التهويل ، كقوله — عز وجل — « الحاقّـةُ ما الحاقّـةُ ». القارعةُ ما القارعة » .

١٣ — التقرير والإنـكار ، كقوله — تعالى — : «فبأى آلاءِ ربِّكما تُكذِّبان » فى سورة الرحمن .

وذلك أنه عدد فى هذه السورة نعماءه ، وأذكر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرها وقدرته عليها ، ولطفه فيها، وجعلها فاصلة ، بين كل نعمة ليعرف موضع ما أسداه إليهم منها ، فحسن التـكرار للتقرير بالنعم المختلفة المتعددة ، فكلما ذكر نعمة أنعم بها ، قرر عليها ، ووبخ على التكذيب بها ، وبكّت من أنـكرها ، كما يبكت منكر أيادى المنعم عليه من الناس بتعديدها له ، وكما يقول الرجل لغيره : ألم أحسن إليك ، بأن خولتك الأموال ! ألم أحسن إليك بأن خلصتك من المكاره ! ألم أحسن إليك ! بأن فعلت بك كـذا وكـذا ؟ ! فيحسن منه التـكرار لاختلاف ما يُقرره به[1] .

فإن قيل : إذا كان التـكرار فى سورة الرحمن ، ما عدده من آياته ومن نعمه ، فقد عدد فى جملة ذلك ما ليس بنعمة ،وهو قوله : « يُرْسَل عليـكما شُواظٌ من نار ونُحاسٌ فلا تَنْتَصِرانِ[2] » .

وقوله « هذه جهنّـم التى يُكذِّب بها المجرمون ، يَطوفون بينها وبين حميم آن[3] » .

---

(١) الصناعتين ـ ١٨٥ أمالى المـرتضى — ١ — ١٢٣ خزانة الأدب للحموى — ٢٠٥ .

(٢) الشواظ : اللهب الخالص . والنحاس : الدخان ، أو الصفر المذاب .

(٣) حميم آن : حار قد انتهى حره ونضجه .

فكيف يحسن أن يقول بعقب هذا : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ، وليس هذا من الآلاء والنعم ؟ .

والجواب : أن فعل العقاب — وإن لم يكن نعمة — فذكره ووصفه ، والإنذار به ، من أكبر النعم ؛ لأن فى ذلك زجراً عما يُستحق به العقاب ، وبعثا على ما يستحق به الثواب ، فأشار — تعالى — بقوله : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » — بعد ذكر جهنم والعذاب فيها — إلى نعمته ، بوصفها والإنذار بعقابها ، وهذا مما لا شبهة فى كونه نعمة[1] .

وكذا قوله — تعالى — : « فذوقوا عذابى ونُذُر ، ولقد يَسَّرنا القرآن للذِّكر فهل من مُدَّكِر » .

وفائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادّكاراً واتعاظا ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظا ، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ، وأن تقرع لهم العصا مرات ، ويقعقع لهم بالشَّن[2] تارات ، لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة[3] .

وقد كرر قاضى العرب الحارث بن عُباد البكرى قوله ؛ من قصيدته التى نظمها حين اعتزم دخول حرب البسوس :

قرّبا مَربط النعامة منى   لقِحت حرب وائل عن حِيال[4]

أكثر من تكرير المهلهل لمصراع بيته المتقدم .

وقالت ليلى الأخيلية ترثى صاحبها تَوْبة بن الحُمَيِّر .

---

(١) أمالى المرتضى — ١ — ١٢٧ .

(٢) الشن بفتح الشين الشنة : القربة البالية الصغيرة .

(٣) الكشاف — ٢ — ٤٢٢ .

(٤) مربط بكسر الباء وفتحها ، والنعامة: اسم فرسة ، والحيال : عدم حمل الناقة سنة أو سنتين أو سنين. وعن: بمعنى بعد .

لنعم الفتى يا توبَ كنت ولم تكن ... لتُسبَق يوماً كنت فيه تحاولُ

فكررت نعم الفتى ثلاث مرات ، أو أربعاً أو خمساً على حسب الروايات .

ثم قالت :

لعمرى لأنت المرء أبكى لفقده ... بِجدّ ولو لامت علىّ العواذل

فكررت : لعمرى لأنت المرء أربع مرات .

ثم قالت :

فلا يُبعدَنْك الله يا توب إنما ... لقيت حِمامَ الموت ، والموت عاجل(١)

فكررتها ثلاث مرات .

وللأمير تميم بن المعز الفاطمى قصيدة كرر فيها « أنا » ثلاثا وثلاثين مرة فى أبيات متتابعة بلغت عشرين بيتا : وأولها :

أنا المرثىُّ بالأفها ... م ، والمعروف بالخُبْر(٢)

وإنما كان التكرير فى الرثاء ، لما كانت الحاجة إلى التكرير ماسة ، والضرورة إليه داعية ، لعظم الخطب ، وشدة موقع الفجيعة ، واختلاف المعانى التى عددت فى الشعر .

وهذا يدل على أن الإطناب فى موضعه عندهم مستحسن ، كما أن الإيجاز فى مكانه مستحب(٣) .

وأما وجه التكرار فى قوله — تعالى — : « لا أعبد ما تعبدون

---

(١) لا يبعدنك : لا يهلكنك من البعد بفتح العين من باب فرح ، وهو دعاء خرج بلفظ النهى .

(٢) ديوانه ص ١٧٤ .

(٣) الصناعتين — ١٨٥ .

ولا أنتم عابدون ما أعبد » من سورة «الكافرين» ، فقد أجاب عنه ابن قتيبة: بأن القرآن لم ينزل دفعة واحدة ، وإنما كان نزوله شيئا بعد شيء والأمر فى ذلك ظاهر .

فكأن المشركين أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : استلم بعض أصنامنا حتى نؤمن لك ونصدق بنبوتك ، فأمره الله — تعالى بأن يقول لهم : « لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد » .

ثم غبروا مدة من الزمان ، وجاءوه فقالوا له : اعبد بعض آلهتنا ، واستلم بعض أصنامنا يوماً أو شهراً أو حولا ، لنفعل مثل ذلك بإلهك .

فأمره — تعالى — أن يقول لهم : « ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد » .

أى إن كنتم لا تعبدون إلهى إلا بهذا الشرط ، فإنكم لا تعبدونه أبداً .

وقد استضعف بعضهم هذا التأويل .

وذكر المرتضى[1] فى ذلك ثلاثة أجوبة :

١ — ما حكى عن ثعلب أنه قال : إنما حسن التكرار ، لأن تحت كل لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى .

وتلخيص الكلام : قل : يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الساعة، وفى هذه الحال ، ولا أنتم عابدون ما أعبد فيما تستقبلون .

فاختلفت المعانى ، وحسن التكرار فى اختلافها .

ويجب أن تكون السورة على هذا مختصة بمن علم أنه لا يؤمن .

(١) أمالى المرتضى — ١ — ٨٣ — ٨٤ — ٨٥ .

وقد ذكر « مقاتل » وغيره : أنها نزلت فى أبى جهل والمستهزئين ، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد .

والمستهزئون هم : العاصى بن وائل ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن المطلب ، والأسود ، بن عبد يغوث ، وعدى بن قيس .

٢ — قول الفراء : وهو أن التكرار للتأكيد ، كقول المجيب مؤكداً بلى . بلى . والممتنع مؤكدا : لا . لا .

ومثله قوله — تعالى — : « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » .

ومنه قول الشاعر :

أرادت لنفسى بعض الأمو ر فأولى لنفسىَ أولى لها[1]

٣ — تأويل صدر السورة : أننى لا أعبد الأصنام التى تعبدونها ، ولا أنتم عابدون الله الذى أنا عابده ؛ إذْ أشركتم به واتخذتم الأصنام وغيرها معبودة من دونه أو معه ، وإنما يكون عابداً له من أخلص له العبادة دون غيره ، وأفرده بها .

وأما قوله فى عجز السورة : « ولا أنا عابدٌ ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد » : فما ، وما بعدها فى موضع المصدر : أى لست أعبد عبادتكم ، ولستم عابدين عبادتى ، فلم يتكرر الكلام ، لاختلاف المعانى .

وتلخيص المعنى : لا أعبد آلهتكم ومن تدعونه من دون الله ، ولا أنتم عابدون إلهى ، وإن زعمتم أنكم عابدون إلهى ، فأنتم كاذبون ، لأنكم من

---

(١) أولى لك : كلمة تحذير ؛ معناه : قاربك ما تكره .

غير الجهة التى أمركم بها تعبدونه ؛ فأنا لا أعبد مثل عبادتكم ، ولا أنتم — ما دمتم على ما أنتم عليه — تعبدون مثل عبادتى .

ويقول ابن الأثير(١) : وقد ظن قوم أن فى الآية تكريراً لا فائدة فيه وليس الأمر كذلك ؛ فإن معنى قوله : «لا أعبد» يعنى فى المستقبل من عبادة آلهتكم ، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلبه منكم من عبادة إلهى .

« ولا أنا عابد ما عبدتم » : أى وما كنت عابداً قط فيما سلف ما عبدتم فيه .

يعنى: أنه لم يعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية فى وقت ما ، فكيف يرجى منى ذلك فى الإسلام ؟ ! ولا أنتم عابدون ما أعبد فى الماضى فى وقت ما ، ما أنا على عبادته الآن .

وبالجملة فاعلم أنه ليس فى القرآن مكرر لا فائدة فى تكريره .

فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر ، فأنعم نظرك فيه ، وانظر إلى سوابقه ولواحقه ، لتنكشف لك الفائدة منه .

على أن الرازى نفى أصالة : أن يسمى مثل هذا تكراراً ؛ فقال : وأما ما تكرر فى سورة الرحمن من قوله — تعالى — : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

فليس بتكرار ، لأنه — سبحانه — ذكر نعمة بعد نعمة ، وعقب على كل نعمة بهذا القول ، وإنما عنى بالتنبيه الجن والإنس .

ومعلوم : أن الغرض من ذكره عقيب نعمة : غير الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرى ، وإن كان اللفظ واحدا .

---

(١) المثل السائر :— ٢٣٤ . وانظر الكشاف— ٢ — ٥٦٤ .

وأما قوله تعالى — : « ويل يومئذ للمكذبين » فإنه ذكر ذلك عند قصص مختلفة فلم يعد تكراراً ، لأنه أراد بما ذكره أولا : ويل للمكذبين بهذه القصة .

ثم لما أعاد قصة أخرى ذكر مثله على هذا الحد .

ولما اختلفت الفائدة خرج عن أن يكون تكراراً[1] .

وكذلك لا يعد من التكرار قوله — تعالى — : «ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

وقوله تعالى : لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » .

وقوله - تعالى - : ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

فما تكرر فى هذه الآيات خارج عن حكم التكرير ، وذلك أنه إذا طال الفصل فى الكلام ، وكان أوله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلا به ، فالأولى فى باب الفصاحة أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ، ليكون مقارناً لتمام الفصل كى لا يجىء الكلام منثوراً ، لا سيما فى إن وأخواتها .

فإذا وردت « إن » ، وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام فإعادتها أحسن فى حكم البلاغة والفصاحة .

وعليه ورد قول شاعر الحماسة[2] :

أسجناً وقيداً واشتياقاً وغربة ونأى حبيب إن ذا لعظيم

---

(١) نهاية الإيجاز : ١٦٧ — ١٦٨ .

(٢) فى الحيوان للجاحظ : ٦ — ١٥٦ : أنها لبعض اللصوص ، وفى البيان والتبيين : ٢ — ٦٧ : أنها لأحد الأعراب .

وإن امرأً دامت مواثيق عهده على مثل هذا إنه لكريم

فإنه — لما طال الكلام بين اسم إن وخبرها — أعيدت مرة ثانية، ولولم تعد لم يأت على الكلام بهجة ولا رونق.

وهذا لا يتنبه لاستعماله إلا الفصحاء إما طبعاً وإما علماً[١].

وفي بعض تكرار الآيات معنى آخر فطن إليه بعض علمائنا، ولم يكشف لهم عن سره.

وأول من نبه عليه الجاحظ فى كتابه «الحيوان»، إذ قال: ورأينا أن الله تبارك وتعالى — إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف.

وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطاً وزاد فى الكلام: أى كان ذلك مبالغة فى إفهامهم، وتوسع فى تصوير المعانى لهم، وتلوينها بالألفاظ إيجازاً فى موضع، وإطناباً فى موضع، إذ كانوا قوما لا سليقة لهم كالعرب، وليسوا فى حكمهم من البيان، فلا يمضى كلامهم لسننه بلا اعتراض من تنافر التركيب، وثقل الحروف، وجفاء الطبيعة اللغوية.

فلهذا ونحوه كان لا بد فى خطابهم من التكرار والبسط والشرح بخلاف العرب، فإن الخطاب يقع إليهم على سنن كلامهم من الحذف، والقصد إلى الحجة، والاكتفاء باللمحة الدالة، وبالإشارة الموحى بها، وبالكلمات المتوسمة، وما يجرى هذا المجرى.

وهذا صحيح، ولكنهم أخطئوا وجه الحكمة فيه، فقد كان فى اليهود متكلمون وشعراء وأنبياء، والخطاب فى القرآن كله، يسمعه العرب واليهود

---

(١) المثل السائر: ٢٣٧.

فلا ينكرون جميعاً من أمره شيئاً ، ولكنه سر من أسرار الأدب العبرانى جرى القرآن عليه فى أكثر خطابه لليهود خاصة ، ليعلموا أنه وضع غير إنسانى ، وليحسوا من معانى إعجازه كما أحس العرب ، إذكان أبلغ البلغاء فى الشعر العبرانى القديم ، فصاراه أن تجتمع له رشاقة العبارة ، وحسن المعرض ووضوح اللفظ ، وفصاحة التركيب ، وتكرار الكلام لكل ما يفيده التكرار ، توكيداً ومبالغة وإبانة وتحقيقاً ونحوها ، ثم استعمال الترادف فى اللفظ والمعنى ومقابلة الأضداد وغيرها ، مما هو فى نفسه تكرار آخر للمحسنات اللفظية ، وتحسين للتكرار المعنوى(١) .

وقد احتفل ابن الأثير بهذا الضرب من الكلام ، فقسمه أقساماً ، وشقق منها فروعاً ، وساق لها كثيراً من الأمثلة النثرية والشعرية ، ومزجها بألوان من النقد ، بث فيها حياة وخصباً ونماء وغناء .

وكان للاستدلال من القرآن الكريم نصيب موفور من عنايته .

وقد بدأ بتقسيمه إلى قسمين :

١ — تكرار فى اللفظ والمعنى ، وهو إما مفيد أو غير مفيد .

والمفيد : إما أن يدل على معنى واحد ، والمقصود به غرضان مختلفان ، كقوله — تعالى — : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يُحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين ، ليُحق الحق ، ويُبطل الباطل ، ولو كره المجرمون » .

فقوله : « يُحق الحق ، وليحق الحق » تكرار فى اللفظ والمعنى .

وإنما جىء به هنا ، لاختلاف المراد ، وذلك : أن الأول : تمييز بين الإرادتين .

(١) إعجاز القرآن للرافعى : ٢٠١ .

والثانى : بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها، وأنه مانصرهم ، وخذل أولئك إلا لهذا الغرض .

وكقوله ـ تعالى ـ «كذب قومُ نوح المرسلين .إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إنى لكم منه رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون ».

فكرر : « فاتقوا الله وأطيعون» ليؤكده عندهم ، ويقرره فى نفوسهم ، مع تعليق كل واحد منهما بعلة .

فجعل علة الأول : كونه أميناً فيما بينهم .

وجعل علة الثانى حسم طمعه عنهم ، وخلوه من الأغراض فيما يدعوهم إليه .

وإما أن يدل على معنى واحد ، والمراد به غرض واحد ، كقوله ـ تعالى ـ : « فقُتل كيف قدّر ثم قتل كيف قدّر » .

والتكرير دلالة على التعجب من تقديره ، وإصابته الغرض ! ! .

وورد عليه قول الشاعر :

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثمّت اسلمى .

مبالغة فى الدعاء لها بالسلامة .

وكل هذا يجاء به لتقرير المعنى المراد وإثباته .

ومن هذا النوع : أن يكون المعنى مضافاً إلى نفسه مع اختلاف اللفظ .

وذلك فى الألفاظ المترادفة ، كقوله — تعالى — : « والذين سعوْا فى آياتنا مُعاجزين ، أولئك لهم عذاب من رِجْز أليم » .

والرجز : هو العذاب .

وقول أبي تمام :

نهوض بثقل العبء مضطلع به ... وإن عظمت فيه الخطوب وجلّت

والثقل : هو العبء .

وقول البحترى :

توهمتها ألوى بأجفانها الكرى ... كرى النوم ، أو مالت بأعطافها الخمر

فالكرى : هو النوم .

والفائدة فى كل ذلك : تأكيد المعنى المقصود ، والمبالغة فيه .

فعذاب من رجز : أي عذاب مضاعف .

وثقل العبء : مبالغة فى وصف الممدوح بحمله الأثقال .

والكرى كرى النوم : تكرير للمعنى على طريق المضاف والمضاف إليه ، تأكيداً له ، وزيادة فى بيانه .

وأما التكرار فى اللفظ والمعنى — وهو غير مفيد — فقول مروان الأصغر :

سقى الله نجدا ، والسلامُ على نجد ... ويا حبّذا نجد على النّأى والبعد

نظرت إلى نجد وبغدادُ دونها ... لعلى أرى نجدا ، وهيات من نجد

وهذا من المعنى المضاعف ؛ فإنه كرر ذكر نجد فى البيت الأول ثلاثا ، وفى البيت الثانى ثلاثا .

ومراده فى الأول : الثناء على نجد ، وفى الثانى : أنه تلفت إليها ناظراً من بغداد . وذلك مرمى بعيد .

وهذا المعنى لا يحتاج إلى مثل هذا التكرير .

أما البيت الأول فيحمل على الجائز منه ، لأنه مقام تشوق وتحرق وموجده بفراق نجد .

ولما كان كذلك أجيز فيه التكرار .

على أنه قد كان يمكنه أن يصوغ هذا المعنى الوارد في البيتين معاً ، من غير أن يأتى بهذا التكرار المتتابع ست مرات .

وقول شاعر :

ألا طرقتنا بعد ما هجعوا هند وقد سرن خمساً واتلأب[1] بنا نجد
ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد

وقد قال فيه أبو العلاء : من حبه لهذه المرأة لم ير تكرير اسمها عيبا ، ولأنه يجد التلفظ باسمها حلاوة .

فلم ير الاعتذار من التكرير إلا هذا العذر[2] .

وهو عذر جاوز حد القبول .

ومن هذا أيضاً قول المتنبي :

ولم أر مثل جيرانى ومثلى لمثلى عند مثلهم مُقام

لمثلى : خبر مقدم لمقام الذى هو مصدر ميمى بمعنى الإقامة ، والجملة مفعول ثان لقوله : لم أر .

ويحتمل أن يكون أراد الاستفهام التعجبي ، فحذف الهمزة لضيق المقام أى ألمثلى مقام عند مثلهم !!

فهذا هو : التكرار الفاحش الذى يؤثر فى الكلام نقصاً .

ومعنى البيت لم أر مثل جيرانى فى سوء الجوار ، ولا مثلى فى مصابرتهم ومقامى عندهم .

٢ — تكرار فى المعنى دون اللفظ .

---

(١) اتلأب : استقام وامتد .
(٢) سر الفصاحة : ٩٦ .

وهو كذلك مفيد وغير مفيد .

والمفيد : إما أن يدل على معنيين مختلفين، كقول حاطب بن أبي بَلْتعة للرسول — صلى الله عليه وسلم — : ..... مافعلت ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن ديني ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام .

وذلك حين عاتبه الرسول الكريم على كتابته لأهل مكة يخبرهم ببعض شأن المسلمين .

فقد يظن أن قول حاطب من التكرار ، وليس منه ، لأن معناه : أنى لم أفعل ذلك وأنا كافر : أى باق على الكفر .

ولا أنا مرتد ؛ أى كفرت بعد إسلامى .

ولا رضا بالكفر بعد الإسلام : أى ولا إيثاراً لجانب الكفار على جانب المسلمين .

ويدخل فى هذا النوع : أن يكون التكرار فى المعنى يدل على معنيين . أحدهما : خاص ، والآخر : عام ، كقوله — تعالى — : «حافظوا على الصلوات والصلاة الوُسطى .....» .

وقوله — سبحانه — : «فيهما فاكهة ونخل ورمان » :

وإما أن يدل على معنى واحد لا غير .

وقد ورد فى القرآن كثيراً ، كقوله — تعالى — حكاية عن نبيه يعقوب — عليه السلام — : « قال إنما أشكوا بثى وحزنى إلى الله » .

فإن البث والحزن بمعنى واحد ، وإنما كرره هينا ، لشدة الخطب النازل به ، وتكاثر سهامه النافذة فى قلبه .

ومما ورد من التكرار بذكر الخاص بعد العام : قول الأعشى :

فآليت لا أرْثى لها من كلالة ولا من وجًى حتى تلاقى محمدا

فإن الوجى والكلالة معناهما سواء ، وإنما حسن تكريره هنا للإشعار ببعد المسافة .

وقول بعض الشعراء ، وهو بُكَير بن الأخنس :

نزلت على آل المهلب شاتياً　　بعيداً عن الأوطان فى الزمن المحْل

فما زال بى إكرامهم وافتقادهم　　وإحسانهم حتى حسبتهمُ أهلى

فإن الإكرام والافتقاد : داخلان تحت الإحسان : وإنما كرر ذلك للتنويه بذكر الصنيع والإيجاب لحقه[1] .

أما تكرار المعنى دون اللفظ غير المفيد فكقول أبى تمام :

قسم الزمانُ ربوعَها بين الصَّبا　　وقبولها ودَبورها أثلاثاً[2]

فإن الصبا هى القبول[3]

والذى نأخذه على ابن الأثير : ضيق أفقه اللغوى مما حداه إلى عدم التوفيق فى اختيار الأمثلة ، وجعله مضطرباً فى فهمه لمعنى الترادف . فهو — فيما عدا الصبا والقبول — خانه الصواب والسداد ، فالبث : الحال ، وأشد الحزن . والكلالة : الإعياء ، والوجى : الحفا . والإكرام: التعظيم والتنزيه . والإحسان : ضد الإساءة . والافتقاد : طلب الشيء عند غيبته ، والتفتيش عنه ، فليس بين هذه الأشياء التى ذكرها ترادف كما هو ظاهر ولعله أراد الاستواء فى المعنى العام والتفسير باللازم .

وللتكرار عند ابن رشيق مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها .

---

(١) راجع تفصيل ذلك فى المثل السائر : ٢٣٢ إلى ٢٤٣ .

(٢) الدبور : الريح تقابل الصبا ، وتهب من الغرب : أى من حيث يدبر النهار .

(٣) نقل عن النضر بن شميل: أن القبول ريح إلى الصبا ما بينها وبين الجنوب ، وهذا غير معروف ولا معول عليه ، الموازنة : ١ـ ١٤٥ .

وأكثر مايقع التكرار فى الألفاظ دون المعانى ،وهو فى المعانى دون الألفاظ أقل .

فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعا ، فذلك هو الخذلان بعينه[١] .

وقد زرى الحموى على التكرار ،وجرده من القيمة البلاغية ، ولم يجعل له بأنواع البديع قربى ولا نسباً لنزول قدره عنها .

ولعل السر فى ذلك :أن حد التكرار عنده ، هو : أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى[٢] .

ومتى كان التكرار من هذا النمط الذى عرّفه الحموى ، دون أن يقيده بشرط يحقق تحسينا فى اللفظ أو المعنى ،فلا شك أن عدمه خير من وجوده.

وقد وصفه ابن الأثير بأنه غير مفيد ، وعده ابن رشيق من الخذلان كما تقدم .

وصفوة القول : أن التكرار فى القرآن الكريم على اختلاف فنونه اقتضته البلاغة الرفيعة ، ووقع موقعه من الصناعة العربية الفخمة، وأساليبها العالية ، فنزل منزلة التسليم والقبول من المزاج العربى والطبع العربى والذوق العربى ، ولو لم يكن مذهبا معروفا مألوفا وطريقاً لاحبا مسلوكا لعابه خصومه اللد ، وقد تحداهم فافتضحوا بالعجز البين .

فالتكرار فى التنزيل الحكيم ورد للتخويف ، أو التفجع ، أو التهويل وما إليها .

وقد يأتى بأداء المعنى الواحد فى صورتين مختلفتين صياغة وعبارة وترتيباً : إمعاناً فى التحدى ، وإلجام الخصوم .

ثم إن فى التكرار — إلى ذلك إثبات قدرته — تعالى — على تكرير

---

(١) العمدة : ٢ — ٥٩ .

(٢) خزانة الأدب : ٢٠٥ .

مايقول فى قوالب منوعة ، ونسق مختلف مع اتحاد المعنى ، ووقوع الإعجاز وذلك غير متأت لغيره .

وليقوم الدليل أيضاً على أن أسلوب القرآن لا يقف عند صورة بعينها ونظم لايختلف ، حتى لاينفسح مجال القول لمن يتحداهم . بأن سبب عجزهم هو وقوفهم أمام قالب جامد لايتغير ولا يتبدل .

وكأنه بذلك يوسع أمامهم المنادح ، ويمهد لهم السبل ، ويمنحهم الفرص الرحيبة - ليأتوا بمثله - فلم يبق إلا الاعتراف بالعجز الكامل بعد أن أعذر إليهم ، وأنصفهم كل الإنصاف وقطع عليهم أسباب التعلل .

وقد جرى هذا النوع كثيراً على ألسنة الشعراء

فمن ذلك : ماأنشده الفرّاء :

كم نعمة كانت لكم كم كم وكم .

وأنشد أيضاً :

نعَق الغراب ببيْن لبنى غدوة كم كم وكم لفراق لبنى ينعَق[1]

وكقول محمد بن مناذر البصرى[2] فى معنى التكثير :

كم وكم كم كم وكم كم كم وكم قال لى أنجز حرٌّ ما وعدْ

فزاد على الواجب وتجاوز الحد .

وقول بعض الشعراء .

لو كنت كتمت الحب كنت كما كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

وقول أبى تمام :

وليس يحتاج إلى دليل على قبحه للتكرار ، أكثر من سماعه .

---

(١) فى رواية : نتق .

(٢) مناذر : بفتح الميم وضمها.

فالمجد لا يرضى بأن ترضى بأن   يرضى المؤمّل منك إلا بالرضا

وقد أنشده أبو تمام ، أحمد بن أبي دُواد ، فقال له إسحاق الموصلى ا لقد شققت على نفسك يا أبا تمام ، والشعر أسهل من هذا[1] .

وقول ابن الزيات :

أتعزف أم تقيم على التصابي   فقد كثرت مناقلة العتاب[2]
إذا ذكر السلو عن التصابي   نفرت من اسمه نفر الصعاب[3]
وكيف يلام مثلك فى التصابى   وأنت فتى المجانة والتصابى
سأعزف إن عزفت عن التصابي   إذا ما لاح شيب بالغراب
ألم ترنى عدلت عن التصابي   فأغرتنى الملاحة بالتصابي

وفيه يقول ابن رشيق : فملأ الدنيا بالتصابي !! على التصابي لعنة الله من أجله !!

فقد برد به الشعر لاسيما وقد جاء به كله على معنى واحد من الوزن ، لم يعد به عروض البيت[4] .

وقد أكثر المتنبي من هذا النوع المرذول ، وعده الثعالبي من عيوبه[5] . كقوله :

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله   ويجهل علمى أنه بى جاهل

لأنه ذكر الجهل خمس مرات ، وكرر بى ، فلم يبق من ألفاظ البيت مالم يجاوزه إلا اليسير .

---

(١) سر الفصاحة : ٩٠ .
(٢) عزف عنه : زهد فيه وانصرف عنه ، أو مله .
(٣) الصعاب : جمع صعب ؛ وهو العسير والأبى والأسد والجمل .
(٤) العمدة : ٢ ــ ٦٢ .
(٥) يتيمة الدهر : ١ ــ ٣٩

وقوله :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا　　قلاقلَ عيسٍ كلهن قلاقل[1]

حتى قيل فيه : ان كله قلاقل !!

وقوله :

وأفجع من فقَدنا من وجَدنا　　قُبيل الفقد مفقود المِثال

وقد قال فيه « الصاحب » وما زال الناس يستبشعون قول مسلم ابن الوليد (٢) :

سلّت وسُلّت ثم سُلّ سليلها　　فأتى سليلُ سليلها مسلولا

حتى جاء هذا المبدع فقال هذا : البيت ، وأظن المصيبة فى الرائى أعظم منها فى المرثى .

وقوله :

عظُمت فلما لم تُكلّم مهابةً　　تواضعتَ وهو العُظْم عُظما عن العُظم[3]

وفيه يقول الصاحب : ما أكثر عظام هذا البيت ! ! مع أنه من قول الطائى :

تعظّمت عن ذاك التعظّم فيهم　　وأوصاك عُظْم القدر أن تتنبّلا

ويذكرون أن الأصمعى أنشد قول الشاعر :

فما للنوى جُدّ النوى قُطع النوى　　كذاك النوى قطّاعة لوصال

---

(١) العيس : الإبل البيض ، ومعناه : أنى حركت بسبب الهم الذى حرك نفسى إبلا خفافا فى السير .

(٢) قاله فى وصف الخمر : والمعنى : أنها رقت بطول القدم ، ثم رق رقيقها فأتى رقيق رقيقها رققاً .

(٣) يقول : لما عظمت حتى لم يستطع أحد أن يكلمك مهابة لك ، تواضعت متعظما عن طلب العظمة ، وهذا التواضع يعد عين العظمة ، لأنه تواضع العظيم .

فقال : لو سلط الله — تعالى — على هـذا البيت شاة ، فأكلت هذا النوى كله !.

وقول المتنبي أيضا يمدح القاضي المالكي :

ولست بدون يُرْتجى الغيثُ دونَه
ولا منتهى الجود الذى خلفه خلْفُ

ولا واحداً فى ذا الورى من جماعة
ولا البعضَ من كلٍّ ولكنك الضعف

ولا الضعفَ حتى يتْبع الضِّعف ضعفُه
ولا ضعفَ ضعفِ الضعف بل مثله ألف[1]

والشاهد فى البيت الأخير :

وفى هذا البيت يقول ابن سنان الخفاجى : كنت حاضراً عند شيخنا أبى العلاء — وقد قرئت عليه قصيدة لأبى الطيب — فلما وصل القارىء إلى قوله :

ولا الضعف . . . . .

قال هذا والله شعر مدبر[2] ! !

وكان من العصبية لأبى الطيب على الصفة التى اشتهرت عنه[3] .

وقوله :

أراه صغيراً قدرها عُظمْ قدره فما لعظيم قدرُه عنده قدر[4]

---

(١) الضعف معطوف على خبر ليس ، ومثله : منصوب على الحال مقدماً من ألف . وألف : خبر لمبتدأ محذوف : أى أنت ألف مثله .

(٢) أدبر الرجل : دخل فى الشيخوخة .

(٣) قدرها : الضمير فيها يعود على الدنيا .

(٤) سر الفصاحة — ٩٠ .

وقوله :

وما أنا وحدى قلت ذا الشعر كلّـه   ولـكن لشعرى فيك من نفسه شعر

وقوله :

وإنى ـ وإن كان الدّفين حبيبَه ـ   حبيبٌ إلى قلبى حبيب حبيبى[١]

وقوله :

إنما الناس حيث أنت وما النا   س بناس فى موضع منك خالى

وقوله :

لك الخيرُ غيرى رام من غيرك الغنى   وغيرى بغير اللاّذقية لاحق

وقوله :

ولولا تولّى نفسه حمْل حلمه   عن الأرض لانهدت وناء بها الحِمل

وقوله :

ملولةٌ مايدوم ، ليس لها   من مَللٍ دائم بها مللُ[٢]

وقوله :

ونهبُ نفوس أهل النهب أولى   بأهل النهب من نهب القماش

وقوله :

قبيل أنت أنت وأنت منهم   وَجدُّك بِشرٌ الملك الهمام

قال الواحدى : أراد : قبيل أنت منهم ، وأنت أنت فى علو قدرك .

يعنى : إذا كنت أنت وجدك بشر منهم ، فكفاهم بذلك فخراً .

---

(١) الدفين : المراد به : مملوك سيف الدولة « يماك » .

(٢) ملولة . . . . : يريد أن المحبوبة تمل كل شىء يدوم ماعدا الملل فإنها لاتمله .

وقد أخر واو العطف فى قوله : وأنت ، وهو قبيح جداً ، وهذا كما تقول : قامت زيد وهند ، وأنت تريد : قامت هند وزيد !!

وقوله : جواب مسائلى : أله نظير ولا لك فى سؤالك لا ألا لا

أى إذا سألنى سائل : هل لهذا الممدوح نظير ؟

فجوابى له : لا ، ولا لك أيضاً — يأيها السائل — نظير فى هذا السؤال الذى لا يسأله عاقل !!

وأراد : لا ولا لك ، فأخر المعطوف عليه ضرورة .

وقوله : ألا لا : تكرار للجواب ، وقد أراد به تأكيد النفى تنبيهاً على شدة بطلان السؤال .

وفى ذلك يقول الصاحب — متهكماً — : ما قدرت أن مثل هذا البيت يلج سمعاً !!

وقد سمعت الفأفاء ، ولم أسمع اللألاء ، حتى رأيت هذا المتكلف المتعسف ، الذى لا يقف حيث يعرف !!

وقوله :

أسْد فرائسُها الأسود يقودها أسدٌ تصير له الأسود ثعالباً

وقد قال فيه بعض النقاد : لا أدرى كيف تخلص من هذه الغابة التى كلها أسود !!

والحق . أن المتنبى كثر فى شعره هذا السخف كثرة تسترعى النظر ، حتى لكأنه كان يتعمده ليغيظ به الناس ، وما كان أجدره باطراحه بعيداً عن شعره وتصفية ديوانه منه ، ولكن الشاعر مفتون بما يقول فتنته بابنه ، ولله در القائل :

ويسيء بالإحسان ظناً لا كمن   هو بابنه أو شعره مفتـــون

وإذا كان المعرى — على تعصبه له حتى سمى ديوانه « معجز أحمد » — قال فى بعض هذه الأبيات: هذا شعر مدبر ، فماذا يقول الناقد المنصف أو الجائر؟

لا بد أن يقول — على أحسن الحالين — إن المتنبي كانت تنقصه الأذن الموسيقية المرهفة ، والحاسة الفنية الدقيقة ، التى تفرق بين اللحن الغليظ الخشن واللطيف الرقيق .

وقد وقع أصحاب البديعيات فى هذا الضرب المستقبح؛ لتكلفهم صـــوغ الأمثلة له :

فقال صفى الدين الحلى فى بديعيته ،

الطاهر الشيم ابن الطاهر الشيم ابن   الطاهر الشيم ابن الطاهر الشيم

وقال عز الدين الموصلى :

تكرار مدحى هدى فى الشامل النعم ابن   الشامل النعم ابن الشامل النعم

وقال الحموى :

تكرار مدحى حلا فى الزائد الكرم ابن   الزائد الكرم ابن الزائد الكرم

ومن الغريب أن الحموى — وهو من خصوم التكرار المستهجنين له — كما تقدم — يقول فى بيته :

والذى يظهر أن مكرر بيتى : حلاوته ظاهرة على بيت الشيخ عز الدين ، فإن مكرره ناقص الحلاوة[1] .

ولا أدرى أين توجد المرارة إن لم توجد فى هذه الأبيات جميعها ، وأولها بيت الحموى !!

---

(١) خزانة الأدب — ٢٠٦ .

وأحسب أن هؤلاء قد أخذوا هذا النسق من قول المتنبي ـ يمدح أبا عبدالله الخصيبي — :

العارضُ الهتن ابن العارض الهتن ابن العارض الهتن ابن العارض الهتن

وقد قال فيه الخفاجي (١) : فأما قول أبي الطيب ، فمن أقبح ما يكون من التكرار وأشنعه ، وإذا كان يقبح تكرار الحروف المتقاربة المخارج فتكرار الكلمة الثانية أقبح وأشنع ! .

وفيه يقول ابن الأثير (٢) : وقد زعم قوم من مدعى هذه الصناعة : أن أبا الطيب أتى فى هذا البيت بتكرير لا حاجة به إليه .

وليس فى هذا البيت من تكرير ، فإنه كقولك : الموصوف بكذا وكذا ابن الموصوف بكذا وكذا .

أى إنه عريق النسب فى هذا الوصف .

وقد ورد فى الحديث النبوى مثل ذلك كقول الرسول الكريم فى وصف يوسف الصديق — صلوات الله عليهما — : « إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن إسحاق بن يعقوب بن إبراهيم » .

ثم يقول : ولقد فاوضنى فى هذا البيت المشار إليه بعض علماء الأدب، وأخذ يطعن فيه من جهة تكراره، فوقفته على مواضع الصواب منه، وعرفته أنه كالخبر النبوى من جهة المعنى سواء بسواء ، لكن لفظه ليس بمرضى على هذا الوجه الذى قد استعمله فيه ، فإن الألفاظ إذا كانت حساناً فى حال انفرادها ، فإن استعمالها فى حال التركيب يزيدها حسناً على حسنها ، أو يذهب ذلك الحسن عنها .

---

(١) سر الفصاحة — ٩٥ .
(٢) المثل السائر — ٢٣٨ .

ولو تهيأ لأبى الطيب أن يبدل لفظة العارض بلفظة السحاب أو ما يجرى مجراها لكان أحسن .

وكذلك لفظة الهتن ، فإنها ليست مرضية فى هذا الموضع على هذا الوجه . ولفظة العارض وإن كانت وردت فى القرآن — وهى لفظة حسنة — فالفرق بين ورودها فى القرآن الكريم وورودها فى هذا البيت الشعرى ظاهر .

وقد أخذ العلوى [1] قول ابن الأثير واختذله — وكثيراً ما يفعل ذلك — فقال : من الناس من صوبه فى تكريره — يعنى المتنبى — ومنهم من قال : إنه أساء فيما أورد من ذلك .

والأقرب : أنه مجيد فى مطلق التكرير ؛ فإنه دال على إغراق الممدوح فى الكرم ، ولكن غير المحمود : لفظة العارض والهتن فهما ليستا واردتين على جهة البلاغة فيه ، لقلة الاستعمال لهما .

فمن أجل ذلك ، كان ماقاله ليس بالغاً فى البلاغة مبلغاً عظيماً ، إلا من جهة التكرار فإنه محمود لا محالة .

وهذا معنى كلام ابن الأثير المتقدم ، ولكنه غطى سرقته له باختصاره

ونحن نخالفهما فيما ذهبا إليه من استكراه لفظى العارض والهتن ، فليستا ثقيلتين ولا غريبتين .

ولا نحمد من هذا البيت ماحمداه ، بل نعده رديئا سفسافا مرذولا أشبه مايكون بعبث الأطفال ، سواء أكان من نوع التكرير أم لا .

والمدح بالعراقة فى صفة من الصفات ، لا يستوجب هذا الإلحاح الثقيل على لفظ معين .

وللمتنبى أبيات مرقصة فى ذلك ، منها قوله فى مدح الحسين بن على الهمدانى :

وجدت علياً وابنه خير قومه ... وهم خير قوم واستوى الحر والعبد

---

(١) الطراز — ٢ — ١٨٢ .

وأصبح شعرى منهما فى مكانه ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وفى عنق الحسناء يُستحسن العِقد

فقد قصر السيادة على الممدوح وابنه وأسرته ، ورفعهم فوق الناس جميعاً فى إيجاز بالغ ؛ لم يحتج فيه إلى ملء الشدق بهذه الإعادة الثقيلة المملة .

والفرق بين التكرار فى بيت المتنبى السابق وبين الحديث الشريف ، كالفرق بين الخزف والدر ، فإن الذى حسّن تكرير « الكريم » فى قول الرسول الكريم : أن يوسف وآباءه جميعا أنبياء معروفون ، وقد جاءوا متتابعين فى نسق واحد لا يقطعه فاصل .

فكل كريم يشير إلى واحد من هؤلاء الأنبياء — عليهم السلام — بل يكاد لقوة التصاق النبوة بهم ، وانطباقها عليهم ، يجرى مجرى العلم . ولهذا نرى الرسول — صلوات الله عليه — وقف عند إبراهيم — عليه السلام — .

ولو كان والد إبراهيم نبيًّا لحسن أن يقول: ابن الكريم أيضا .

وقد كان يحسن تكرير المتنبى لو أنه جاء على نظام التكرير فى قول الشاعر :

قيس العلا . قيس الندى . قيس الكرم

ويخيل إلىّ أن هذا النوع التى تقع فيه « ابن » لا يقبح فى الشعر ، بل لعله يحسن إذا كرر مرتين فقط ، كما يتجلى لنا من مطالعة الأشعار الكثيرة .

فمن ذلك قول « مطران » فى رثاء الأمير « شكيب أرسلان » (١) :

العالم العربىّ من أطرافه ‏ ‏ ‏ ‏ بادى الوجوم منكس الأعلام

يبكى أمــــير بيانه ، يبكى فتى ‏ ‏ ‏ ‏ فتيانه فى الكرّ والإقدام

---

(١) ذكرى الأمير شكيب إرسلان للأستاذ محمد على الطاهر ــ ٢٧ .

يبكى العصامىّ الكبير بنفسه والسيد بن السيد القَـمْقام (١)

ولكن مما لا يرتاب فيه الناظر : أن هذا التكرار يجمل فى الهجاء ، ويخف على السمع ، لأنه يثير الضحك من المهجو ، ويلبس صورة الفكاهة ، كقول بعض الشعراء :

ولقد هززتك للمديح فكنتَ ذا نَفس لكيعهْ (٢)
أنت الرقيع ابن الرقيع ابن الرقيع ابن الرقيعهْ (٣)

وقد صرح ابن الأثير : بأن تكرار الألفاظ المتغايرة ذات المعنى الواحد يعاب فى النثر مطلقا ، وأما فى النظم ، فيعاب فقط فى صدور الأبيات وما والاها دون الأعجاز ، لمكان القافية لأنها موضع ضرورة .

وذلك مثل قول الحطيئة :

قالت أُمامة لاتجزع فقلت لها : إن العزاءَ وإن الصبر قد غُـلِبا
هلا التمست لنا ـ إن كنت صادقة ـ مالاً نعيش به فى الناس أو نشبا

فالبيت الأول معيب لأنه كرر « العزاء » و « الصبر » ومعناهما واحد ولم يرد قافية .

وأما البيت الثانى فليس بمعيب لأن التكرار جاء فى « النشب » وهو قافية .

ومن ذلك أيضا قول المُـنخّـل اليَشْكُرى :

ولقد دخلت على الفتا ة الخدرَ فى اليوم المطير (٤)

---

(١) القمقام بالفتح والضم : السيد .
(٢) اللكيعة : اللئيمة والحمقاء .
(٣) الرقيع : الأحمق .
(٤) خص اليوم المطير : لأنه لا يصلح للصيد ، بل يصلح للهو والأنس .

الكاعب الحسناء ترفل في الدمقس وفي الحرير

فإن « الدمقس » و« الحرير » معناهما : سواء .

وكذلك «خلفه» و« وراءه » .

ولا بأس بهما لوقوعهما قافية في قول الشاعر الحماسي (١) :

إني ـ وإن كان ابن عمي غائبا ـ لمقاذف من خلفه ووارئه (٢)

ولا نستطيع أن نقره على ذلك، فالتكرار الخالي من الفائدة ، لا يحسن في نثر ولا نظم ، ولا في صدور الأبيات ولا في أعجازها .

وهو لم يحسن اختيار التمثيل كما هي عادته في أحيان كثيرة ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل . فمعنى العزاء : الصبر ، أو أحسن الصبر .

فهو على ذلك لا يعاب ، لأنه غير مكرر .

ومراد الشاعر · ذهب الصبر كله : أدناه وأعلاه ، وأقله وأكثره .

والمال : ما ملكته من كل شيء ، وهو عند أهل البادية — ومنهم الحطيئة — : النَّعَم .

ويقول البغدادي : المال عند العرب : الإبل ، وعند الفقهاء : ما يُتَمَوَّل أي ما يعد مالا في العرف .

والنشب : المال الأصيل . وقيل : العَقار . وقيل : المال والعقار .

فبين المال والنشب — كما ترى — شيء من الاختلاف ، فانتفى التكرار.

والدمقس : أعم من الحرير : لأنه الحرير الأبيض ، أو القز ، أو الديباج أو الكتان .

ووراء : يكون بمعنى « خلف » تارة ، وبمعنى « أمام » أخرى .

---

(١) هو الهذيل بن مشجعة كما في حماسة المرزوقي — ٤ · ١٦٨٠ .

(٢) رواها العسكري في ديوان المعاني —١—١١ لابن خزوية المدني، وجاء البيت هكذا:

إني — وإن كان ابن عمي واغرا — لمزاحم من خلفه ووارئه

وعلى المعنيين جاء قوله — تعالى — : «وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غَصْبا» .

وعلى المعنى الأخير جاء قوله — سبحانه — : «ومِنْ ورائهم بَرْزَخ إلى يوم يُبْعَثون(١)» أى من أمامهم . وأرجح أن يكون الشاعر قد أراد المعنى الأخير ، فليس فى هذه الألفاظ تكرار عند التدقيق ، وهى — إن حسنت — فليس ذلك لوقوعها آخر البيت ، ولكن لاختلاف معانيها .

هذا ما كنت رأيته باجتهادى ، ثم قرأت بعد ذلك ما كتبه المرزوقى ، فإذا هو يقول : يصف — أى الشاعر — كرم محافظته وحسن نيابته عن غياب أهله وذويه ، فيقول : إنى لمدافع ومُرام دون ابن عمى — إذا غاب عنى — فأذبّ من قدامه وخلفه .

والمعنى : أنى أقاتل دونه وأكون هاديا له وقد تخلف عنى ، أوحاديا له وقد تقدمنى ؛ فقوله من ورائه ؛ من البين الظاهر أنه بمعنى التقدم ، وقد ذكر معه خلفه ، واشتقاقه من المواراة وهى المساترة، ولذلك صلح وقوعه موقع الخلف والقدام ، وفى القرآن «وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا».

وموضع من خلفه نصب على الحال : أى متخلفا أو متقدما(٢) .

وقد عد ابن سنان الخفاجى قول بعضهم :

ولولا دموعى كتمت الهوى ولولا الهوى لم تكن لى دموع

بأنه ليس من التكرار المكروه .

وذلك لأن المعنى مبنى عليه ، ومقصور على إعادة اللفظ بعينه .

وهذا حد يجب أن تراعيه فى التكرار ؛ فمتى وجدت المعنى عليه ، ولا يتم إلا به ، لم يحكم بقبحه .

---

(١) مقاذف : من المقاذفة وهى الرمى . (٢) الكشاف — ١ — ٧٢٥ .

(٣) حماسة المرزوقى — ٤ — ١٦٨٠ .

ومتى خالف ذلك ، قضيت عليه بالاطراح ، ونسبته إلى سوء البضاعة[1] .

والذى أراه : أن التكرار يمدح ، ويذم بحسب انطوائه على الفائدة المقصودة ، أو خلوه منها .

فهناك تكرار لقطعة ، أو لجملة بعينها يحمد بلاغيا : لوفائه بالغرض ، واحتياج المقام إليه ، كقوله — تعالى — : «فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا » .

وقول عبيد بن الأبرص :

هلا سألت جموع كندة   يوم ولوا أين أينا

وقول آخر :

إلى معدن العز المؤثل والندى   هناك هناك الفضل والنائل الجزل

وقول بعض العصريين :

لم ير الناس للصديق أبى بكر   مثيلا وأين أين المثيل[2]

فالتكرار فى هذا كله واقع موقعه الذى لا محيد عنه ، ولو خلا منه الكلام لذهب شطر حسنه ، بذهاب التوكيد والمبالغة المقصودين من المتكلم.

ولكنك لا تلمس فائدة للتكرار ، ولا تحس تنغيما يندى على قلبك ، ولا حلاوة تسيغها نفسك فى مثل قول الكلحبة العرنى اليربوعى[3] :

إذا المرء لم يغش الكريهة أو شكت   حبال الهوينى بالفتى أن تقطعا

لأن الفتى حشو واضح ، وكان يكفى أن يقول «به» ، لتقدم ذكر المرء الذى يغنى عن ذكر الفتى .

---

(١) سر الفصاحة — ٩٩ .

(٢) أغاريد السحر — ٦٤ .

(٣) معنى الكلحبة : صوت النار ولهبها ؛ كذا فى العباب ، وزاد القاموس كلحبه بالسيف : ضربه.

وقول زيد الخيل — يخاطب كعب بن زهير — :

يقول أرى زيدا ـ وقد كان معدما   أراه لعمرى قد تموّل واغتنى

فقوله : أراه : حشو لا فائدة منه .

وقول قيس بن منقذ المعروف بابن الحدادية :

إن الفؤاد قد امسى هائما كلفا   قد شفه ذكر سلمى اليوم فانتكسا[1]

فأتى بقد فى مصراعى بيت واحد .

ثم زاد على ذلك قبحاً آخر حين أتى بأمسى واليوم مع تناقضهما .

وقول أبى تمام يصف قصيدة :

خذها ابنة الفكر المهذّب فى الدجى   والليل أسودُ رُقعة الجلباب

فالدجى : حشو ، لأن فى القسم الثانى ما يدل عليه .

فإن لم يكن فى القسم الأول حشو ، كان القسم الثانى بأسره فضلة[2]

هذا فيما يتعلق بتكرار اللفظ والجمل المتحدين فى المعنى .

وأما التكرار بالترادف ، فمنه تكرار لايزيد الكلام بهجة ، ولا يمنحه فائدة ، وهو مستقبح حيث وقع ، وقصاراه : أنه يضيع الوقت ، ويورث التعب ، ويبغض فى القراءة والاستماع ، ويوقع فى الضجر والسآمة .

وهو — إلى ذلك — دليل على ضيق العطن ، ونضوب المعرفة ، وجدب الفكر ، وطول اللسان على العقل .

ومنه تكرار يخلع على الكلام رونقاوجمالا ، ويضفى عليه بشاشة وبهاء ويضيف إليه ألواناً من الأنغام المحببة ، ويشقق منه صوراً جديدة ، تحمل أطيافاً جديدة من المعانى والأخيلة ، والصور والعواطف ، وإن متّت إلى الأصل برحم واشجة ، وسبب أكيد .

---

(١) قدامسى : وصل همزة القطع لضرورة الوزن .

(٢) العمدة ـ ٢ ـ ٥٦ .

وهذا هو الفرق بين الإطناب والتطويل.

ذلك، أن التكرار الفنى البليغ لا يقع متحداً فى جوهره أبداً، بل لا بد أن يتحفنا بشىء من التلوين اللفظى والمعنوى والصوتى، فيه جدة وطرافة لا توجد فى الفقر السابقة عليه، ومن السهل أن ترى هذا فى الألوان كالأحمر والأخضر والأصفر مثلا، فإنه يمكن أن تتولد منها، وتتفرع عنها ألوان أخرى لا حصر لها، كل له حسنه ومزيته، ووقعه فى نفس المشاهد له.

ومرد ذلك إلى أن اللغة بطبيعتها، وتدرّج استعمالها، تأبى لكلماتها المترادفة أن تتحد فى سماتها وشياتها وشاراتها، وإن اتحدت فى مسمياتها.

فللأسد والغزال والخمر والسيف أسماء كثيرة، ولكل منها شحنته وأشعته وظلاله وهمسه وجرسه ووقعه وتأثيره.

فالأسد غير الضيغم، والضيغم غير الغضنفر، والغزال غير الظبى، والظبي غير الشادن، والخمر غير المدام، والمدام غير الشمول إلى آخره(١).

وقد فطن المعلم الأول قديماً إلى مثل هذا الترادف الغنى فى الجملة والمفرد معاً، فقال:

إن كل عبارة من العبارات التى تؤدى المعنى، ليست واحدة فى الدلالة بل كلما تغيرت العبارة تغير المعنى، وكلما دق المعنى واتسع فى ذهن الأديب، وجب أن تتبعه العبارة دقة واتساعاً.

ويقول: إن الكلمات المتقاربة المعنى — ومنها المترادفة — لا تحمل مدلولا واحداً، وإنها — وإن دلت على المعنى دلالة عامة — فبينها فروق بالزيادة، وفروق بالنقصان(٢).

ويقول العلوى فى الطراز: الترادف — وهو الألفاظ المختلفة فى أنفسها دون معانيها، كقولنا: سيف وصارم ومهند — هذه الألفاظ متفقة فى كونها دالة على صفة واحدة لا تختلف أحوالها فى الدلالة عليها.

---

(١) فن الأسجاع للمؤلف - ١ - ٢٢٥.

(٢) بلاغة أرسطو للدكتور إبراهيم سلامة - ١٥٥:

وإن كان يقع الاختلاف فى أمور عارضة ، كصارم ومهند ، فإنهما — وإن كانا دالين على حقيقة السيف — لا يختلفان فيها لكن الصارم فيه دلالة على القطع ، والمهند فيه دلالة على نسبته للهند .

ويقرر «جاريت»[١] : أن المترادفات المختلفة للشىء الواحد ، قد تتفاوت من حيث الجرس واللفظ .

ويقول «تشارلتن»[٢] : اللفظتان المترادفتان : تتقاربا كان يتقارب الشقيقان ولكنهما لا تتماثلان تماثل الأصل وصورته .

والشاعر المجيد حين يتناول المترادفات لا يغض من هذه الفروق مهما دقت ، ومن ثم استحال عليك أن تستبدل فى القصيدة الجيدة لفظة بأخرى دون أن يتغير معنى القصيدة كلها .

والقصيدة العصماء يصيبها الفساد إن تغيرت فيها لفظة واحدة ، لأنها نتاج شاعر عبقرى عظيم ، ولا يستحق الشاعر أن يرقى إلى صف العباقرة الأفذاد ، إلا إذا علم علم الإحاطة واليقين : ماذا يريد أن يقول ، وكيف يستطيع ، وبأى الأدوات يستطيع أن يعبر عن هذا الذى يريد ، تعبيراً دقيقاً لا زيادة فيه ولا نقصان .

ويقول «نولدكه»[٣] : يجب أن نقر : بأن معاجم اللغة العربية قد تضخمت كثيراً بكلمات استعملها الشعراء وصفاً لأشياء ، فذكرها اللغويون على أنها أسماء لتلك الأشياء .

ومعنى ذلك : أنك لا تجد اسمين مترادفين يوحيان بمفهوم واحد وبخاصة عند الفنان ، وهذا سر من أسرار اللغات العليا .

وإذا كان الترادف المفيد محموداً فى الكلام المرسل على سهولة مسالكه ،

---

(١) فلسفة الجمال — ١٢٠ .

(٢) فنون الأدب — ٩—١٠

(٣) فجر الإسلام — ٦٧ .

وخفة المثونة فيه ،فمن باب أولى أن يحمد فى الشعر والسجع والازدواج ، لفداحة المشقة وصعوبة الكلفة ، وتقييد الحرية ، حتى يخفف من تراكم الحلى ، ويقلل من ثقل التبلور والتراكيز ، ويرفه من عناء التفهم والتذوق .

وقد أشار إلى ذلك العسكرى بقوله[1] : ولابد للكاتب فى أكثر أنواع مكاتباته ؛ من شعبة الإطناب ، يستعملها إذا أراد المزاوجة بين الفصلين ، ولا يعاب ذلك منه ، مثل أن يكتب : عظمت نعمنا عليه ، وتظاهر إحساننا لديه .

فيكون الفصل الأخير داخلا معناه فى معنى الفصل الأول ، وهو مستحسن لا يعيبه أحد .

ومثل قول « باسل » خادم مروان بن محمد — لما أحيط بسيده — : من أغفل القليل حتى يكثر ، والصغير حتى يكبر ، أصابه مثل هذا .

وهذا كلام فى غاية الحسن ، وإن كان معنى الفصلين الأخيرين داخلا فى معنى الفصل الأول .

ومثل قوله – تعالى — : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » .

فالإحسان داخل فى العدل وإيتاء ذى القربى داخل فى الإحسان ، والفحشاء داخل فى المنكر ، والبغى داخل فى الفحشاء .

ومن الشعر قول حسان :

إن شَرْخَ الشباب والشَّعَر الأسود   مالم يُعاص كان جنونا

فالشعر الأسود داخل فى الشباب .

---

(١) الصناعتين ـ ١٥٨ ـ ١٨٦

(٢) الحفص : الدعة ، ومنه : عيش حافض .

وكذلك قول أبى تمام :

رُبَّ خفض تحت الثَّرى وغناء من عَناء ، ونضرة من شحوب [١]

ويقول العسكرى فى موضع آخر [٢] : بسط الألفاظ فى أنواع المنثور سائغ ، ألا ترى أننا نحتاج إلى الازدواج ، ومن الازدواج : مايكون بتكرار كلمتين لهما معنى واحد ، وليس ذلك بقبيح إلا إذا اتفق لفظهما .

ويسوغ ذلك فى الشعر أيضا ، كقول البحترى :

يودِّىَ لو يهوَى العذول ويعشق فيعلمَ أسباب الهوى كيف تعلَق

فيهوى ويعشق سواء فى المعنى ، وهو حسن ، إلا أن أكثر مايحسن فيه إيراد المعنى على غاية ما يمكن من الإيجاز .

وذكر القلقشندى [٢] فيمايحتاج الكاتب إلى معرفته : المتباين والمترادف ، والحاجة إلى الأخير ، للتخلص عند ضيق الكلام عليه فى موضع ، لطول لفظة أو قصرها ، أو اختلاف وزنها فى شعر أو رعاية الفاصلة آخر الفقرة فى نثر ، أو غير ذلك مما يضطر معه إلى إيراد بعض الألفاظ دون بعض .

ومن يتتبع أسلوب الجاحظ وخليفته « طـــه حسين » ومن إليهما ممن يصطنعون الإطناب فى التعبير ، يرى الأصباغ والألحان ، والأضواء والظلال ترجع إلى أصل واحد .

ولكنك تمر فى هذه الديباجة الألقة الأنيقة ، فيخيل إليك أنك تجتاز

---

(١) الصناعتين - ١٨٥ - ق ٧٨

(٢) صبح الأعشى - ١ - ١٠٣ - ١٠٤ .

روضة فيحاء لا نهاية لها ، كلها خضرة ونضرة ، ووشى وحلى ، وزهر وعطر وسجع وغناء ، ينسى لاحقها سابقها ، ويذهل آخرها عن أولها .

وهذا هو الكلام الذى يدعى بيانا، والبيان الذى يدعى سحراً ، والسحر الذى يدعى حلالا ؟! ومزيته هذا الأسلوب . أنه يعطيك المعنى واللفظ ، ويفيدك الحلية والنغم ، ويمنحك الدعة والبهجة والأنس ، بفضل التأنق فى التخيل ، والبراعة فى التصوير ، والافتنان فى العرض ، والتلوين فى التعبير وتجلية المعانى المتماثلة فى معارض منوعة الرسوم والرقوم .

ويجب أن نفرق فى ذلك بين أسلوب وأسلوب .

فالأسلوب العلمى يميل إلى القصد فى التعبير ، وترك الزينة والتنميق ، والبعد عن التكرار والترادف .

والأسلوب الأدبى من شأنه أن يعنى بالصورة ويستجيدها ، ويتأنق فيها ، فيجلو علينا المعنى الواحد فى حلل مختلفة ومعارض متباينة ، زيادة فى الإمتاع والإطراف، وذلك يقضى بالتكرار والترادف فى بعض الأحيان.

والتكرار المعنوى جائز فى الخطابة لتثبيت الأفكار فى الأذهان ، وتمكين السامعين من الفهم، ولقوة التأثير، ولكن لابد من تغيير العبارات (١) .

ولم يفت علماء الدين أن يدلوا بدلوهم فى هذا الموضوع؛ فرأينا فريقاً من الأصوليين ينكر وجود الترادف فى اللغة ، ويذكرون اشتقاقات مختلفة للألفاظ المترادفة ، ولهم فى ذلك حجتان :

الأولى : أنه يؤدى إلى الاختلاف فى الفهم ، فقد يعلم الإنسان لهذا

---

(١) الأسلوب للأستاذ الشايب ــ ٩٤ .

المعنى لفظا، ويعلم الآخر لفظا آخر، ومع تأدية اللفظين لمعنى واحد ، فلا يعلم كل واحد منهما أن لفظ الآخر يدل عليه ، وحينئذ يتعذر التفاهم بينهما .

والحجة الثانية : أن الاسم المترادف يتضمن تعريف المعرف ، وهو خلاف الأصل .

ومن أشد المنكرين للترادف « الحكيم الترمذى » — وهو صوفى ممتاز — وقد أدى ذلك إلى وجود بعض الخلاف بينه وبين الأحناف .

وقد تصدى الإمام فخر الدين الرازى إلى من أنكروا الترادف، وتمحلوا له الاشتقاقات المختلفة ، وقرر أن عمل الاشتقاقيين هذا ليس إلا تعسفاً لا يقبله عقل ولا نقل .

ثم شرح الدواعى إلى الترادف ، وهى :

أولا : تعدد الوضع ، وتوسيع دائرة التعبير ، وتكثير وسائله ، وهو ما يسميه النحاة وأهل اللغة بالافتنان ، أو تسهيل مجال النظم والنثر ، وأنواع البديع ، وقد يحصل به التجنيس والتقابل والمطابقة .

وثانياً : تسهيل تأدية المقصود بإحدى العبارتين عند تساوى الأخرى[١].

وقريب من السبب الأخير قول ابن سنان الخفاجى فى: « القفا » ؛

فقد ذكر أنها من الألفاظ التى تستعمل فى الذم، وليست من ألفاظ المدح

وهو يرى أنه ليس بممتنع أن يكون للشىء الواحد اسمان ، أحدهما يستعمل فى موضع والآخر يستعمل فى موضع آخر :

ولكنه يرجع ذلك إلى العرف والعادة دون أصل وضع الأسماء فى اللغة.

---

(١) مناهيج البحث للدكتور على سامى النشار — ٣١ — ٣٢ :

ألا ترى أن الإنسان إذا مدح ، ذكر الرأس والكاهل والهامة ، وإذا هجا ذكر القفا والأخادع والقذال[1] .

وقد حل بعض المتكلمين المسألة حلا وسطاً ، فالألفاظ المترادفة هى: ألفاظ يشرح بعضها بعضاً ، الجلى يشرح الخفى ، فهى ليست إلا نوعاً من الحد لأن الحد هو : تبديل لفظ خفى بلفظ واضح منه تنبيهاً للسائل[2] .

على أنه مما ينبغى أن يعرف : أن للأمزجة دخلا كبيراً فى هذا فبعض الكتاب يميل إلى البسط بتنويع الجمل ، والآخر يؤثر أن تكون كل جملة مستقلة بمعناها ، منفردة بمفهومها ، وينفر بخاصة من ألفاظ التضاد والمشتركات — لفظية ومعنوية — والمترادفات ، ويعدها كلمات ترف ، أو ظواهر ثروة لغوية ، تعوق الغرض ، وتمنع السبيل إلى الإبانة .

وممن يحتضنون الرأى الأخير : الأستاذ أمين الخولى ، وقد دافع عنه بحرارة فى كتابه « فن القول[3] »

ومن قوله فى ذلك : فهذه المترادفات فى الحق ثروة لا سوق لها ولا وزن، فى منافع التعامل ، مع كونها عقبة إلى حد ما فى وجه متلقى متن اللغة ، ومحصل مفرداتها ، ودارس أدبها . وهى شىء مما يعوق اتصال الفصيحة بالدنيا ، والقرب من الألسنة والقلوب على ما نبتغى ونحاول .

على حين يقول الأستاذ أحمد زكى : والتقدم الفكرى فى الجماعات والأفراد ، يقاس بما عندهم من ثروة لغوية ، كما أن تعود الألفاظ التى تطلق على الشىء الواحد ، دليل على سعة الخبرة بهذا الشىء[4] .

---

(١) سر الفصاحة — ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢) مناهج البحث — ٣٢ .

(٣) ١٢٧ — ١٢٨ .

(٤) مبادىء علم النفس التعليمى — ١٨١ .

ولكل وجهة .

ومهما يكن ، فلا يصح أن نغفل أهمية الذوق فى الحكم على التكرار بالحسن أو بالقبح .

فالحق : أنه — كما يقول ابن الأثير — دقيق المأخذ ، ومقتل من مقاتل علم البيان .

-**-**-**-

فهرس لأمهات المسائل

الفصل الأول : الالتزام . . . . ٥ — ٥٧

أسماؤه . تعاريفه . أقسامه وأمثلتها . حروف العلة في الروى وما يمنع اجتماعه منها . اللزوم في القرآن الكريم ورأى ابن الأثير والحموى . نقد شعر لزومى للمعرى . اللزوم في شعر القدماء والمتأخرين ورأى النقاد في ذلك . رأى المؤلف . اللزوم عمل فني شاق . أشهر شعراء اللزوم في العصر الإسلامى . تائية «كثير» اللزومية وقيمتها الفنية . آراء النقاد فيها . غرام ابن الرومى باللزوم . بعض قصائده اللزومية وأقوال العلماء فيها . وقوع اللزوم في أول الأبيات . المعرى شيخ الالتزام . شعره ونثره . تآليفه . آراء النقاد فيه . خلفاء المعرى في اللزوم . اللزوم المطبوع وقيمته الفنية . آراء النقاد فيه . رأى المؤلف . لا يغتفر للشاعر التقصير في العمل الفني . ضرر تكلف القوافي . القوافي المخنثة وأمثلتها . متى يستحسن التصغير . الأسماء الواردة على التصغير . نكتة تصغير ابن أبى ربيعة للهلال ورأى سعيد بن المسيب . الخيف . الرقطاء . الموصل . المقطع الحذف . «واصل» وحرف الراء . أمثلة عجيبة للكلام الخالى من بعض الحروف . المجاز . شعر معاياة للمعرى ومظفر الأعمى . التضمين . مثال غريب له من شعر البحترى . شعبذات لزومية . مصاوله عنيفة بين البديع والخوارزمى في ذلك . المتزلزل وتمثيل الوطواط له . البديع والحريرى فارسا الشعوذة

البيانية . اللزوم فى شعر العصريين . البارودى بطل اللزوم فى العصر الحديث . تكلفه القوافى البغيضة حرصاً على اللزوم . مجاوزته حدود مالزمه الأقدمون . قصائده اللزومية وضعفها . الشاعر مخيمر تلميذ المعرى فى العصر الحاضر . لزوميات مخيمر . وصفها وتحليلها . لا يعد اللزوم فى جملته من سمات الشعر المعاصر .

الفصل الثانى التطريز . . . . ٥٨ — ٦٧

التطريز فى اللغة . التطريز حقيقة ومجازا . طراز الله . الطراز الأول . مدلولات التطريز ومشتقاته وماتوحى به . تعريفه فى الاصطلاح البلاغى . نماذج شعرية له . خلو الشعر الجاهلى والإسلامى منه . ندرته بعامة فى شعر المحدثين . إكثار ابن الرومى منه وإجادته فيه . تحليل بعض القطع الشعرية له . أسباب البراعة فى التطريز . كثرة التطريز فى عصر التصنيع البديعى . مخالفة العسكرى فى التطريز للجمهور . أحسن مدح قاله الشاعر فى رأيه . التطريز والمجاورة عند العسكرى .

الفصل الثالث : التفويف . . . . ٦٨ — ١٠٥

معنى التفويف عند اللغويين . اشتقاقه . تعريفه فى اصطلاح البديعيين . تعريف الخطيب له وإرجاع بعض أمثاله إلى مراعاة النظير والمطابقة . أمثال شعرية له . وروده فى شعر الأعراب . احتفال المولدين به . تفويف المعنى وتفويف اللفظ . يلحق بالتفويف سياقة الأعداد وتنسيق الصفات . كثرة التفويف فى شعر البحترى . أقسام التفويف . التمثيل له من القرآن والحديث والشعر والنثر . تفويف لابن زيدون استحسنه

ابن بسام . تفويف للمتنبي أعجب به سيف الدولة . نقده وتزييفه. رأى القاضى الجرجانى فيه. كثرة التفويف فى شعر المتنبي واختلافه حسناً وقبحاً . أقبح تفويف للمتنبي . حل رموزه ونقد ابن رشيق له. رأى المؤلف فيه . تفويف معيب لأبى تمام. نقد ابن الأثير له . أنواع من التفويف البارع للبحترى . رأى الحموى فى التفويف . رد المؤلف عليه. شروط حسن التفويف فى نظر المؤلف والتمثيل التطبيقى على ذلك . موازنة بين البحترى والمتنبي فى التفويف ، أمرؤ القيس فاتح باب التفويف . نقد شعر فى التفويف للدكتور نجيب محمود . مناقشة المؤلف له . الأشياء التى يفسد بها المعنى والتمثيل لها . الشاعر لا يستقصى ولا يستوعب . للتشبيه حدود معروفة . المتعة الفنية قد تتحقق بالأشياء المفترضة . استحسان الأشياء واستقباحها يختلف باختلاف البيئات . قهقهة الرعـــد وضحك البرق وما قيل فى ذلك .

الفصل الرابع : التغاير . . . . . . ١٠٦ — ١١٩

تعريفه . اسمه ومدلوله . وجوده فى المنطق باسم القياس الشعرى . كثرته فى شعر العرب . تحسين القبيح . أحسن اعتذار عن الفرار . قدرة العرب على تحسين القبيح . الجمع بين التهنئة والتعزية. مدح الموت . مدح إفشاء السر . مدح البخل . تسويغ الحلف الكاذب . مدح الإعراض. مدح الحقد وذمه. أحسن احتجاج للحقد . كثرة مدح ابن الرومى للأشياء وذمها وسبب ذلك. مدح الشر والاحتجاج لذلك من القرآن الكريم. تقبيح الحسن . ذم الصبر نثراً وشعراً. الشعراء لا يتناقضون ولا يكذبون فى الواقع. احتجاج المرتضى لهم . كراهة الوداع .

مدح الوداع . أشعر النـاس فى نظر الأصمعى . حسن البلاغة فى نظر بعض النقاد . مدح على بن أبى طالب للدنيا وذمها . افتنانه فى مدح دار وذمها ارتجالا . مدح الدينار وذمه للحريرى . مفاضلة الشعراء بين السيف والقلم . تقسيم ابن أبى الإصبع للتغاير . لا يعد التغاير تناقضاً . مغايرة المعنى لمغايرة اللفظ . مثالان للتغاير البليغ فى بعض الآيات القرآنيه . التغاير باب واسع من أبواب التربية والتهذيب . ألوان من التمثيل لذلك .

الفصل الخامس: التوشيع . . . . . ١٢٠ — ١٥٢

التوشيع عند اللغويين : اشتقاقه عند العلوى . تسميته له بالتوشيع وتعليله . تعريفه فى اصطلاح البلغاء والتمثيل لأنواعه . وروده فى الشعر والنثر . مخالفة ابن شيث القرشى للجمهور فيه . مطرّف التوشيع . اشتقاق التوشيع عند الحلبى والحموى والنويرى وتعليل ذلك . خطؤهم فيما ذهبوا إليه . التوشيع المطبوع من أجمل الحلى البديعية . أمثله منوعة للتوشيع من القرآن والحديث وشعر البلغاء ونثرهم . نقد شعر توشيعى استحسنه الحموى . أبيات فى العطف على العشاق . وصف غير العاشق بالسواد وتعليل ذلك . وصف خفوق القلب والكبد . وصف النحول . نقد شعر لابن أبى الإصبع . التوشيع شعبة من الإطناب . حسنه دائما فى النثر وتعليل ذلك . أمثـال مأثورة له . أمثال للتغليب وشروطه . التغليب فى القمرين والعمرين ورأى العلماء فيهما . التوشيع الحسن قليل فى الشعر . فقد الشباب وفرقه الأحباب وما قيل فى ذلك ، قديماً وحديثاً . تحليل أمثلة شعرية فى التوشيع ونقدها . وقدره البيان على تصوير المحال ممكناً ، والبعيد قريباً وتأليفه بين المتنافرين . نقد أبيات استحسنها العلوى ، وبيـان

مثالبها . القرابة بين الجود والشجاعة وأقوال الشعراء فى ذلك .
نقد قصيدة فى التوشيع لأبى عبدالله محمدبن حامد . نقد الدكتور زكى مبارك لبعض شعر التوشيع والرد عليه . خضوع التوشيع لروابط تداعى المعانى .

الفصل السادس : الاطراد . . . . ١٥٣ — ١٧٦

معنى الاطراد عند اللغويين والبلغاء . شروط حسنه . غلو الصفى الحلى فى شروطه . عدم التكلف دعامته الأساسية . شواهده الشعرية القديمة . بيت لدريد بن الصمة فى الاطراد وبيان جماله . شروط حسنه عند ابن رشيق . أمثلة مطبوعة له وتوضيح حسنها . أمثلة معيبة له ونقدها . أبيات اختيرت قوافيها ابتداء . لا يعاب على الشاعر اختيار القافية لغرض من الأغراض . شروط اختيار القافية . أبيات النابغة الدالية وأبيات البحترى الفائية ورأى النقاد فيهما . مجىء بعض الأعلام عفواً فى الشعر . الأسماء المستحسنة فى الشعر . نقد أبيات وردت فيها أسماء ثقيلة . رقة الأسماء فى عصور الحضارة . للشعراء أسماء خاصة . الأسماء الحقيقية والمستعارة فى الشعر .

سبب حب العرب لتكنية البنات فى الصغر . نقد أبيات المتنبى حفلت بالأسماء . اختلاف الخفاجى وابن رشيق فى الحكم عليها . نقد كلمة «أنياب» فى الشعر . ضرطة سليمان بن وهب . تهجين العلوى لذكر الأمهات فى الشعر . رد المؤلف عليه بالأمثلة الكثيرة . مايجب تحققه فى المدح بالأمهات .

الفصل السابع : التوءم . . . . ١٧٧ — ٢٠٠

أول من استنبط هذا الباب . تعريفه عند البلغاء وتسميته .

اعتراض ابن السبكى على بعض أسمائه . أنسب الأسماء له . مابنى على قافيتين منه. قصيدة تنسب إلى الطغرائى والحريرى معاً . أمثلة مختلفة للتوءم ونقدها . التشريع فى شعر الأخطل . رأى الوطواط فى الأجزاء الباقية بعد إسقاط الأصل .. مثال لما بنى من أكثر من قافيتين وتقطيعه إلى قواف عدة . بحر الرجز أوسع البحور فى التوءم . اختلاف البلغاء فى التوشيح . قيمة التشريع الموسيقية والفنية . أحسن ضروبه وأخفها . أمثال للشعوذة الشعرية . قصيدة غريبة للرئيس ابن عاصم ونقدها قصيدة للخلاطى تقرأ على ستين وثلاثمائة وجه وطريقة ذلك . بيت يشتمل على أربعين ألف بيت . رأى ابن الأثير فى مثل هذه الأشعار . مايتصل بالتشريع : المتلون . المربع. اختلاف العلماء فى وقوع التشريع فى النثر . ليس كل شاعر يجيد التشريع. التمثيل له من القرآن الكريم . اعتراض السيوطى على ابن أبى الأصبع فى بعض الأمثلة .

الفصل الثامن : التكرار . . . . ٢٠١—٢٤٥

تعريف التكرار . أمثلة له من الشعر . أحسن ماورد منه فى الشعر . التكرار فى الغزل. فى المدح . أمثلة للمفرد والمركب . التكرار فى الهجاء . قصيدة جرير الدماغة . وروده فى الزراية والتهكم . فى التقريع والتوبيخ . فى الوعيد والتهديد. أمثلته المفردة والمركبة من القرآن. وروده فى التوجع والرثاء. رثاء زوجة لزوجها. باب الرثاء أولى بالتكرار . وروده فى الاستغاثة . فى التفخيم . فى التعجب . فى الاستبعاد . فى التهويل . فى التقرير والإنكار . بلاغة الفاصلة «فبأى آلاء ربكما تكذبان» وما قيل فى ذلك. بلاغة الفاصلة «فذوقوا عذابى ونذر» . تكرير بعض الأبيات المشهورة . موقع الإطناب

والإيجاز . وجه التكرار فى سورة الكافرين واختلاف العلماء فى ذلك . تلخيص رأى المرتضى . آراء المفسرين . بلاغة الفاصلة « ويل يومئذ للمكذبين ».

بلاغة بعض الآيات المكررة . تكرير إن وأخواتها . مخاطبة القرآن للعرب والأعراب . مخاطبة القرآن لليهود . الترادف فى اللفظ والمعنى . تقسيم ابن الاثير للتكرار .

نقد المؤلف لابن الأثير . التكرار عند ابن رشيق . تهجين الحموى للتكرار . التكرار القرآنى وقيمته البلاغية . أمثلة للتكرار المستهجن . تكرير المتنبى المرذول وأمثلته ونقد الصاحب له . نقد المعرى لبعض شعر المتنبى . تنقص المتنبى الموهبة الموسيقية . اختلاف النقاد فى بعض الأبيات الشعرية . تكرار لفظة « ابن » وماقيل فى ذلك . رأى ابن الأثير فى الترادف . خطؤه فى إيراد الأمثلة . متى يحسن التكرار ومتى يقبح ؟ الفرق بين الإطناب والتطويل . رأى الفارابى فى الترادف . رأى العلوى وغيره . رأى بعض نقاد الغرب . أسلوب الجاحظ وطه حسين . الأسلوب العلمى والأسلوب الأدبى . إنكار الترمذى للترادف ورد الرازى عليه . شرح دواعى الترادف . اختلاف الترادف باختلاف الأمزجة .

مصادر الكتاب ومراجعه

اسم الكتاب ومؤلفه

مسائل فلسفة الفن المعاصرة : ج ، م جويو . ترجمة الدروبى

تحرير التحبير . ابن أبى الإصبع العدوانى مخطوط بالمكتبة التيمورية »
بديع القرآن . « « « « تحقيق الدكتور حفنى شرف
نهاية الأرب . . . . النويرى
خزانة الأدب . . . الحموى
حسن التوسل . . . الحلبى
معاهد التنصيص . . . العباسى
التجريد على السعد . . . البنانى
ديوان الحماسة . . . أبو تمام « طبع الرافعى »
ابن قيس الرقيات . . . على النجدى
المثل السائر . . . . ابن الأثير
مفتاح العلوم . . . . السكاكى
ألحان الأصيل . . . على الجندى « ديوان شعر »
شرح المفصل . . . الزمخشرى
الكامل . . . . . المبرد « شرح المرصفى »
دولة النساء . . . . البرقوقى
الأمالى . . . . . القالى
مع أبى العلاء فى سجنه . . . الدكتور طه حسين
سر الفصاحة . . . . ابن سنان الخفاجى
تزيين الأسواق . . . . داود الأنطاكى

معجم الأدباء	ياقوت الحموى
العمـــدة	ابن رشيق
زهر الآداب	الحصرى
نفح الطيب	المقرى
الغفران لأبى العلاء . . .	الدكتورة بنت الشاطىء
التفسير الأدبى	أمين الخولى
دايون الشريف الرضى . . .	
النابغة الذبيانى	عمر الدسوقى
الفصول والغايات	المعرى
كشف الظنون	حاجى خليفة
صوت أبى العلاء	الدكتور طه حسين
أبو العلاء	أحمد تيمور باشا
فن الأسجاع	على الجندى
تجديد ذكرى أبى العلاء . . .	الدكتور طه حسين
وفيات الأعيان	ابن خلكان
دراسات فى علم النفس الأدبى .	حامد عبد القادر
تاريخ النقد الأدبى	طه إبراهيم
المزهر	السيوطى
فوات الوفيات	الكتبى
الشعر والشعراء	ابن قتيبة
ديوان ابن ربيعة . . .	
رغبة الآمل	المرصفى
الأغانى	أبو الفرج الإصفهانى « طبع دار الكتب »
الطراز	العلوى اليمنى
المقامات	الحريرى

حدائق السحر . . . الوطواط، ترجمة الدكتور الشواربى ،

البيان والتبيين . . . الجاحظ

جمهرة خطب العرب . . زكى صفوت

مفتاح الأفكار . . . أحمد مفتاح

المخصص . . . . ابن سيدة

الملل والنحل . . . . ابن حزم

الفرق بين الفرق . . . البغدادى

مفاتيح العلوم . . . . الخوارزمى

سلافة العصر . . . المدنى

الإحاطة فى أخبار غرناطة . ابن الخطيب

يتيمة الدهر . . . . الثعالبى

ثمرات الأوراق . . . الحموى

المستطرف . . . . الأبشيهى

حاشية الدمنهورى على متن الكافى

الرسالة العذراء . . . ابن المدبر

الأوراق . . . . الصولى

الموشح . . . . المرزبانى

رسائل البديع

الكشاف . . . . الزمخشرى

مقدمة لزوم مالا يلزم . . المعرى

ديوان امرىء القيس . .

ديوان النابغـــة . .

ديوان البحترى . . .

ديوان البارودى . . .

لزوميات مخيمر . . .

القاموس . . . . الفيروز باذى

لسان العرب . . . . ابن منظور

المصباح . . . . الفيومى

الأساس . . . . الزمخشرى

ثمار القلوب . . . . الثعالبى

الصناعتين . . . . أبو هلال العسكرى

ديوان ابن المعتز . . .

ديوان ابن الرومى . . .

قلائد العقيان . . . الفتح بن خاقان

فن الجناس . . . . على الجندى

ديوان ابن زيدون . . .

ديوان المعانى . . . العسكرى

الإيضاح . . . . الخطيب

بغية الإيضاح . . . عبد المتعال الصعيدى

الذخيرة . . . . ابن بسام

العرف الطيب . . . اليازجى

المواهب الفتحية . . . حمزة فتح الله

نكت الزركشى على البخارى .

فتح البارى . . . . ابن حجر

المغنى . . . . . ابن هشام

ديوان ابن الفارض . .

فنون الأدب . . . . هـ . ب تشارلتن « ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود »

ديوان ابن هانىء الأندلسى .

المجمل فى فلسفة الفن . . بندتوكروتشة

آثار المؤلف

١ — الشعر :

أغاريد السحر . أخذ الجائزة الأولى من المجمع اللغوى سنة ١٩٤٨ م .
٢٦٠٠ بيتاً .

ألحان الأصيل . ٤٥٠٠ بيتاً

ترانيم الليل . ٣٥٠٠ بيتاً .

٢ — النثر

كتب جامعية .

فن الأسجاع : جزءان .

فن التشبيه : ثلاثة أجزاء .

فن الجناس .

البلاغة الفنية .

٣ — كتيبات :

سياسة النساء .

رمضان فى الأدب .

بين القمر الطبيعى والصناعى .

٤ — كتب عامة:

خمسة أيام فى دمشق الفيحاء .

الشذا المؤنس . فى الورد والنرجس .

كتب بالاشتراك :

أطوار الثقافة والفكر .
فى ظلال العروبة والإسلام : طبع منها جزءان .
المطالعة الوافية : جزءان .
حديقة الإنشاء : ثلاثة أجزاء .
بستان الإنشاء : جزءان .
روضة الإنشاء : جزءان .
سلسلة المراجعة : ستة أجزاء .

* * *

المختار من شعر القومية العربية ثلاثة أجزاء
« تحت الطبع »

كتب معدة للطبع

الجن بين الحقائق والأساطير
الشاعر المؤمن الصوفى
بستان البهاء زهير .
فى مملكة حواء
أدب الفأل والشؤم .
التمثيل بالشعر
أحسن ماقيل فى بابه .
الكناية ثلاثة أجزاء
العناق فى شعر العشاق .
فلسفة الأسماء
ملك الغابة
المرأة والغزل فى شعر المتنبى

سيف الله المسلول .
الرؤى والأحلام .
سورية : طبيعتها وربيعها .
الفواكه فى الشعر العربى
الفنون البلاغية فى شعر شوقى .
متحف الكون ثلاثة أجزاء
أغرب المرائى ثلاثه أجزاء
شجون وفنون : ستة أجزاء
القطوف الدانية : سبعة أجزاء .

* * *

سجع الحمام . فى حكم الإمام

(بالاشتراك)

المطبعة الفنية الحديثة
٢ شارع الأصبغ الزيتون ت ٨٦٤٨٧١





